ناصر عراق

اللوكاندة

رواية

درب قرمز

الدار المصرية اللبنانية

اللوكاندة

رواية ناصر

عراق

اللوكاندة: رواية /ناصر عراق .- ط1 .-

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2020 .

280 ص؛ 20 سم .

تدمك: 9789777952668

1- القصص العربية .

ب- العنوان. 813

رقم الإيداع: 2019/ 27340

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى:2020 م

تصميم الغلاف الفنان: أحمد مجاهد

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف

وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي

مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس

منه، أو تحويله رقميا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا

بإذن كتابي مسبق من الدار.

ناصر عراق

اللوكاندة

رواية

درب قرمز

ناصر عراق

اللوكاندة

رواية

الدار المصرية اللبنانية

إلى الذين غادروا والذين أقبلوا...

لعلهم يدركون أن بالحب والفن والوعي... يتألق الإنسان وينتصر.

ناصر عراق

عليوة أبو زهرة

اسمي عليوة أبو زهرة. أُكمل عامي التاسع عشر بعد أيام. في النهار أتعرق بغزارة يوميًّا، وأنا أكدح في زراعة أرض الوالي برفقة أبي وشقيقي الأصغر غباشي. وفي المساء نتقاسم الخبز والهموم في بيت طيني بسيط في قرية الشموت ببنها.تلقيت مبادئ القراءة والكتابة في كُتّاب قريتنا فأتقنتهما إتقانًا، كما نلت قدرًا من العلوم والحساب واللغتين الفرنسية والإنجليزية في مدرسة محمد علي باشا ببنها، قبل أن يغلقها الوالي عباس بالضبة والمفتاح منذ أربع سنوات، فحزنت لذلك حزنًا شديدًا، إذ انطفأ فجأة نور المعرفة الذي أضاء عقلي وأسعده، ومازلت أذكر عبارة أستاذ اللغة الإنجليزية وهو يجفف دموعه قائلًا لي بحسرة: (حظك شحيح يا عليوة، فأنت فتى مميز أريب، وللأسف فقد بددوا جهد العلامة الجليل الشيخ رفاعة الطهطاوي وأحلامه، عندما أغلقوا المدارس... يا خسارة).

وهكذا عدت مخذولًا مقهورًا إلى فلاحة أرض الوالي والتعرق بغزارة يوميًّا.

أنا أيضًا أكثر الشباب نحافة في قرى بنها كلها، فقد خاصمتني الدهون كما يقولون، وهذا من سوء حظي البائس؛ إذ وقع اختيار أدهم بك مدير قصر الوالي على شخصي الضعيف، بعد أن عاين مئات الشباب بمعاونة شيخ البلد، فلم يعجبه أحد منهم. رآني للمرة الأولى مصادفة في أثناء مرور موكبه المدجج بالجياد والبغال والكلاب والحرّاس والجنازير بين القرى باحثًا ومدققًا كذئب جائع، يتلصص على فريسة غافلة. كنت أجلس في ظل شجرة توت معمّرة على شاطئ الترعة الصغيرة التي تخترق قريتنا، أرعى أحزاني بمطالعة المصحف الكريم وأتلو (وأما بنعمة ربك فحدّث) من سورة (الضحى). لاحظت الموكب من بعد، فلم أكترث كثيرًا، فما أكثر مرور أدهم بك وحراسه وكلابه بقريتنا، حيث ينقضون على الشباب ويقيدونهم بالحبال، ويقتادونهم قسرًا للعمل في إنشاء أول خط للسكك الحديدية في مصر، وكنت أظن أنهم لن يمسكوا بي، فنحافتي الشديدة تحميني ولا تغري أحدًا بالاستعانة بي. فلما اقترب الموكب من مجلسي، أمرهم البك بالتوقف، وترجّل من فوق فرسه البني وسط اندهاش مرافقيه وحراسه، ودنا مني حتى كاد يلمسني كرشه الرجراج، وسألني بلكنة عربية متكسرة مكسوة بعجرفة عثمانلية:

- ماذا تفعل؟

فانتابني الذعر، وانتفضت واقفًا في لحظة، إذ كنت مستغرقًا في التلاوة، لكني تمالكت فتملكت زمام أمري وقلت بصوت خفيض، وأنا أختلس النظر إلى شاربه الكثيف المبروم من طرفيه:

- أقرأ كلام الله عز وجلّ في القرآن الكريم.

فسخر مني بنظراته الممجوجة التي راح يرميها على من برفقته يمينًا وشمالًا، ثم تفحص جسدي جيدًا ومدّ ذراعه اليمنى وتحسس لحيتي الخفيفة بأنامله الناعمة المكتظة، وغمغم بعبارات لم أفهمها، ثم سألني:

- ما اسمك؟

- عليوة أبو زهرة.

- وأمك؟

- الله يرحمها يا سيدنا البك.

فردّ بعصبية:

- نعم... نعم... الله يرحمها، لكن ما اسمها؟

فقلت بخجل:

- وما دخل أمي في الموضوع؟ هذا لا يصح يا سيدنا البك.

فكاد يهوي عليّ أحد الحرّاس بسوط غليظ وصاح:

- انطق يا فلاح يا حيوان، لا تتعب أدهم بك، انطق بدلًا من أن...

وأشار إلى السوط، ودفعني آخر حتى كدت أسقط أرضًا، فقلت وأشواك الغيظ تنبت في صدري:

- زغلولة... أمي اسمها زغلولة.

فابتسم أدهم بك وكأنه حقق انتصارًا كبيرًا بمعرفة اسم أمي، ثم أمرني أن ألف يمينًا ثم شمالًا، وأن أستدير للخلف، ففعلت ما أمرني به، وأنا في غاية الاستغراب والانزعاج والتململ، ثم قال مستنكرًا وهو يشير إلى المصحف بيدي:

- هل تعرف القراءة يا ولد؟

فقلت معتدًّا بنفسي:

- وأجيد الكتابة أيضًا يا سيدنا البك!

فقهقه بصوت عال فاهتز كرشه الضخم بشدة، كأن معركة اندلعت في أمعائه، ثم صاح:

- فلاح من الأهالي يجاهر ويباهي بأنه يعرف القراءة والكتابة... والله نحن في زمن العجائب!

ثم التفت إلى رجل عن يمينه أحمر الوجه ذي شارب كثيف مثله وهتف:

- آه لو علم وليّ النعم أن ثمة فلاحًا مازال يعرف القراءة والكتابة بعد أن أصدر الفرمان إياه الذي أغلق به المدارس، لأمر بقطع رأسه في الحال!

فارتعبت وتحسست عنقي بكلتا يدي بشكل لا إرادي، والتزمت الصمت، لكن أدهم بك سألني بصوت عال أجش ذي رنين نحاسي منفّر:

- هل تذكر تاريخ ميلادك وعدد سنوات عمرك؟

- طبعًا يا سيدنا البك... في طلعة رجب القادم أكمل تسع عشرة سنة، فأنا أحفظ يوم وتاريخ وسنة ميلادي؛ لأن أمي أخبرتني بعدما كبرت أنها لم تستطع زيارة قبر أبيها لأول مرة في طلعة رجب، الذي ولدت فيه لأنها وضعتني ثاني يوم منه.

فحنى رأسه باهتمام، ثم صاح:

- أمسكوه.. هذا هوالمطلوب، كما أوصى كبير المنجمين، وأبلغ مولانا الوالي عباس بذلك حسبما تقول الأبراج والنجوم!

فانقض عليّ حراسه في لمح البصر وقيدوني بجنازير من حديد كمجرم عتيد، لكن شيخ البلد رجاهم بإشارة من يده أن يتوقفوا لحظات، ومضى يثرثر بكلام عقيم عن ضعفي وعدم قدرتي على العمل، وألا فائدة مرجوة من أخذي معهم، فحسم أدهم بك المناقشة هاتفًا:

- هذا موضوع آخر يا شيخ البلد.

وهكذا جرّوني جرّا إلى قصر الوالي عباس على أطراف بنها!

* * *

اقتادني رجال الحرس العثمانيون، وقذفوا بي في حجرة صغيرة ضيقة لصيقةبالمطبخ الكبير الملحق بقصر الوالي، حيث وصلت إليه بعد ساعتين سيرًا على الأقدام، لأنه يقع في جوف الصحراء في منطقة منعزلة مخيفة، بعيدًا عن قرى بنها ونجوعها وكفورها، بينما أدهم بك ورفاقه يتبادلون حوارات باللغة التركية وهم مستريحون على ظهور الجياد. وكان أحد الحراس قد وضع الأغلال في معصميّ وسحبني خلفه، ولأن الجو كان لطيفًا في هذا الوقت من نهايات النهار، فلم أشعر بتعب كبير من السير هذه المسافة كلها حافي القدمين، وإنما آلمتني تلك الأغلال كثيرًا، وكلما تلفت خلفي أرى قريتنا تذوب وتضمحل تحت سماء مرصعة بسحب رمادية، فتعتريني كآبة موحشة، وأشعر أن القدر لن يمنحني نعمة العودة إليها مرةأخرى. وتذكرت والدي وشقيقي الأصغر غباشي، ففرت الدموع من عينيّ، بينما أمواج الليل تزحف بتؤدة لتزيح آخر قناديل النهار، حين دلفنا من بوابة القصر الشرقية.

الهيكل الضخم لبوابة القصر الرئيسة أثار فضولي، إذ تعلوها تماثيل كبيرة لخيول ونمور وأسود متباينة الأشكال والأحجام والأوضاع، وتمنيت لو أتيحت لي الفرصة لأرى ما بداخل هذا القصر المجهول لنا تمامًا، لكن لم يمنحني الحراس أي فرصة للمشاهدة أو التجوال؛ إذ سرعان ما تلقفوني على البوابة وخاطبهم أدهم بك بالتركية، فإذا بهم يسوقونني نحو ممر طويل ضيق ثم يفكون عني أغلالي، ويدفعون بي إلى غرفة تبدو قريبة من المطبخ، حيث دهمتني رائحة شواء قوية ولذيذة، ثم أمروني بالبقاء في هذه الغرفة لا أبرحها، وقدموا لي صينية من نحاس ذات نقوش غريبة فوقها صحن به جبن قريش وملح وخيار وخبز ناشف وقلة مملوءة بالماء، بعد ذلك أغلقوا عليّ باب الغرفة بالمزلاج، فانتشر الظلام إلا من أشعة شاحبة تتسلل من تحت عقب الباب. ظللت ساكنًا في جلستي حتى تعودت عيناي القبس الخفيف من النور، الذي يزحف خجلًا ليؤنس وحدتي المرعبة.ورغم توتري الشديد أكلت ولكن دون شهية، فالهواجس تعصف بجمجمتي عصفًا. ترى... ماذا يريد مني هذا البك الأحمر؟ ولماذا تفحص جسدي باهتمام ثم تحسس لحيتي وأمرني بأن ألف وأدور؟ هل الرجل من قوم لوط والعياذ بالله؟ ما أحقر هذه النوعية من الناس؟ ألا يدري أن اللواط حرام؟وأن الأرض تتزلزل أركانها إذا اقترف رجلان هذه الجريمة البشعة؟ ياه... قرف لم يكن بالحسبان. ولكن أدهم بك يسير وسط حراسه، فلا يعقل أن يعلن عن لواطه المقزز أمام الملأ؟ فماذا يريد مني؟ ثم ما دخل قصر الوالي بالموضوع؟ أم تراه يرغب في اقتنائي وبيعي في سوق العبيد، كما فعل مع بعض شباب القرية من قبل، وبإرشاد شيخ البلد نفسه؟ جن جنوني وسمعتني أقول بصوت عال: أنا حر، أنا لست عبدًا... أي نعم فلاح فقير، لكني حر، وهممت بالنهوض لأصرخ وأدق الباب بقوة طالبًا الخروج من هذا السجن، لكني تراجعت خوفًا من بطش الحراس!

* * *

رأيت أمي تطير فوق قصر الوالي بجلباب أبيض فضفاض واسع، وبيديها رغيف خبز ساخن وثمرة طماطم، تعجبت وفرحت وتساءلت متى نبت لها جناحان؟ حامت ودارت محلقة غير مرة، لكنها أخفقت في الوصول إلى المكان الذي أتواجد فيه، ثم ارتفعت أكثر وأكثر حتى غابت في السماء السابعة، فهتفت مناديًا: أنقذيني يا أمي رجاءً.

استيقظت مشوش الخاطر غارقًا في عرقي، ألتفت حولي بتوتر. أتذكر بأسى شديد أمي إحدى ضحايا وباء الكوليرا، الذي ظهر في الإسكندرية في صيف 1848 وانتشرت شراسته هنا وهناك حتى اجتاح مئات القرى وفتك بآلاف المصريين. أتذكرها في محنتي هذه فيعصر الحزن قلبي.أستغرب الغرفة المظلمة التي تخنقني بسقفها المنخفض ورائحتها العطنة. مضت لحظات حتى استرددت إدراكي، وتذكرت أنهم أمسكوا بي عصر أمس وأنهم ألقوا بي هنا.

ببطء وحذر تلمست وتحسست حتى توجهت نحو باب الغرفة لأستطلع ما بالخارج، لكن الباب مازال مغلقًا بالمزلاج. تملكني الغضب وقرعته بقوة، فجاءني صوت قاس مزعج النبرات:

- انتظر يا فلاح يا حيوان!

فالتزمت الصمت وأنا ألعنه في سري، ضامًّا فخذيّ ويديّ ضاغطًا على عضوي الذكري بقوة، فقد كنت بأمس الحاجة إلى التبول.فتح الباب فانغمر النور ليضيء غرفتي، لكن الحارس الأرناؤوطي العملاق حجب الكثير من أشعته. نعرف الأرناؤوط في قريتنا من ملامحهم ولون بشرتهم وشواربهم ولهجتهم وغطرستهم. وعلى الفور وضع الحارس القيد في يدي اليمنى، وقادني نحو دورة المياه لأقضي حاجتي، ثم سحبني خلفه في ممرات ودهاليز متعددة مكسوة جدرانها بمرايا عاكسة ضخمة، حتى وصلنا إلى بهو كبير يذهل الناظرين. البهو عالي السقف تتدلى منه نجفة جميلة، ومزدان بسجاد ذي زخارف بديعة مفروش على الأرض وستائر فخمة مسدلة على الجدران. بينما القناديل الزيتية الزجاجية الملونة تتدلى في الأركان،أما المرايا الكبيرة ذات الأطر المذهبة، ففي كل زاوية وركن لتزيد المكان نورًا وجمالًا وبهاءً واتساعًا، وقلت لنفسي متحسرًا على أحوال قريتنا التعسة: إن الوالي يعيش في الجنة يا عليوة!

فجأة... حررني الحارس من القيد الحديدي، وتركني وذهب. وقفت حائرًا في بهو مهيب تتكرر صورتي عشرات المرات كلما نظرت يمينًا أو شمالًا، فتفاقم شعوري بالقلق وكأني أراقب نفسي. لا أعرف ماذا أفعل. تسمرت في مكاني أرنو

باندهاش إلى الصور المثبتة على الجدران. من هؤلاء الرجال؟ إن هيئتهم تدل على عظمة وهيبة وجلال. ربما هذا هو الوالي نفسه، فأنا لم أر مولانا عباس حلمي قط، ولا أي أحد من أهل قريتنا حظي بنعمة رؤياه. إنه مهيب الطلعة، لا... ربما الرجل الذي بجواره.. قد يكون هذا محمد علي باشا نفسه بلحيته البيضاء، أو الوالي إبراهيم باشا. لا أدري... إنهم رجال ذوو وجوه بهية يثيرون الاحترام والهيبة والخوف.ثم لاحظت صندوقًا زجاجيًّا ضخمًا في إحدى الزوايا به شيء يتحرك. اقتربت منه بحذر لأستطلع الأمر فهالني حجم الثعبان الذي يتلوى داخله. فزعت وتراجعت بشكل لا إرادي إلي الخلف،وتساءلت لماذا يقتني الوالي الثعابين ويربيها؟ وهل توجد حيوانات أخرى هنا؟ وأدرت رأسي لأبحث، لكن دهمني الصوت النحاسي لأدهم بك، ولا أعرف من أين دخل بالضبط. حدجني بنظرة متفحصة أربكتني، وعاودتني وساوس اللواط وقرفه، ثم أمرني قائلًا:

- اتبعني يا عليوة!

بحركة ثقيلة توجه البك نحو ممر طويل يفضي إلى غرفة واسعة يتوسطها مكتب خشبي أنيق على سطحه أوراق ومحبرة وريشة الكتابة، ومن سقف الغرفة يتدلى قنديل زجاجي مضاء رغم أن ضوء النهار يغمر الغرفة جيدًا. خلع طربوشه ووضعه برفق فوق مشجب على يسار الباب، ثم جلس إلى مكتبه وهو يلهث من فرط السمنة، وأشعل غليونًا ذكرني بغليون ذلك الخواجة، الذي رأيته يشتري الدجاج في سوق بنها قبل شهر. تأملني مليًّا ونفث دخانه وقال:

- يا عليوة... ستقيم معنا هنا في هذا القصر، وسنمنحك راتبًا شهريًّا مقداره عشرة قروش كاملة.

ففرحت بالمبلغ، لكن نفسي مازالت تهفو إلى الحرية، فسألته بحسن نية:

- وما هو عملي؟ ومتى أغادر القصر لأرى أبي وشقيقي الأصغر غباشي؟

- لن تخرج من أبواب القصر أبدًا.

فارتعبت، ودوّختني الوساوس... مصيبة لو كان من قوم لوط أو ينوي أن يبيعني في سوق العبيد، وقبل أن أصيح محتجًّا ومعترضًا عاجلني قائلًا بنبرة مغرية:

- وسنمنحك جلبابًا ومركوبًا جديدين لأنك صرت من خدّام الوالي، ويجب أن تكون في ثياب لائقة.

فأيقنت أن القدر شحيح معي جدًّا، وأن الحرمان بات ينهش وجداني، ومع ذلك

انفعلت وتساءلت لأقطع الشك باليقين في مسألة اللواط:

- ولكنك لم تخبرني ما طبيعة عملي بالضبط سيدنا البك؟

فجذب نفسًا من غليونه ونفخ الدخان في الهواء وقال بصوت هادئ:

- مهمتك بسيطة... ستتذوق طعام الوالي قبل أن يقدم عظمته على تناوله!

فتساءلت على الفور دون أن أفكر في فحوى ما قال:

- هل سأحظى برؤية مولانا والتعامل معه إذًا؟

فهبّ واقفًا وهتف والشرر يتطاير من عينيه فيهتز على الفورشاربه المبروم:

- هل جننت يا عليوة؟ هل نسيت نفسك؟ من أنت لترى سيدنا ومولانا عباس حلمي؟ هه... من أنت؟

واكتست بشرته بلون الطماطم الحمراء، فبات مخيفًا مثل شيطان رجيم، وكظمت غيظي من قراراته وعنجهيته، واعتصمت بالصمت، فعاد إلى مجلسه ومضى يعبث في الأوراق التي أمامه، وهو يشرح لي بنبرة أقل غضبًا:

-وسنزوّد غرفتك بحصيرة جديدة ووسادة من القش لتنام بعمق في الليل، لكننا من اليوم سنبدأ العمل... جناب الوالي سيصل بعد الظهر، وأنت ستتذوق طعام الغداء قبل أن يتناوله الوالي كما ذكرت لك.

فتجرأت بعض الشيء وسألته وأنا أترقب هياجه بحذر:

- ولماذا أتذوق طعام الوالي قبله؟

فضحك باقتضاب، وقال بصوت شحبت حدته:

- لأنه من الوارد أن يدس أحد الأعداء السم لمولانا في الطعام، فهل تريد لعظمته أن يموت لا سمح الله؟

فانزعجت وترددت لحظة، وهممت بالكلام، لكني تراجعت، فشجعني أدهم بك وأشار لي بيده وهو ينفث دخان غليونه بسعادة:

- قل يا عليوة ماذا تريد؟ تكلم... لا تخش شيئًا.

فاستجمعت شجاعتي وقلت:

- لكن يا بك... من الوارد أن أموت أنا بالسم؟

فانتفض واقفًا وعاجلني بقوله، وكأنه كان يحفظ هذا القول من قبل:

- وما المشكلة؟ آنذاك ستموت شهيدًا، فداءً لمولانا المعظم حامي حمى البلاد والعباد!

فدفعتني حلاوة الروح، رغمًا عني ورغم الرعب الذي فتت أعصابي، إلى سؤاله:

- ألا يمكن الاستعانة بكلب أو قطة بدلًا مني، خصوصًا أن القصر يعج بالعديد منها وهي لا تكف عن الصياح والنباح والمواء في الجهة القبلية ناحية المطابخ ومبيت الخدم كما لاحظت؟

- اخرس أيها الفلاح النمرود... أتريد أن تعرض حياة هذه السلالات النادرة للخطر، وقد جلبها مولانا من الخارج بعد أن دفع في ثمنها الكثير من الأموال؟ أم تريد أن يتسرب الحزن إلى قلب مولانا لو نفق أحدها أو حتى أصيب بوعكة خفيفة جرّاء تذوق الطعام؟

ثم أردف ولم يفارقه غضبه إلا قليلًا:

- يا عليوة... إن كبير المنجمين بالقصر أخبر مولانا بذلك، بعد أن قرأ أسرار الأبراج والنجوم وطالع الكتب والنبوءات الخاصة بعمر مولانا المديد فوجدها تنطبق عليك أنت فقط.

فلم أفهم وسكت، وفي الحال تشابكت في رأسي الهواجس. لو رفضت، فقد يقتلونني أو يسجنونني، ولن يعدموا وسيلة أو تهمة أو جريمة يلفقونها لي. ولو حاولت الفرار ركضًا الآن، فسيمسك بي الحراس الأرناؤوط وينهالون عليّ ضربًا، ويعيدونني إلى هذا القصر الملعون. لا مفر من الموافقة يا عليوة، ولتقنع بأنك مازلت حيًّا، وأن الله سينجيك من هذه المحنة الطارئة، فرحمته واسعة، فهو الرؤوف الرحيم. وفجأة... انبثقت الفكرة الجهنمية في ذهني على الفور، فأحنيت رأسي بالموافقة ولم أعقب!

* * *

ذهب الصيف بحرارته الساخنة وأقبلت الأيام المنعشة بهوائها العليل، ومازلت

حبيس غرفتي بالقصر، لا أخرج منها إلا إلى المطبخ، لأمارس مهام عملي اليومي المميت تحت الأعين المفنجلةلأدهم بك أو أحد أعوانه الغلاظ. أذوق الطعام بلسان مرتعش، وقلب يرتجف، وأبلعه بحلق جاف، ونفس مصدودة، ثم أجلس القرفصاء على أرضية المطبخ منتظرًا قرار القدر: هل ستُكتب لي النجاة، أم أن الموت مسمومًا مآلي ونصيبي؟ وفي كل مرة وقبل أن أتناول ما تيسر من طعام الوالي أتلو الشهادتين بأعصاب مضطربة وروح ممزق، وقد ظنوا أن اللحم المشوي والطيور الشهية والمأكولات العجيبة والفواكه اللذيذة ستجعلني أقبل على القيام بالمهمة بشغف، بوصفي واحدًا من آلاف المحرومين من أطايب الطعام، ونسوا أن الموت المنتظر يدفع النفس إلى أن تعاف أي شيء، حتى لو كان لحمًا مشويًّا لم أذقه أو أشم رائحته الشهية المثيرة من قبل، لذا وجدت أن الحل الوحيد لمواجهة الموت المجاني هو التقرب إلى الله عسى أن ينقذني برحمته، وهكذا عوّدت نفسي أن أصلي ركعتين طلبًا للنجاة قبيل القيام بالمهمة القاتلة.

ومع مرور الأيام وتكرارها ومللها خبا نور اندهاشي الأول، عندما كنت أرى الطعام موضوعًا في صحون من الخزف والصيني جميلة ملونة ذات حواف مذهبة، فقد باتت هذه الصحون الرائعة بمثابة أوانٍ للموت يترصدني مع كل وجبة، فكرهت منظرها ووددت لو حطمتها كلها مرة واحدة، ومع دوام العجز عن التحرر من هذه المهمة القسرية المرفوضة استقر اليأس في صدري كلما جُنّ الليل وانتهى يومي بسلام، فكرهت نفسي وصرت أبغض الحياة بغضًا، لكن حين يقتادونني إلى المطبخ تستعر في صدري من جديد غريزة حب الحياة، فأقاوم الحراس بتململ وعنت غير شديدين حتى لا أتعرض للضرب، فيضطروا إلى حملي حملًا إلى المكان الكريه.حتى الطباخين الإنجليز والعثمانيين الذين يجهزون طعام الوالي أصبحوا يلاحظون ترددي المتزايد في الإقدام على تذوق المأكولات، حيث أشفق عليّ أحدهم بنظرات عينيه وزجرني الباقون بغلظة، أما أدهم بك فكان يقف غالبًا قبالتي وبيده سوط يشهره في وجهي، إذا لم أبادر في الإسراع نحو تناول السم المنتظر!

ولما طالت لحيتي لم أشأ أن أشذبها أو أخفف من كثافتها، فقد كرهت جسمي وملامحي، وعافت نفسي الطعام أكثر وأكثر، فازددت نحافةً على نحافة، حتى صرت خيالًا يمشي على قدمين، وقنعت من دنياي بتلاوة القرآن الكريم، بعد أن زودوني بمصحف شريف بناءً على طلبي. ومع ذلك، فالقلق اليومي الذي يعتريني طوال النهار يهون كثيرًا بالقياس إلى الرعب الذي يغزوني كل ليلة، إذ تتسلط عليّ الوساوس المخيفة وتقضي بأنني سأموت وأنا نائم بسبب سم خبيث لا تظهر آثاره إلا أثناء النوم، فأجدني أخشى النعاس وأقاومه بكل ما أوتيت من قوة، ولا ينقذني من عذابات الأرق وكوابيس الذعر إلا الآيات الكريمة التي

أتلوها بصوت عال وسط ظلمة، صارت صديقتي الوحيدة في هذا الليل المدلهم، فتتسلل السكينة إلى نفسي فيهدأ روحي المضطرب ويزحف النوم إلى جفوني، فأغرق في السبات!

حتى قناعتي بالفكرة الجهنمية التي واتتني عندما ابتليت بهذه المهمة مضت تفتر يومًا بعد يوم، حيث أرى طائر الموت يحلق فوق رأسي كل نهار، وأنا في طريقي إلى المطبخ كأنه يشيعني إلى مثواي الأخير، فأتساءل يائسًا ومن يستطيع مخالفة أمر الوالي والفرار من جبروته؟ لكن ما حدث أمس أعاد الفكرة إلى بؤرة اهتمامي مرة أخرى وأجج حماستي لها، فمنحني قوة خارقة لتنفيذها وليكن ما يكون، فأنت ميت ميت يا عليوة، فلم لا تسعى للنجاة وتسترد حياتك المسلوبة؟ وهل أنت تعلم المكتوب؟ فإذا كان الله يحبك فسوف ينجيك ويخرجك سالمًا من هذه النار اليومية، كما أخرج إبراهيم عليه السلام من النارسالمًا وأفلته من يديّ النمرود. والسبب في اشتعال الفكرة مرة أخرى بعد طول خمود، هو أنني استيقظت فزعًا في عز الليل على زئير أسود. أجل... زئير حقيقي مرعب وليس أضغاث أحلام. إنها أسود حية تزأر على باب غرفتي وسمعت خمشها في الباب بأظافرها ومخالبها، فخارت قوتي وصرخت بأعلى صوت، إنهم يريدون التخلص مني. ما أبشع أن تموت مهضومًا في بطن أسد!

وجاءني صوت الحارس هاتفًا: ما بك يا عليوة؟ لماذا تصيح وتصرخ؟ لاتخش شيئًا، فهذه الأسود اقتناها الوالي من أفريقيا وجاء بها رجال الحبشة الآن لنودعهم الأقفاص الحديدية داخل الحديقة الخلفية. نم واهدأ، هداك الله.

أُسود في القصر... ماذا سيفعل بها؟ وتذكرت الثعابين التي رأيتها في أول يوم قذفت بي الأقدار القاسية إلى هنا، ما أغرب هذا الوالي، وما أتعس أيامي في هذا المكان. يجب التصرف فورًا، فأنا لا أريد أن أموت مسمومًا أو مهضومًا أو ممزقا، فالحياة جوهرة ثمينة، وبريقها يسحرني سحرًا، وهكذا شملتني نوبة حماسة عارمة لتنفيذ خطتي، وليكن الله نصيري.

* * *

دكتور وليام براون

رأيته للمرة الأولى ظهيرة يوم حار يتلوى داخل غرفة ضيقة ملحقة بمطبخ القصر. كنت استدعيت على عجل إلى هناك، بناء على رجاء من قنصل مملكتنا السيد تشارلز مُري (Charles Murray)، فأعددت حقيبتي الطبية على الفور واصطحبت معي خادمي برقوق كعادتي دائمًا وتوجهت إلى بنها، ورغم أن الطريق من عيادتي بالأزهر إلى بنها في حدود ثلاثين ميلًا، إلا أن العربة التي يجرها اثنان من الجياد قطعتها في ثلاث ساعات فقط.

رسالة القنصل كانت قصيرة وخطيرة (تعال فورًا من فضلك دكتور وليام براون، فحياة جناب الوالي عباس حلمي في خطر). لم يكن الوالي في خطر، بل شاب مصري يدعى عليوة هو الذي كان في خطر، أو هكذا بدا لي عندما رأيته للمرة الأولى ببشرته الحنطية يتلوى على الحصيرة.

- انقلوه من هنا... ضعوه في غرفة بحرية ذات نوافذ وافتحوها ليدخل الهواء.

هكذا أمرت برقوق والحراس فور دخولي الغرفة الخانقة حيث يتألم عليوة، بينما القنصل يتابع تنفيذ الأمر بهمة ونشاط بحضور أدهم بك. أمام بوابة القصر المهيب استقبلني القنصل بحفاوة، وهمس في أذني بصوت خفيض، وأنا أنزل من العربة:

- يبدو أنهم حاولوا تسميم الوالي عباس!

- يا خبر... وأين هو؟

فعمل القنصل على تهدئتي سريعًا بأن ربّت كتفي وقال بصوت مطمئن:

- لا... لا... لا تقلق دكتور وليام براون... الوالي بخير... نحن نجرب الطعام في فلاح مصري قبل أن يتناوله عباس باشًا.

فهتفت مفزوعًا:

- والفلاح مات؟

- لا... إنه يتألم بشدة... لقد نصحت الوالي عباس أن يختار فلاحًا شابًّا نحيفًا ضعيف البنية؛ لتظهر عليه أعراض التسمم في الحال متى حدث، بعد أن لاحظت أنه يثق بكلام المنجمين بشأن صحته وحياته ومستقبله، لذا نريد التأكد، هل هو سمٌّ فعلًا أم مشكلة صحية أخرى تعرض لها عليوة؟

فانزعجت من نصيحة القنصل المغلفة بالموت، وودت لو عاتبته، لكنني أجلت هذه المواجهة إلى حين أفرغ من عملي، وأطمئن على صحة الشاب المسكين. على سرير حديدي منخفض ومرتبة متواضعة استلقى عليوة وهو يرمقني بنظرات غامضة. شعرت كأنه يريد أن يخبرني بشيء خطير، فعيناه السوداوان العميقتان قلقتان تمسحان الغرفة الجديدة بتوتر شديد،وتتابعان حركة الحراس والخدم بقلق ظاهر، ولما أمرت الجميع بمغادرة الحجرة لأمارس عملي، لاحظت أنه أحس بارتياح شديد، لكن وجهه تهلل بالبشر عندما سألته بالعربية:

- ما بك يا عليوة؟ ما الذي يوجعك بالضبط؟

فبادرني هاتفًا بعينين تبرقان وتنفيان عنه أي ألم:

- هل تعرف العربية يا دكتور؟

فابتسمت وأنا أخرج أدواتي الطبية من الحقيبة:

- أعرف اللهجة المصرية جيدًا، فأنا أعمل وأقيم في القاهرة منذ عشرة أعوام.

فصرخ:

- الله أكبر... الله أكبر، وأنا أيضًا أعرف اللغة الإنجليزية... قليلًا، وبالمناسبة أخبرنا مدرس اللغة الإنجليزية أن اسم حضرتك Well I am يعني حرفيًّا "أنا حسن أو جيد".

ففوجئت بتحليله لمعنى اسمي وسألته عن عمره وأسرته بالإنجليزية، فأجاب بلكنة صحيحة أذهلتني، وعدت أسأله بالإنجليزية أيضًا: أين تعلمت هذه اللغة، فقال لي في مدرسة محمد علي باشا ببنها، فازداد اندهاشي بهذا الشاب، ثم هبّ واقفًا فوق السرير فجأة واقترب مني وهمس:

- طبعًا أنت نصراني لأنك خواجة... أليس كذلك؟

فتعجبت من السؤال، ومع ذلك ابتسمت وأحنيت رأسي بالإيجاب، فأمسك راحتي اليمنى وقال بصوت عامر بالرجاء وهو يتلفت خوفًا من أن يسمعه أحد:

- والسيد المسيح يا دكتور... والسيد المسيح ساعدني!

ثم نطقها بالإنجليزية:

- Help me, please

فرمقته بنظرة مشفقة!

* * *

في طريق عودتي إلى القاهرة مساء اليوم نفسه بدا برقوق غير سعيد، فقد غطت ملامحه عبوسة واضحة، فسألته عن السبب، فقال لي بأسى إنني لم أعد أحتاجه، وأنني أخرجته من الغرفة مثله مثل الحراس الأغراب، فهوّنت عليه الأمر وسألته: (ماذا فعلت مع الحراس طوال فترة وجودك معهم؟)، فقال:(تحادثنا وتصادقنا وعزموني على مأكولات لذيذة لا أعرف اسمها، كما طلبوا مني بعض الوصفات الطبية التي تقوي العملية الجنسية عندهم، فضحكنا وتبادلنا النكات الفاحشة، ووعدتهم أن أخبرك بطلبهم)، فابتسمت، فانشرح صدره وحث الخيل بسوطه على الإسراع. وسرعان ما شردت، ووجدتني أسترجع تفاصيل اللقاءالغريب مع عليوة. إنه شاب ذكي جدًّا، واسع الحيلة، وقد تعجبت بالفعل عندما أخبرني أنه سمع من يقول إن ثمة رجلًا قضى نحبه؛ بسبب السم الذي دسه الأعداء في طعام الوالي قبل شهور، وإنه يعشق الحياة ويهاب الموت، وإنه ادّعى المرض عسى أن يرحموه من هذه الوظيفة المميتة، وقد فاجأني بجرأته وثقته بي عندما طلب مني أن أساعده على الهرب من القصر!

لا أعرف السر في انجذابي إلى هذا الشاب، ربما لأنه رد على سؤالي: (ألا تخشى أن أبلغ عنك مدير القصر؟)، بأن قال لي: (حضرتك طبيب، أي تنتصر للحياة وتواجه الموت بعلمك ساعيًا إلى قتله بأي وسيلة، فكيف تقبل أن تشي بشاب يسعى إلى الهروب من الموت؟ موت ظالم يتربص به يوميًّا مع كل وجبة طعام؟).

أذهلتني إجابته الذكيةوحماسته للحياة، وأعجبتني معرفته المعقولة بلغتنا، وجرأته للتخلص من الفخ القاتل الذي وضعوه داخله، فولدت لديَّ رغبة صادقة في معاونته على الفرار من الموت المنتظر في إحدى غرف القصر المريب. ورأيتني أستسلم لتيار الذكريات، إذ قذف بي الزمن بعيدًا إلى الوراء أعوامًا طويلة، عندما تمكن أخوالي من معاونتي على الهرب من زوجة أبي الراقصة في ملاهي "نيوكاسل" شمال لندن، فقد كادت تدمر مستقبلي حين أوعزت لوالدي السكّير بأن يخرجني من المدرسة وأنا طفل لم يتجاوز الثامنة؛ لأعمل خادمًا لها أحمل ثيابها ومصاغها وماكياجها من ملهى إلى آخر، ومن أسف، فقد رضخ لها أبي ولم يرحم طفولتي ولا دموعي، وعرفت آنذاك طعم الشقاء المنتظر لأي طفل يُغيّب الموت أمه. ولما زارني أخوالي وفطنوا إلى عذابي، صمموا على

انتشالي من دائرة الضياع التي أتمزق فيها، وحين رفض أبي السماح لهم بأخذي معهم لزيارة جدّي، قرروا تهريبي، فانتظروني على باب الملهى الذي تعمل فيه زوجة والدي وفقًا لما اتفقنا عليه، وتسللت إليهم في ليلة ممطرة وانطلقت العربة بجيادها الأربعة مسرعة جنوبًا إلى لندن، لتتبدل حياتي تبديلًا. وها هو الزمن يمر، وتلقي بي المصادفات في مأزق عجيب هنا في بلاد الفراعنة، وأراني مدفوعًا لأكرر دراما الهروب مرة أخرى.

مسكين يا عليوة، مسجون في قصر حاكم مستبد لا يمكن الهروب منه مطلقًا... ياه... أين زمنك يا محمد علي؟ صحيح أنني كنت أنتقد الكثير من قراراتك وأفعالك، لكني لم أكن أتخيل أن الأوضاع في مصر ستصل إلى هذا المستوى البائس على يد حفيدك عباس؟ لقد غرس هذا الوالي بذور الاكتئاب في صدور الناس هنا طوال خمسة الأعوام الفائتة منذ تبوّأ عرش مصر حتى الآن؟

* * *

استقبلتني مرجريت بحنانها الجميل وعينيها الخضراوين الواسعتين سائلة بقلق:

- خير يا وليام؟ ما الأمر؟ هل الوالي في خطر حقًّا؟

فضممتها إلى صدري وقبلت جبينها وقلت:

- لا.. أبدًا.

ثم عاونتني في خلع ثيابي، وأنا أوضح لها أسباب الاستدعاء المفاجئ، فاندهشت وقالت بحسرة وهي تتشمم ياقة قميصي كعادتها، قبل ضمه إلى الملابس المطلوب غسلها وكيّها:

- منذ اعتلى عباس حلمي كرسي العرش، والشمس لا تشرق في هذا البلد الطيب.

- معك حق، فالغم يكسو وجوه المصريين والأجانب المقيمين هنا على حد سواء منذ صعد هذا الرجل إلى أريكة الحكم سنة 1848. وكما قال لي السيد مري غير مرة أن أجواء الكآبة المنتشرة في البلاد تعود إلى أن عباس باشا يشك في الجميع، في أفراد عائلته... في السلطان العثماني... في الصدر الأعظم... في حرّاسه... في قناصل الدول الأوروبية... في شيوخ الأزهر... في بطريرك الكنيسة... في التجار المصريين... في الشعب كله... في الأجانب المقيمين هنا. إنه يقتات على الهواجس، فكل الناس عنده يعملون في الخفاء للتخلص منه.

حتى عمته الأميرة نازلي لم تحتمل ثعبان الريبة الذي يعبث في صدره وفرّت إلى إستانبول؛ لأن الوالي يظن أنها تدعّم في الخفاء الأمير أحمد بن إبراهيم باشا عم عباس ليزيحه عن كرسي العرش ويستحوذ على السلطة، وأنها أيضًا تحرِّض عليه الباب العالي في الأستانة. للأسف... لقدحرم الوالي نفسه نعمة الثقة بالآخرين، فصار يشك حتى في حيواناته، فزرع الهلع في أرض المحروسة!

فعلقت زوجتي قائلة وهي تشرف على إعداد الحمّام:

- أذكر أنني في دراستي للغة العربية قبل سنوات قرأت حكمة عربية منطوقها (سوء الظن من حسن الفطن)، فلم أتعاطف معها على الإطلاق، وقد اختلفت حول مضمونها مع أستاذي وهو يلقنني أصول هذه اللغة في بيتنا بلندن، حيث أحضر والدي غفر له الرب، رغمًا عن أمي، كما تعرف، من يعلمني مبادئ الرياضيات والتاريخ والجغرافيا والآداب واللغتين الفرنسية والعربية، فنحن الفتيات محرومات من الالتحاق بالجامعة، حتى أمهاتنا كن ضد أحلامنا وطموحاتنا في الاستزادة من العلم، وأذكر أن أمي كانت توبخني، إذا أبديت رغبة في الانضمام إلى الجامعة مثل الشباب. نحن مازلنا نعيش في عصر منغلق بكل أسف.

فواسيتها بصدق وقلت:

- معك حق. إنه وضع غير مقبول بالمرة فرضه مجتمع الرجال، رغم أنه إذا لم تتعلم المرأة خسر الرجل الكثير. وأتوقع أن المفكرين والكتّاب وقادة الأحزاب السياسية عندنا في المملكة سيعملون جاهدين على ضرورة التحاق الفتاة بالجامعة مثلها مثل الشاب. إن تطور أوروبا يا حبيبتي يؤكد ذلك. نحن الآن في منتصف القرن التاسع عشر، ولا أتخيل أن الأمور ستظل هكذا. لقد انطلق قطار التقدم الإنساني في بلادنا، ولن يستطيع كائن إيقافه أو إرجاعه إلى الوراء.

فابتهجت بملاحظتي وقالت:

- أتفق معك وأتمنى أن تفوز الفتاة في لندن وبقية مدن المملكة بحق التعليم الجامعي كما نالت حق التعليم في المدارس منذ زمن، أما (سوء الظن من حسن الفطن)، فهي حكمة عربية سيئة تفسد الحياة الطبيعية للإنسان وتجعله شكّاكا ومرتابًا فيمن حوله حتى يتحول إلى أسير للهواجس المدمرة.

وبعد أن استحممت، وفي أثناء تناول الطعام حكيت لها قصة عليوة وذكائه وثقافته ودهائه وعشقه للحياة، فضحكت وقالت:

- المصريون أذكياء جدًّا كما أقول دومًا، بعكس ما تزعمه السيدة كاثرين زوجة

السيد بيل تاجر الخمور.

ثم قالت بغيظ يكاد يفر من ثنايا حروفها، وهي تضع لي حبات العنب في صحن صغير:

- إنها لا تكف عن التذمر من الحياة في القاهرة واصفة المصريين بأنهم همج وفلاحون وجهلة، وكلما قلت لها... عودي إلى لندن مادامت الحياة لا تروق لك هنا، ادّعت أن زوجها لا يريد، وأقسم لك يا وليام أن كاثرين أيضًا لا ترغب في مغادرة القاهرة، فهي تربح الكثير والكثير هنا من تجارة المجوهرات التي تمارسها من منازلهم، بعيدًا عن أعين الحكومة!

سمعتها بنصف تركيز، لأنها ذكرت حكاية كاثرين وزوجها أمامي أكثر من مرة، ومع ذلك جاملتها بإشارات وغمغمات واصطنعت الاهتمام بما تقول، فلا يوجد أتعس من زوج يهمل ثرثرات زوجته مهما بلغت درجة تفاهتها،إذ ستلحظ إهماله فورًا، وستواجهه بسلسلة مزعجة من المنغصات التي لا تنتهي. ومع ذلك فقد استحوذت قصة عليوة وجرأته وحلمه في الهروب على اهتمامي الأكبر، ولما ذهبت إلى غرفة النوم سألتني مرجريت وهي تسوي شعرها أمام المرآة:

- ماذا نويت أن تفعل مع عليوة؟

فقبّلت وجنتها وتذكرت رحلة هروبي من نيوكاسل إلى لندن مع أخوالي، وقلت مبتسمًا:

- سأساعده على الهرب من القصر المميت... هل لك رأي آخر؟

فسكتت ولم تزد، فاستبشرتُ خيرًا.

***

بعد يومين ناقشت الخطة مع زوجتي مرجريت وعدلت فيها أكثر من مرة حتى اطمأن قلبي إلى نجاحها.ورغم ثرثرات مرجريت أحيانًا إلا أنها تتمتع بعقل صاف وذكاء لافت، كما أنها خبرت أهل مصر وأمزجتهم بحكم جديتها ودأبها على دراسة طباعهم والتعامل معهم، فلا تكاد تتوقف عن تدوين ملاحظاتها عنهم أولًا بأولَ، الأمر الذي يجعلني أستشيرها في الكثير من شؤوني قبل اتخاذ أي قرار، حتى أن بسيمة لا تتوقف عن تقبيلنا كلما رأتنا نتحدث بحماسة ثم نضحك من القلب.

وبعد يوم آخر توجهت إلى بنها مدججًا بخطة محددة لتهريب عليوة، وقد

اصطحبت معي برقوق الذي أعدّ العربة والفرسين للانطلاق نحو قصر الوالي. إنه شاب أسود عملاق أثق به كثيرًا، تشي ملامحه بأصولهاالأفريقية، رغم أنه يتحدث اللهجة القاهرية بامتياز، وكم يضحكني كلما أسأله أين ولدت يا برقوق، إذ يقول دومًا: (أنجبتني أمي في ليلة مظلمة غاب فيها القمر داخل غرفة ضيقة معتمة في زقاق مسدود متفرع من حارة قصية بالدراسة، فاستحوذ الظلام على كل شيء، لذا جئت إلى هذه الدنيا أسود الوجه، لكني أبيض القلب والله يا دكتور).

وبالفعل كان برقوق ذا وجدان أرق من الحرير، لكنه يستشيط غضبًا إذا شعر بالظلم أو تعرض للإهانة، ولما حكيت له مأساة عليوة أبو زهرة، تحمس كثيرًا لمساعدة هذا الشاب المسكين كما وصفه، وقال لي بصوت خفيض، وهو يعد العربة للانطلاق: (صدق من قال إن الوالي عباس مجنون).

اعتمدت خطتي في تهريب عليوة أساسًا على عدم وجود السيد مري في القصر، لأنه سيظل ملاصقًا لي يتابع قراراتي وتصرفاتي باهتمام، صحيح أنه الصديق الأوروبي الوحيد للوالي، ومع ذلك، فقد خمنت أنه قد عاد إلى القاهرة بعد أن ظل أكثر من أسبوع برفقة عباس في بنها، فمصالحه المتشعبة تكمن وتتعاظم هنا وسط المدينة العتيقة، وليست بين الحقول والصحراء في بنها. وتذكرت قول زوجتي أمس وهي تطالع طبعة حديثة من كتاب "وصف مصر" راقتهاوطلبتها من التاجر الفرنسي الذي نتعامل معه: (محظوظ السيد مري، فهو القنصل الأوروبي الوحيد الذي يتقن اللغة التركية التي لا يعرف غيرها الوالي المجنون. حقًّا عباس هذا جاهل كبير، فكيف وصل إلى عرش مصر)؟، فقلت لها مواسيًا: (ما أكثر الجهلاء الذي يقبضون على تاج السلطة بالسلاح والوراثة والمال... حقًّا... ما الحياة سوى سلسلة من الغرائب نخفق غالبًا في إيجاد تفسير منطقي لها، وكأننا نحن البشر خلقنا لنعيشها لا لنفهمها).

في الطريق إلى بنها تأملت الحقول الشاسعة التي ينكب على زراعتها آلاف الفلاحين ذوي الوجوه الحزينة المجعّدة التي لفحتها الشمس، وعاد السؤال المؤلم يتردد في خاطري (إلى متى ستظل الغالبية العظمى من المصريين قابعين تحت مظلة الفقر المذل والحرمان المهين، بينما حكامهم وأثرياؤهم يشيدون القصور الفخمة وينعمون بحياة باذخة مترفة!).

عندما وصلنا إلى مشارف القصر، قلت لبرقوق:

- استعد... مهمتك ثقيلة، وها هي الوصفات الطبية التي طلبها الحراس منك وسأتولى أنا التحدث معهم عن فوائدها وطريقة تناولها بأسلوب يلهيهم عن

واقعهم ويثير خيالهم وكأنهم في أحضان زوجاتهم، فيقل تركيزهم حتى تحين اللحظة الموعودة، فتسمع مني كلمة "خلاص" بصوت عال دون أن أنظر إليك، كما عليك أن تربط العربة في شجرة الجميز على يمين البوابة، فيما أجمعهم أنا جهة اليسار ووجوههم لي. كل ذلك بعد زيارة عليوة ونقله إلى حجرة قريبة من مكان العربة.

وبنبرة حاسمة واصلت وأنا أتلفت حولي:

- افهم يا برقوق، أرجوك، ستنتقل بين غرفة عليوة والعربة عدة مرات، مرة لإحضار معطفي، ومرة لإرجاع الحقيبة، وثالثة لحمل أي أقفاص من الفاكهة والخضروات يهديها لنا أدهم بك، وهكذا حتى تسمع الإشارة.

فأردف قائلًا بنبرة صادقة أعرفها جيدًا:

- يا سيدي العزيز أنا تلميذك وخادمك الأمين.

فقلت له:

- يا برقوق... رتّب وقتك على لحظة تغيير الحراس وتكالبهم حولي، ولا تدع الوقت يسرقك وأنت تنقل الأقفاص، وعد لي قبلها بوقت كاف، ثم تخرج بعليوة في اللحظة الموعودة.

فاشتعل وجهه بحماسة وابتسم وقال لي، وهو يضبط سرواله الواسع بعد أن قيّد الفرسين في شجرة الجميز:

- لا تقلق دكتور وليام... الحق معنا، والله معنا، وسأنفذ الخطة على أكمل وجه، حتى لو اضطررت إلى ابتلاع عليوة في جوفي ثم أجتره سالمًا بعد الخروج من القصر، ومن باب الاحتياط أحضرت معي عباءة واسعة بيضاء مزدوجة أتدثر بها إذا لزم الأمر معللًا ذلك بحرارة الشمس وعرقي الغزير عن كل خلق الله نظرًا لضخامة جسماني!

فقلت بنبرة الختام:

- خلاص يا برقوق؟

- خلاص يا دكتور.

فنبهته مؤكدًا أنني أقصد تذكيره بالإشارة، فضحك وربّت كتفه وسبقته إلى حيث

يرقد عليوة.

* * *

مرجريت براون

أضحكني برقوق كما لم أضحك من قبل، وهو يصف لي كيف حشر عليوة في سرواله وتدثر بعباءة بيضاء مزدوجة فضفاضة، وخرج به من باب القصر لحظة تغيير الحراس وانشغالهم مع وليام فلم يلحظه أحد؛ إذ قال لي بصوته الناعم:

- يا سيدتي مرجريت... إنه عصفورة، وأنا أضخم من الجمل، فكيف يراه الحراس المشغولون المغيبون؟

فرمقته بسيمة باندهاش، فمنحتها قبلة سريعة على وجنتها، حيث التصقت بي وأنا جالسة على الأريكة الكبيرة في قاعة الاستقبال، في حين قال وليام معقبًا بعد أن شرب الكثير من الماء:

- صدقيني يا مرجريت... لم تكن ثمة طريقة أفضل من ذلك لتهريب هذا الشاب المرصود للموت، وأنت تعرفين مدى تأمين القصر وكأنه ثكنة عسكرية.

لقد أكد لي زوجي العزيز أن الخطة التي وضعها كللت بالنجاح لأن القنصل مري لم يكن بالقصر كما توقع، وعلى الفور أمر الحراس بنقل عليوة إلى غرفة أخرى قريبة من البوابة الشرقية للقصر، حتى يسهل عليه الخروج سريعًا ويغيب في الحقول المترامية، كما أمرهم بترك المريض ينام ليستريح بعد أن ناوله الدواء المطلوب كما ادّعى، كذلك أخبر أدهم بك مدير القصر أنه سيعاود زيارة عليوة لمتابعة حالته بعد ثلاثة أيام.

لم يمكث وليام أكثر من ساعة في القصر الملعون، حرص خلالها على استكشاف المداخل والمخارج، وعلى الفور، كما حكى لي، قرر اختيار آخر غرفة في الطابق الأرضي لينقل إليها المريض المزيف بحجة أنها الأفضل لاستقبال الرياح الباردة النقية الآتية من جهة الشمال، ذلك أن عليوة في حاجة إلى المزيد من الهواء المنعش لمقاومة المرض وتنشيط الجهاز التنفسي كما شرح لأدهم بك.

كنت أنصت إلى تفاصيل الهروب بتركيز شديد ونحن نتناول الطعام بمفردنا، لأن بسيمة استسلمت للنوم، فقد أجهدتها عذابات الدورة الشهرية التي فاجأتها مساء أمس، فلم تحظ بنوم هادئ طوال الليل. وبعد أن هضمت أخبار المغامرة العجيبة لزوجي، فاجأني قائلًا قبل أن يضع قطعة من اللحم المشوي في فمه:

- والآن يا عزيزتي مرجريت... انسي عليوة تمامًا.

فحدجته بنظرة مستغربة وتساءلت:

- كيف أنسى شابًّا ينام حاليًّا في غرفة بمفرده في بيتي هنا بالأزهر؟

فضحك وليام وهو يحسوما تبقى في كأسه من النبيذ الأحمر وصاح:

- من هذه اللحظة، صار اسمه أبا المكارم!

فجفلت للحظة وتملكني الاندهاش، لكن وليام بعث في صدري رسالة اطمئنان بابتسامة عذبة خففت من هول المفاجأة إلى حد ما!

* * *

يقع بيتي بمنطقة الأزهر خلف الجامع الشهير قريبًا من بيت زينب خاتون، ويتكون من طابقين، حيث يوجد في الطابق الأرضي المطبخ وغرف الخدم والعبيد والحمام الخاص بهم، وقاعة استقبال واسعة تتوسطها مائدة الطعام ويحدوها في زاوية جانبية بار صغير، أما في الجهة المقابلة من قاعة الاستقبال، فثمة غرفة مربعة أطلق عليها وليام (غرفةالأنغام) لأنها تزدان بكمان وعود وبيانو أبوح له بأسراري وخلجاتي وحنيني، كما أدرّب بسيمة على العزف عليه، بينما يضم الطابق الثاني غرفة نومي أنا ووليام، وغرفة أخرى للطفل الذي نحلم بإنجابه منذ زواجنا قبل عشرة أعوام، وغرفة ثالثة لبسيمة الطفلة المصرية الرقيقة، التي تبنيتها قبل سبع سنوات وأغدقت عليها من حناني ومعارفي، حتى صارت صبية متعلمة الآن. وتتبقى الغرفة الأخيرة وهي تضم مكتبة كبيرة تحتوي على نحو ألف كتاب ومخطوط، معظمها بالإنجليزية، أما القليل فبالفرنسية والعربية.

أجل...أحب هذا البيت كثيرًا وفخورة به، وكم تمنيت لو أن والداي ظلَّا على قيد الحياة لدعوتهما إلى زيارتي هنا والإقامة معي. وأتذكر جيدًا كيف اقتنينا هذا البيت بعد بحث طويل عندما قررنا الزواج وسط دهشة أصدقائنا من الإنجليز والإيطاليين والفرنسيين، حيث قالوا: (كيف تعيشان وسط الحواري القذرة؟ ولماذا لا تشتريان بيتًا معنا هنا في الحي الإفرنجي بالأزبكية؟). على أساس أن الحي الإفرنجي هذا يسكنه الأوروبيون، وقد جعلوه قطعة من بلدانهم على مستوى النظافة والتنظيم والخدمات. ومن حسن الطالع أنني ووليام تشاركنا في عشق مصر وشعبها الطيب، رغم الآلام التي يسببها لنا فقر الناس هنا وقلة حيلتهم أمام من يحكمونهم. وهكذا واجه زوجي اعتراضات أصدقائنا بابتسامة لطيفة، ولكن بإصرار: (لقد جئت إلى هذا البلد لمعالجة أهله من الأمراض المستوطنة، فكيف أقيم في مكان بعيد عنهم؟ هنا بيتي، وبجواره عيادتي).

هكذا أوصيت أصحاب محلات الأثاث الإنجليز والإيطاليين في القاهرة بتصنيع غرف نوم وسفرة وصالون على الطراز الكلاسيكي الذي أعشقه، كما قمت باقتناء مجموعة من اللوحات الزيتية لرسامين من عندنا في لندن زينت بها جدران البيت. وكم كان وليام كريمًا معي حين قال لي برقته المعهودة: (أنت زوجتي الحبيبة يا مرجريت، فاصنعي بيتك كما تشاءين، وجمّليه كما يحلو لك).

وبعد بضع سنوات من الزواج وعدم الإنجاب، عرضت على زوجي تبني طفلة تؤنسني وتبدد وحدتي وأمارس معها أمومتي المتعطلة، وأشغل بها وقت فراغي؛ خصوصًا وأن وليام يقضي معظم وقته خارج المنزل ما بين عيادته وعيادة المرضى، فتفكر مليًّا وسألني: (ما مصير الطفلة لو حدث الحمل والإنجاب مستقبلًا؟)، فأجبت بسرعة والأمل يراودني بموافقته: (كل خير، هي تظل الأخت الكبرى لمن يأتون، وفاتحة الخير علينا جميعًا، وإلا فهي الابنة البديلة لنا حسب مشيئة الرب، فما رأيك؟). لم يجب آنذاك، ولكنه بدا كمن يخطط لمجهول قادم.

وفي ظهيرة يوم خريفي جميل اقترح عليّ أن أتبنى بسيمة، بعد أن رآها تبكي أمام جامع الأزهر وهي لم تتجاوز السابعة، وعندما عرف أنها يتيمة الأبوين أحضرها لي، فأشفقت عليها من عذابات التشرد، وراقتني طفولتها البريئة وملامحها الذكية، فأحببناها كثيرًا وشملناها برعايتنا وأحضرنا لها مدرسين للغة العربية والإنجليزية والعلوم والتاريخ والحساب ليلقنوها العلم في بيتنا، وتوليت أنا تعليمها فنون الطهي والعزف على البيانو بجانب متابعة دروسها. ثم واجهتنا مشكلة كبرى، فالطفلة مسلمة كما قالوا لوليام، ونحن مسيحيان، لكن زوجي قرر في لحظة تأمل ملهمة أن يهبها فرصة نادرة، وهي أن يأتي إليها برجال ثلاثة... شيخ أزهري وقس مسيحي وحاخام يهودي ليلقّنوها مبادئ الأديان السماوية الأساسية المشتركة، فكانوا يتوافدون على دارنا بانتظام. وأذكر أن وليام قال لي آنذاك: (بسيمة ستكون أول طفلة مصرية تنال حظها من دراسة كل الأديان المقدسة بالتساوي)، ثم ابتسم وقال: (ولن نفرض عليها شيئًا، فلما تكبر وتنضج ويتشكل عقلها، تختار ما تشاء مما درست وتعلمت، أو تخترع دينًا جديدًا يوفق بينها جميعًا، أو ترفضها جميعًا)،واصطحبتها معي إلى زيارة الكنائس والمعابد والمساجد، وكبرت بسيمة ونما عقلها، وأفصحت لي قبل شهر: (كل الأديان تدعو إلى حب الله والإنسان، وأنا أحبك يا أمي).ولما جاء عليوة اليوم، قلت لوليام وأنا ألمُّ شعري وأعقده قبل النوم:

- هل كنت تتوقع ونحن نؤسس عشنا الزوجي هنا، أنه سيصبح مأوى لطفلة يتيمة جميلة وذكية، وفي الوقت نفسه ملاذًا لهارب من قصر الوالي؟!

فضحك وضمني إلى صدره بقوة، وارتعشت شفتاه وهو يقبلني، فأدركت على

الفور أنه في حاجة إلى الدفء والحنان بعد مغامرته العجيبة في بنها، ورغم أننا قضينا ليلة ممتعة أذوب فيه بحنان ويمتصني برقة، إلا أننا استيقظنا مذعورين على طرق عنيف متسارع على الباب!

* * *

- لقد هرب عليوة.

قالها السيد تشارلز مري وهو يستشيط غضبًا، بينما وليام يحاول مداراة اضطرابه بتهدئة القنصل المنزعج. لقد استقبله زوجي في القاعة الرئيسة بملابس النوم، بينما ارتديت ثيابي وهندمت نفسي قبل أن أتوجه إلى الطابق الأرضي للترحيب بالزائر المقلق.

على مائدة الإفطار حكى لنا السيد مري، وكأننا لا نعرف،كيف فوجئ الحرس باختفاء عليوة من القصر، فهرعوا للبحث عنه في كل مكان، ومن سوء الطالع أن لحظة اكتشاف هروبه تواكبت مع وصول الوالي وأنا إلى القصر قادمين من القاهرة، ثم قال السيد مري وهو يتناول قطعة من الجبن:

- جن جنون عباس وأمر بإمساك عليوة وإعدامه في الحال هو وكل من ساعده على الهرب، لأنهم تجرأوا على مخالفة أوامره، بل خانوه في عقر داره وضربوا بصحف وتنبؤات كبير المنجمين عرض الحائط، وهو إثم لو يعلمون كبير. لذلك كله خصص مكافأة مالية قدرها مئة جنيه لمن يدلي بمعلومات عن عليوة أو الذين ساعدوه تؤدي إلى إلقاء القبض عليهم جميعًا!

فارتجفت، وكاد يسقط كأس الماء من يدي، وبشكل لا إرادي مددت بصري بعيدًا نحو الغرفة التي خبأنا فيها عليوة، وطلبنا منه عدم الخروج منها قط إلا عندما نسمح له بذلك. لكن زوجي أبدى رباطة جأش مثيرة للإعجاب حقًّا، فتعامل مع قرار الوالي ووعيده بهدوء شديد، ثم تصنّع الاندهاش قائلًا:

- متى تم ذلك، لقد أعطيته دواء يجعله نائمًا لمدة ثماني ساعات متواصلة؟ فكيف هرب؟

فزمّ القنصل شفتيه الرفيعتين فتقوستا لأعلى تعبيرًا عن امتعاضه وعدم علمه، وتأمل البيض المقلي بنهم، وتساءل وهو يأخذ قطعة منه بالشوكة:

- لا أحد يعرف، ولكن من برأيك يمكن له مساعدته على الهرب؟

فاعتدل زوجي على كرسيه، وبدا أكثر هدوءًا، فسؤال القنصل يعني أن وليام ليس في دائرة الاشتباه أصلًا، وأن خطر اتهامه غير موجود، ومع ذلك ظل قلبي يخفق بقوة حتى ظننت أن مري يكاد يسمعه، واعترتني نوبة ندم لأنني شجعت وليام على فعلته. وجاوب زوجي بثقة:

- لا أدري... فلست على علم بمكائد القصور وما يحاك في الغرف المغلقة!

فابتسم القنصل وهتف:

- معك حق، فأعداء عباس أكثر مما نتخيل، وكل منهم يريد التخلص منه أمس قبل اليوم، ولا مانع لديهم أبدًا من شراء ذمة حارس غادر أو موظف خائن بالقصر.

ثم أردف بعد أن تناول قطعة خيار:

- ومع ذلك، فالوالي ذكي ويعرف أنه مرصود من قبل أعداء ألداء واضحين، وأعداء ألدّ غير مرئيين، لذا فقد بنى قصرًا فخمًا في قلب الصحراء بالريدانية يحتوي على ألفي نافذة وشرفة، وشيد قصرًا جميلًا آخر في مكان مهجور بين القاهرة والسويس أسماه الدار البيضاء، غير قصره الباذخ في صحراء بنها... إنه يبتعد بكل طاقته عن الناس حتى يأمن شرهم!

- وهل يوجد حاكم عاقل يهرب من شعبه ويعيش منعزلًا عنه؟

فضحك القنصل وصاح:

- يا عزيزي وليام براون... من قال إنه عاقل؟ ثم أننا لا يهمنا يهرب عباس من شعبه... يحرق شعبه... يعشق شعبه، ما يهمنا مصالحنا... مصالح جلالة الملكة ڤيكتوريا... مصالح الإمبراطورية البريطانية، ومادام عباس يحقق مصالحنا السياسية والاقتصادية ولا يعرقل تنامي أرباحنا ومكاسبنا، فنحن ندعمه. لا تنس رجاءً أن الفرنسيين يتربصون بنا دومًا وعيونهم مفتوحة على الكنز المصري الذي لا قرار له.

وكدت أعلق على هذا الكلام الفج الذي يستخف بأهل مصر ويحتقرهم، لكن القنصل عاد إلى موضوع عليوة، وقال بنبرة جادة:

- لا أتوقع أن تمر فعلة عليوة بسهولة، فعباس عنيد، ويعتبر هروب هذا الفلاح بمعاونة أحدهم اعتداءً صارخًا على كرامته.

فاستعر توتري، وفي محاولة لمداراة قلقي المتزايد، غادرت المائدة بحجة الاطمئنان على بسيمة والإشراف على إعداد الشاي، لكنّ القنصل ذا الوجه الماكر بعينيه الملونتين أوقفني بإشارة من يده وهتف:

- عزيزتي مرجريت براون... هل تعتقدين أن ثمة امرأة مجهولة أو مأجورة ساعدت عليوة على الهرب؟ ومن هي؟ هل تكون من الجواري والإماء اللاتي يغص بهن القصر؟ أم من وصيفات الأميرة نازلي عمة عباس؟

* * *

أوصلنا القنصل حتى الباب وودعناه بحفاوة ورجوناه أن يكرر الزيارة في ظروف أفضل، ولما تأكدنا أن عربته ذابت في حواري الأزهر، أغلق زوجي الباب بنفسه وتأكد من إحكام المزلاج، ثم هرعنا مباشرة إلى غرفة عليوة، فوجدناه قائمًا يصلي، فلما فرغ سأله وليام:

- هل نمت بشكل جيد؟

فابتسم وقال:

- الحمد لله.. أول ليلة هادئة بعد أن خطفوني قبل شهور وقذفوا بي في مطبخ القصر الكريه، وقد كنت أصلي ركعتين شكرًا لله لأنه نجاني من الموت المحقق.

ثم أردف سريعًا قبل أن يعلق وليام:

- والفضل لك يا دكتور على استجابتك لرجائي ومساعدتي على الهرب.

تأملت الشاب وهو يتحدث بطلاقة، وأيقنت أن زوجي أحسن التصرف، فالذكاء يبرق من عينيه، والطيبة تسيل من نظراته، ورغم نحافته الشديدة إلا أنه يمتلك قدرة عقلية لافتة حقًّا. لكن وعيد الوالي أربكني جدًّا، وتردد صوت الخوف في صدري صائحًا: (تخلصي من الشاب فورًا، فهو جسم الجريمة ودليل الإدانة في شخص واحد معًا)، ومع ذلك قلت له مداعبة لإخفاء هواجسي:

- وهل نسيت برقوق يا عليوة؟

فضحك بصوت عال للمرة الأولى وصاح:

- ومن ينسى أضخم رجل التقيته في حياتي يا ست هانم. لقد حملني بذراع واحدة، وأدخلني في سرواله الواسع، وطلب مني أن أتعلق بفخذه وساقه، وإلا

ألمس الأرض أبدًا، ثم حمل بين يديه قفص طماطم أهداه أدهم بك مدير القصر للدكتور وليام، فجعله أمامه بحذاء منطقة الفخذين والحوض ليداري أي بروزات يسببها جسدي النحيل، وبعد ذلك غطى جسده كله بعباءة بيضاء مزدوجة وسار بي من باب الغرفة إلى مدخل القصر، وهو يتمتم خلاص... خلاص. إنه مثل جمل يحمل القش لا نهاية لحجمه!

فعاتبه زوجي برفق قائلًا:

- رجل يشبه جملًا؟ تشبيه غير لائق يا عليوة.

فرمقت ملامح زوجي بطرف عيني، فلم أر أثرًا لتهديدات الوالي، ولم أشاهد جيش القلق يزحف على وجهه. هكذا زوجي دائمًا يمتلك قدرة خارقة على إخفاء مشاعره، لكني تذكرت حلاوة الليلة الماضية واشتعاله في السرير، فقلت لنفسي: بالفعل... هو قادر على كبح أي مشاعر تحاول الصعود إلى عينيه وصوته، إلا شغفه اللامحدود بي، فطربت ووجدتني أمسك راحته بحنان، فالتفت نحوي متفاجئًا، ثم عاد إلى عليوة قائلًا بصوت واضح ضاغطًا على كل حرف:

- يا أبا المكارم. من اليوم، من الآن... من هذه اللحظة اسمك أبو المكارم، وستحلق لحيتك تمامًا وتضع فوق رأسك عمامة ضخمة بدلًا من هذه الطاقية حتى تتغير ملامحك فلا يتعرف عليك أحد!

فغض بصره حزنًا وغمغم متسائلًا:

- وهل سأظل حبيسًا في هذه الغرفة إلى الأبد؟ ألن أرى أبي وأخي غباشي؟

فربت وليام كتفه اليمنى وقال:

- لا... من اليوم ستعمل معي في العيادة، أما والدك، فسوف ندبّر طريقة ما لنخبره بأنك حي، وأنك في أمان، فلا تنسَ أن أخبارك قد انقطعت عنه منذ شهور!

فحدجت زوجي بنظرة اندهاش، فهمس في أذني بثقة لا نهائية:

- لا تقلقي... سأبدّل ملامحه بطريقتي!

فابتسمت وتذكرت تجربته مع المسرح عندما كان طالبًا في جامعة أكسفورد بلندن!ثم تركتهما وتوجهت إلى غرفة بسيمة لأذكّرها أن موعد حضور أستاذ اللغة العربية على وشك حتى تستعد وتراجع دروسها، فوجدتها بالفعل جاهزة

ومستعدة، فانشرح صدري لحماستها لتلقي العلم ومنحتها قبلة على خدها الأيسر فأهدتني مثلها.

* * *

بدر الدين أباظة

فاجأني الدكتور وليام هذا الصباح باصطحاب شاب مصري نحيف جدًّا يدعى أبا المكارم. قدمه لي وقال:

- يا بدر الدين... مطلوب منك تدريب هذا الشاب على فنون التمريض.

ثم أضاف وهو يهم بدخول غرفته في العيادة:

- إن أبا المكارم ذكي جدًّا، وسوف يتعلم سريعًا.

فاختلست نظرة عامة على الشاب وقلت بأدب:

- تحت أمرك يا دكتور.

منذ التحقت بعيادة الدكتور وليام قبل عامين، وهو لا يكف عن مفاجأتي بسلوكيات تنم عن طيبته وعشقه لنا نحن المصريين، فيوم السبت الماضي رفض أن يتقاضى أجرًا نظير علاج سيدة عجوز لا تملك من أمرها شيئًا، وفي سبتمبر الفائت دفع مبلغًا طائلًا لشراء جهاز التخدير من لندن مع غاز الإثير ليخفف الآلام عن مرضاه أثناء قيامه بالعمليات الجراحية، وحدثني شارحًا بفرح حقيقي:

- لا تتخيل يا بدر الدين حجم الارتياح الذي سيسعد قلوب المرضى في العالم كله بسبب هذا الاكتشاف المدهش.

وأضاف مبتهجًا وهو يتأمل الجهاز الجديد:

- العالم كله مدين لطبيب الأسنان الأمريكي وليام مورتون الذي اكتشف التخدير في عام 1846، واستخدمه في عيادته أثناء عمليات خلع الضروس والأسنان، فمن المستحيل الآن أن تُجرى أية عملية لمريض، دون أن يتم تخديره حتى لا يتمزق من الألم.

وكم تمنى أن يزداد اهتمام الوالي عباس بمجلس الصحة، الذي أنشأه الطبيب الفرنسي كلوت بك في عهد محمد علي باشا وجميع أعضائه من الأوروبيين، وقد اتخذ من الإسكندرية مقرًّا له، حيث الكثافة الأوروبية، إذ كان يقول لي دومًا: (أظن أن تعيين نوبار بك مديرًا لمجلس الصحة سيسهم في تطويره حتى يتمكن من قهر الأمراض التي تفتك بآلاف المصريين؛ فنوبار بك شاب أرمني ذكي

والوالي يثق به، وقد قدمت له تصورًا بصفتي عضوًا في المجلس لنشر الوعي الصحي بين المصريين بشكل مكثف، وتشييد المزيد من المستشفيات في المدن الكبرى والأقاليم). واليوم يأتي بشاب غريب غير ذي علم أو خبرة ويدخله في معمعة العيادة. ورغم أني تعاملت معه بهدوء ولطف إكرامًا للدكتور وليام، لكن اهتمام ڤيرجينيا به أثار سخطي عليه ونفوري منه منذ اليوم الأول!

* * *

ببشرتها الوردية وعينيها الزرقاوين وشعرها الأصفر الطويل ولفتاتها الآسرة أشعلت حواسي كلها، صحيح أنني رأيت مثل هذا النوع من الفتيات في لندن، عندما التحقت بكلية الطب هناك قبل أعوام، إلا أن ڤيرجينيا تمتلك جاذبية مختلفة، ربما في قدرتها على الإنصات، أو في مرحها الملون وعشقها الأبدي للحياة، أو في حنانها النبيل الذي تغدقه على المرضى الذين يتوافدون على العيادة صباح مساء... لا أدري، وكل ما أعيه، أنني تعلقت بها منذ أحضرها الدكتور وليام في يوم سعيد قبل ستة أشهر، ساعتها قدمها لي باقتضاب: (إنها ابنة تاجر إنجليزي استقر مؤخرًا في القاهرة). ورغم إتقاني للإنجليزية بشكل معقول، إلا أنها كانت تصر على التحدث معي باللهجة المصرية، ونبهتني بحماسة:

- أعرف لغتي جيدًا، لكني أريد تعلم لغة أهل البلد، فلا تبخل عليّ بنبراتك المصرية!

وأضافت شارحة وهي ترتب أدوات الدكتور بعناية وهدوء، كأنها أعضاء طفل رضيع:

- اللغة مثل الخبز، فنحن نأكل الخبز يوميًّا حتى نشبع، وهكذا اللغة الجديدة يتحتم أن نتحدث بها يوميًّا حتى نتقنها. الخبز نستخدمه لنحيا، أما اللغة فنستخدمها لتحيا.

ذكاؤها يبهرني ويربكني في آن معًا، لكن أنوثتها الهادئة تسحرني وتأسرني وتنسيني فردوس مؤقتا، واليوم وجدتها تنصت باهتمام إلى ما يقوله لها أبو المكارم. لم أسمع حديثه بالضبط، فقد كان همسًا رقيقًا، بينما كنت منهمكًا في ترتيب المرضى للدخول على الدكتور. ووجدتني أصيح بحدة:

- يا أبا المكارم... يا أبا المكارم...

فالتفت إليّ متذمرًا من صياحي، فتوجهت نحوه بخطوة سريعة وهتفت بغضب:

- ألم أطلب منك إحضار الميكروكروم؟

كنت أكذب، فأنا لم أطلب منه شيئًا، لذا تجنبت النظر إليه حتى لا يلحظ ارتباكي، وتوقعت أن يحتج على صياحي، لكنه قال مستنكرًا بهدوء:

- متى طلبت ذلك، فأنا لم أسمعك!

فانتهزت الفرصة ووبخته بشدة لأهينه أمام ڤيرجينيا، مستغلًّا صلاحياتي بوصفي المسؤول عن العيادة وموظفيها وكل ما بها أيضًا.

* * *

يصل الدكتور وليام إلى العيادة في الثامنة صباحًا يوميًّا، لا يتأخر ثانية واحدة عن موعده، فهي لا تبعد عن داره سوى خطوات قليلة، ويغادرها في الواحدة ظهرًا، ثم يعود مرة أخرى في الرابعة عصرًا ويبقى حتى الثامنة مساءً، لكنه قد يتأخر ليلًا إذا زاد عدد المرضى عن المعتاد،أو استدعت بعض الحالات الحرجة ذلك. ولكن عندما أخبرتني أم خديجة العاملة التي تتولى تنظيف العيادة أن الدكتور يطلبني في غرفته، لاحظت فور دخولي تقطيبة غير عادية تسطو على جبينه. رأيته يكتب شيئًا ما في دفتره، ثم وضع الريشة وأمرني بهدوء:

- لا تستخدم صلاحياتك في إيذاء أحد.

فارتبكت، وقبل أن أستفسر، قام من مقعده ووقف قبالتي ورفع سبابته محذرًا:

- لم أمنحك السلطة لتبطش بالعاملين هنا وتوبخهم دون وجه حق.

ثم عاد إلى مقعده وقال:

- لقد عاملتك بالحسنى يا بدر الدين منذ ضممتك إلى فريق العمل بعيادتي، ورغم أنك تركت الجامعة ولم تكمل دراسة الطب في لندن إلا أنني تغاضيت عن ذلك، وحاولت مساعدتك قدر استطاعتي...

فغضضت بصري خجلًا للحظة، ثم استجمعت قوتي وقلت محاولًا الدفاع عن نفسي:

- ولكن يا ...

فقاطعني بنبرة حاسمة أنهت اللقاء:

- لا تفرح بتكدير الآخرين والتقليل من شأنهم، لأنها فرحة مشبوهة سترتد إلى

صدرك غمًّا وحزنًا يومًا ما.

* * *

الكلب أبوالمكارم هو من شكاني إليه. آه... يجب أن يرحل من هنا اليوم قبل الغد إن أمكن، ولكن كيف؟ إنه هناك بجوار ڤيرجينيا... يتلقى منها مبادئ التمريض والاهتمام اللطيف والبسمة الجميلة، فماذا يعطيها هذا النحيف؟ إنه مثل خيط لا شكل له لو اختبأ وراء عود من القصب ما رآه أحد. هكذا النساء دومًا،مغارة لا نعرف ما بداخلها. تضحك معي أمس، وتهجرني اليوم. تفرح للقائي ساعة، وتعبس في وجهي ساعات. تقبل عليّ حينًا بوجه مشرق، وتنفر مني أحيانًا بعد أن تشيّعني بنظرات قاسية.

فور أن غادرت العيادة الليلة، التقيت شيخ الحارة حسنين شيحة مصادفة، وهو بصحبة جندي أرناؤوطي، فصافحني بحرارة ودعاني لتناول البوظة معهما في خمارة المعلم مكاوي الشال بالدرب الأصفر، فشكرته، فسألني باهتمام وهو يضبط طربوشه العثمانلي فوق رأسه:

- هل البوظة مضرة للصحة يا دكتور بدر الدين؟

فترددت للحظات، وأنا أرنو إلى بنيانه العريض الذي لا يكاد يستقر داخل جلبابه، ثم أجبته:

- لا أظن، لكني لا أفضلها.

فغمغم شاكرًا وقال بصوته الخشن، بعد أن أطلق ضحكة سمجة:

- الله يفتح عليك يا دكتور. المهم نضبط دماغنا.

وافترقنا.وقلت لنفسي (بوظة... متى نتخلص من هذه الخمائر والعجائن المقززة؟). وتذكرت الطعم اللذيذ للويسكي المعتق في بارات لندن وتحسرت. لم أتوجه إلى داري بالغورية كالمعتاد، فمازلت مغتاظًا ومختنقًا مما جرى في العيادة، لذا توجهت نحو دار فردوس بحارة الحمزاوي. هناك أطفئ نيران توتري في حضنها، فتسيل مياه الغيظ من مسامي وأسترد توازني النفسي؛ لأفكر بهدوء في كيفية التخلص من أبي المكارم الكلب هذا!.

في الجو برودة معهودة في هذا الوقت من ديسمبر، وقد أغلقت الدكاكين مبكرًا، باستثناء مقهى المعلم إلياس الدمشقي الذي يقع مقابل وكالة الغوري. هذا

المعلم النشيط الذي جاءنا من دمشق قبل خمسة أعوام كما يقولون لا يتوقف لحظة عن العمل؛ لذا استطاع أن يجذب الزبائن من المقاهي الأخرى بكلامه الجميل ونظافة مقهاه، والمشروبات الشامية اللذيذة التي لا نعرفها نحن المصريين. ورغم بدانته نسبيًّا إلا أنه كتلة من النشاط لا تهدأ أبدًا، ويبدو أن بشرته الوردية وشاربه الكث المبروم وطربوشه الأحمر القاني وثيابه المهندمة دفع الناس إلى ارتياد مقهاه بمحبة. عند مروري بجواره صاح هاتفًا:

- أهلًا دكتور بدر الدين... تفضل، عندي لك خيرات الشام... مريمية وأزهار البابونَج تدفئ القلوب في هذا البرد العجيب.

اعتادت أذني هذا اللقب (دكتور) وتطرب له كثيرًا، رغم أنني لم أتمكن من مواصلة الدراسة في لندن، وعدت إلى مصر بعد سنة واحدة وبضعة شهور دون الحصول على الشهادة. ومع ذلك أنزعج جدًّا إذا تجاوز أحد وحرمني منه بقصد أو من دون قصد، وإن رأيته أقل مني شأنًا نهرته في الحال وذكرته بفخر بأن اسمي (الدكتور بدر الدين).

تأملت سريعًا الملامح المميزة للمعلم إلياس الدمشقي وصافحته بمودة وشكرته معتذرًا عن عدم الجلوس، زاعمًا وقد كذبت عليه، بأنني في طريقي للكشف على مريض مُسن بالنحاسين! ومضيت نحو دار فردوس بهمة أكبر، بينما شبح أبي المكارم يعكر مزاجي بشدة!

* * *

علیوة أبوزهرة

إنه متربص دومًا. نظراته مريبة. يظهر لي المودة ويخفي تحت جلده خنجرًا. يظن أنني أجهل مكائده وخطورته، وهذا من غروره وغبائه. أجل... غبي؛ إذ لم يكمل دراسة الطب وعاد فاشلًا ناقمًا كما عرفت من ڤيرجينيا. ولكن ما الذي جعل الدكتور وليام يستعين به ويضعه مسؤولًا عن العيادة؟ وبدلًا من أن يتباهى بأن أباه السيد أباظة من أعيان الشرقية، فلم لا يعود إليها ويستمتع بأموال أبيه؟ ولعل كلام الخادمة أم خديجة صحيح، إذ قالت لي سرًّا: (إنه أخفى عن والده فشله، لذا يخشى العودة إليه).

- يا أبا المكارم... ساعدني في التغيير على هذا الجرح.

أفقت من شرودي على صوت ڤيرجينيا، وهي تمسك ذراع طفلة يطل الخوف من عينيها، بينما بدر الدين يجلس خلف طاولة الإدارة وهو يختلس نظراته العدائية نحونا.برقة شديدة وحنو بالغ هدّأت ڤيرجينيا من روع الصغيرة، وساعدتها أمها بالكلام الطيب والتشجيع المتواصل. وبدقة متناهية وبرفق نبيل أزالت الممرضة الإنجليزية الرباط القديم من فوق الساعد الأيمن المصاب للطفلة، ووضعت مادة مطهرة فوق الجرح الذي التأم بشكل لا بأس به، ثم أعادت ربط الجرح برباط طبي جديد. وطوال عملها لم تتوقف ڤيرجينيا عن تدليل الطفلة وتطييب خاطرها بلهجة مصرية متكسرة، لكنها لطيفة جدًّا. ويبدو أن الطفلة أعجبتها هذه اللهجة فظلت ترمقها بعينين مندهشتين سعيدتين.وبعد أن أنهت مهمتها بنجاح ودون أن تتذمر الطفلة أو تذرف دمعة واحدة، انهالت دعوات الأم على ڤيرجينيا راجية لها الصحة والعافية والفوز بزوج طيب، ثم توجهت نحو المتربص ونفحته الأجرة المطلوبة.

ولما لاحت مني نظرة خاطفة إلى بدر الدين، كان ما يزال جالسًا في مكانه يختلس نظراته العدائية تباعًا نحونا.

* * *

- تعال... تعال يا أبا المكارم... تعال بسرعة؟

صاحت بسيمة وهي تسحبني من يدي فور دخولي الدار، بينما مدام مرجريت تطلق ضحكاتها الرقيقة معاتبة:

- انتظري قليلًا يا بنيتي... حتى يسترد أنفاسه.

كأنها لم تسمع، وواصلت هتافها بلهفة وسرعة حتى انهمرت الحروف من فمها دفقةً واحدة، فأضاعت خصوصية كل منها:

- تعال... ستسمع عزفي على البيانو... الجزء الأول من أوبرا زواج فيجارو لموتسارت.

عليّ أن أعترف أن ثمة شيئًا لذيذًا في بسيمة... شيئًا جذابًا مبهرًا... ربما براءتها... نظراتها... عيناها الواسعتان السوداوان... شقاوتها... شعرها الناعم الفاحم... عشقها للحياة والموسيقى... ولكن ما معنى أوبرا؟ ومَنْ موتسارت هذا؟ وشعرت بالخجل لجهلي، ومضيت معها نحو غرفة البيانو تتبعنا صاحبة الدار بوجه مشرق وضّاء.

كانت هذه هي المرة الثانية التي أدخل فيها غرفة الأنغام، كما يسميها الدكتور وليام رغم مرور أكثر من شهر على إقامتي هنا. المرة الأولى عندما قادني الدكتور ليطلعني على غرف الطابق الأرضي، واكتفى بأن قال وهو يشير إلى الطابق العلوي إنه مخصص لغرف النوم ولم نصعد. آنذاك مكث الرجل في غرفة الأنغام دقيقتين، تأمل العود المعلق على الجدار، وابتسم وقال ضاحكًا (طبعًا تعرف هذه الآلة)، ثم استدار نحو البيانو ومرّ سريعًا برفق بسبابته على أصابعه البيض والسود، فانطلق صوت موسيقي أبهرني لم أسمع مثله من قبل. من المؤكد أنه لاحظ اندهاشي، فطوقني بيمناه كأني طفل صغير، فالدكتور وليام فارع الطول حقًّا، وقال: (هذا بيانو... آلة موسيقية اخترعناها في أوروبا قبل قرون، ربما يأتي وقت يتعرف فيها أهل مصر على عبقرية هذه الآلة ويتقنون العزف عليها فيفرحون وينتشون).

وقبل أسبوع، وأنا ممدد في غرفتي ليلًا أتلو ما تيسر من آي الذكر الحكيم، سمعت أنغامًا تصدر من الغرفة إياها، لكنها لم تستمر غير وقت قليل، واليوم تفاجئني بسيمة بأنها قادرة على استخراج الموسيقى من هذه الآلة الجهنمية.

جلست الفتاة الشقية على المقعد الصغير أمام البيانو، بينما اتخذت موقعي على الكنبة خلفها، ووقفت سيدة الدار بجوارها متكئة بذراعها على هيكل البيانو بعيدًا عن الأصابع، وهي تصوب بصرها نحو فتاتها بتركيز شديد. رنوت إلى فستان بسيمة الأزرق الأنيق ذي الورود الحمر الصغيرة، وقلت لنفسي ما أوسع المسافة بينها وبين بنات قريتنا بنها، فبسيمة تعيش هنا في عز ورفاهية، لا شقاء في الحقل تحت الشمس الحارقة، ولا عذاب يومي إلى النهر لملء الجرار والقدور، ولا تنظيف للدواب وقذاراتها.. إنها تحيا في نعيم ترعاها سيدة إنجليزية، وتعطف عليها وتعلمها ما لم تكن تعلم.

فجأة... حركت بسيمة أصابع يديها فوق البيانو برشاقة مبهرة جدًّا، بينما يتثنى قوامها البض الجميل معبرًا عن شيء ما، فانبعثت الأنغام العجيبة في أرجاء الغرفة. لمحت بطرفي عيني سيدة الدار وشلال الإعجاب يتدفق من عينيها. استمر العزف ثلاث دقائق تقريبًا، لم أشعر خلالها بأي شيء، وتمنيت أن ينتهي هذا الصخب الذي يعلو ويهبط سريعًا، لكن ما إن توقفت الفتاة عن العزف حتى انطلق التصفيق القوي من مدام مرجريت وهي تصيح بالإنجليزية: (أووه... very good... ڤيري جود بسيمة)، فارتبكت وصنعت صنيعها على الفور، ولما استدارت الصبية وهبت واقفة تسألني بفرح:

- ما رأيك يا أبا المكارم؟

لم أعرف بم أجيب، لكن الحيلة أسعفتني، فقلت لها سريعًا:

- جميل جدًّا يا بسيمة... بارك الله فيك.

فقفزت في مكانها مهللة، فطار شعرها وتبعثر، وهي تصيح بسعادة بالغة، واضعة راحتيها فوق كتفيّ:

- you thank يا أبا المكارم... شكرًا جزيلًا... ثانك يو... ثانك يو... شكرًا جزيلًا.

فأخذتني رجفة ووددت لو ضممتها إلى صدري بقوة في تلك اللحظة.

* * *

رأيت بسيمة بفستانها الأصفر تفترش البساط الأخضر الممتد إلى ما لانهاية أمام بوابة قصر الوالي ببنها. تداعب حمامة بنية وتهش فراشة برتقالية. يتراقص الهواء حولها، فتتطاير خصلات شعرها لتزداد فتنة وجمالًا. تعجلتني وأنا أقطف لها التوت من الشجرة المقابلة. اقتربت منها ووضعت التوت في حجرها، فراحت تأكل منه بتلذذ وهي تضحك. وكلما أكلت ثمرة نبت لها جناح، فصارت مثل حورية من الجنة. فجأة نهضت وطارت لتستقر أعلى شجرة الكافور القريبة. ارتجف فؤادي خوفًا. لكنها ابتسمت لي ثم انسابت فوق الأغصان وتدلت من فنن إلى فنن. وقبل أن تلمس قدماها الأرض هرعت نحوها. لمستها فاستعرت حواسي... دنوت أكثر... قبلت فستانها... راحتيها... خديها... شفتيها... ضممتها بقوة... شربتها... أكلتها... فانفجر البركان الجسدي المكتوم، واستيقظت مذهولًا مسرورًا غارقًا في عرقي ومياهي.

* * *

دبت حركة طارئة في دار الدكتور وليام أيقظتني من النوم. تساءلت متعجبًا ماذا يحدث؟ ألم يقرر الدكتور أمس أن اليوم إجازة والعيادة مغلقة؟ أزحت الغطاء بتكاسل، فالنوم لذيذ والدفء ألذ. فتحت باب غرفتي قليلًا لأستكشف الأمر. شاهدت الخدم يروحون ويجيئون، ينقلون الأرائك والكنب والوسائد. والجواري ينظفن قاعة الاستقبال والقناديل والنوافذ والسجاجيد، والعبيد يعلقون الزينات ويملأون الجرار. وروائح الطعام الشهي بدأت تفوح من المطبخ فتثير لعابي، ومدام مرجريت تشرف بهمة وحزم على الجميع.. للحظة قررت سؤال أحدهم عما يجري، لكني تراجعت.

وعندما عدت من الحمام لمحت الدكتور وليام من ظهره يمسك صحيفة التايمز ويتوجه نحو غرفة الأنغام، وتذكرت ما شرحه لي قبل أسبوع عن أن (فكرة إصدار الصحيفة) أحد أهم إنجازات البشرية لأنها تحوي يوميًّا أخبار الكبار والصغار... الحكام والمحكومين، الأثرياء والفقراء... المخترعين والمكتشفين... الصراعات والمعاهدات، ولأنها أيضًا تنشر قبسات من التاريخ القريب والبعيد والأدب الجميل والقصص المؤثرة، لكنه أضاف بأسى: (ولكن للأسف الوالي عباس يكره الصحف ويخاصم التقدم).

وها هو الدكتور يمارس طقوسه اليومية في مطالعة صحيفة التايمز، وابتسم خاطري وأنا أتذكر انكباب ڤيرجينيا على مطالعة قصص الغرام التي تنشرها هذه الصحيفة من حين لآخر، حيث دأبت على القول: (إن القصص أكبر مصنع لتحليل دوافع النفس البشرية وفهم تصرفاتها وتناقضاتها، وأن الحكايات التي تنشرها التايمز مُسلّية جدًّا لأنها مثيرة وجميلة وعجيبة).

وجاءني فجأة استدعاء من صاحب الدار، وتوجهت نحو غرفة الأنغام، فاستقبلني بمودة، وهو يشير لأجلس بجواره على الكنبة:

- الليلة.. سنحتفل بالكريسماس.

فلم أفهم وتساءلت باستغراب:

- ماذا؟

فابتسم الدكتور وليام، فشعّ من عينيه الخضراوين بريق جميل كعادته كلما أشرق وجهه ببسمة. ومضى يشرح لي ماذا يعني الاحتفال بالكريسماس، وكيف أن الأوروبيين حريصون على الاحتفال بميلاد السيد المسيح كل عام،

وأنهم في هذا اليوم يتناولون اللحوم واللبن والبيض، بعد انقطاع لأيامٍ طويلة من الصيام بناءً على تعاليم الرب، وأن غالبية المسيحيين في مصر ينتمون إلى المذهب الأرثوذكسي، بعكس أوروبا التي تعتقد في المذهب الكاثوليكي، ثم تحول بعضهم إلى المذهب البروتستانتي بعد ظهور مصلح اجتماعي ديني اسمه مارتن لوثر، كما أشار إلى أن ثمة اختلافات بسيطة بين المذهبين لا يلحظها غير المسيحيين، فقلت مستفهمًا:

- ولكنك تأكل اللحم ولا تمتثل إلى تعاليم الصيام، ومطبخك العامر تفوح منه روائح الشواء باستمرار.

فضحك بصوت عال، وقال:

- يا عليوة... الذين ينفذون أوامر الرب ويصومون عن تناول اللحم هم المؤمنون بالمسيح ومعجزته، أما أنا فلست من هؤلاء!

فارتبكت، وتأجج فضولي، وسألته بقلق:

- كيف لا تؤمن بالسيد المسيح؟ ألست من أتباع الديانة المسيحية؟

فابتسم وقال:

- نعم، وفقًا للأوراق الرسمية فأنا مسيحيّ، لكن وفقًا لقناعاتي الفكرية، فأنا مازلت أبحث عن شاطئ أمان يستريح إليه ويستقر عنده عقلي المشاغب.

فاستعر فضولي أكثر وسألته راجيًا:

- لم أفهم ماذا تقصد يا دكتور بالضبط، هل ممكن أن تشرح لي أكثر؟

فاعتدل في جلسته وقال بنبرة هادئة، رغم أن كلامه يزلزل الجبال:

- باختصار... أنا أرفض أن أعيش عالة على آراء الذين سبقونا، كما أنفر من الاسترخاء على وسادة الكسل العقلي؛ لذا أشك في كل ما ورثناه من عقائد وأفكار عن آبائنا وأجدادنا. أشك في وجود إله خالق للكون، أشك في أنه تجسّد في صورة المسيح قبل 1853 عامًا. أشك في أنه اختص هذه المنطقة من العالم الفسيح باهتمامه المتزايد ليرسل فيها أنبياءه. وأتساءل كثيرًا لماذا أخفى الله نفسه عن بني البشر؟ لماذا لم يظهر بوضوح لكل الناس ولكل الأجيال وعبر كل الأزمنة، حتى لا يشكك في وجوده أحد؟

فرمقته مذهولًا مشتت الذهن لا أستطيع الكلام، وتمتمت في سريرتي: (أستغفر الله العليّ العظيم).

فواصل حديثه الغريب قائلًا:

- ومع ذلك تنتابني يا عليوة لحظات تأمل حرجة أشعر فيها أن هذا الكون لم يخلق عبثًا، وأن ثمة ربًّا رحيمًا أوجده من العدم، وأن هذا الرب يقف بجواري في الملمات... ألم أقل لك أنا رجل مشاغب أحمل عقلي بين يديّ، ومازلت أبحث له عن شاطئ أمان؟

فأنصتُّ إليه بتركيز شديد، واستجمعت شتات عقلي وسألته بعد لحظات من الصمت:

- وكيف تستقيم الحياة في غيطان الشك التي تعتصر عقلك يا دكتور؟ الإيمان بستان العقل المتعب وواحة الروح المجهد.

فوقف، فوقفت معه تأدبًا،والتفت قبالتي بطوله الفارع المهيب وأراح كفه اليمنى على كتفي الأيسر وقال:

- أنا مؤمن إيمانًا مطلقًا بالإنسان.. أي إنسان. هنا في مصر أو أوروبا أو الهند أو أمريكا. مؤمن بحقه المشروع في حياة لائقة كريمة. بقدرته المهولة على مواجهة الصعاب. بمهاراته اللامحدودة في التفكير وفي الاختراع والابتكار والتطور. وأنت خير دليل، ولولا إيماني بالإنسان ما وقفت بجوارك وساعدتك على الهرب من قصر الوالي. أنا أؤمن بالواقع، لا بالغيب يا عليوة. والإنسان أمامي يتجلى في الواقع، أما الغيب، فأمره متروك للحدس والحس والاحتياج النفسي. ليت هناك من يترجم إلى اللغة العربية كتب الفلاسفة الكبار أمثال چان چاك روسو وديڤيد هيوم وكانط كي تطلع عليها، وأعدك بأنني سأشرح لك محتوياتها المدهشة بإيجاز كلما توافر لي الوقت.

ما هذا الجنون الذي أسمعه؟ وقبل أن أطرح سؤالي التالي، سمعنا طرقًا عنيفًا متوترًا على الباب! وللمرة الأولى أرى الدكتور وليام مضطربًا!

* * *

الدكتور وليام براون

فجأة انزرع أمامي... أدهم بك بشاربه المبروم ووجهه الأحمر المكتنز باللحم وكرشه الضخم وبرفقته ثلاثة من الحراس الأرناؤوط. قال الرجل بصوت حاد بعد التحيات الرسمية:

- دكتور وليام... جناب مولانا المعظم الوالي عباس سيمنحك شرف زيارته لك الآن؛ ليهنئك بعيدكم وبصحبته القنصل تشارلز مري.. لقد وصل موكبه إلى بولاق قبل قليل، فأرجو الاستعداد سريعًا لاستقبال فخامته!

وللمرة الأولى يعتريني كل هذا الاضطراب، وقلت لنفسي حسنًا فعلت حين أمرت عليوة بالاختباء فورًا داخل غرفته، عندما اشتد الطرق على باب الدار. وبسرعة طلبت مرجريت من الخدم إعادة ترتيب الصالةوغرفة الاستقبال وفرش السجاد وتزيين الفازات بزهور جديدة، بينما دعوت أدهم بك إلى الجلوس لحظات في غرفة الأنغام، أما الحراس فأمرهم بالتوجه نحو جامع الأزهر لترقب وصول موكب الوالي وإبلاغه فورًا.

ثم انتقلنا إلى قاعة الاستقبال وجيء بالشاي والكعك، وقدمته له مرجريت بأدبها المعهود فأكل الرجل بنهم شديد، وقد لمحت بسيمة قادمة من الطابق العلوي متوجهة نحو غرفة الأنغام دون الالتفات إلى الزائر ذي الشارب المبروم، وسرعان ما انطلقت الموسيقى، فانتبه أدهم بك، وهو يمسح آثار الطعام حول فمه بمنديل لونه أحمر قان وسألني باندهاش:

- من الذي يلعب على البيانو إذا كانت السيدة حرمكم تجلس معنا؟

فأجابت مرجريت بفخر:

- بسيمة ابنتنا.

واستأذنت بحجة الذهاب إلى الحمام، وذهبت نحو غرفة عليوة في آخر الممر، ولما فتح لي الباب، أمرته بمغادرة الدار على الفور والاختباء في جامع الأقمر أو جامع الحاكم بأمر الله بعيدًا عن الأزهر، ولا يعود إلا بعد المغرب. وهمست في أذنه أن يهرب من الباب الخلفي للدار ويتجه نحو صحراء الدراسة، لينعطف من عند الجمالية حتى يصل إلى مبتغاه، ويبدو أنني كنت مرتبكًا جدًّا؛ لأن عليوة سألني بقلق بالغ:

- هل سيقوم أدهم بك بتفتيش الدار؟

فحاولت طمأنته، وقلت:

- لا.. طبعًا، ولكن من باب الاحتياط.

فتكدس الهلع في عينيه وقال بصوت لا يكاد يسمع:

- لقد كدت أبول على نفسي عندما سمعت صوت هذا البغل الأرناؤوطي!

- عيب يا أبا المكارم... عيب!

فغض بصره خجلًا، ودس قدميه في نعليه ومضى على أطراف أصابعه نحو الباب الخلفي، ولما عدت إلى قاعة الاستقبال، وجدت بسيمة تجلس بجوار مرجريت، بينما أدهم بك يلتهمها بعينيه!

* * *

لم يمكث الوالي عباس في داري سوى ربع الساعة.لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها، فقد تفحصت جسده غير مرة عندما اعترته الحمى قبل شهور، لكنها المرة الأولى التي أراه فيها بكامل هيلمانه وخارج قصره الغريب ببنها. بدا لي رجلًا في الأربعين معتدل القوام ذا وجه مستدير نسبيًّا، لكن عينيه لا تستقران على شيء. ثمة قلق كبير يتسكع في أوردته وحزن دائم يقبع في نظراته، ورغم ابتسامته الشحيحة، إلا أنه يبدو مرتابًا فيمن يتحدث معه، ومن فرط قلقه رفض أن يتناول أي شيء، ولما قدمت له مرجريت الفواكه والشاي والقهوة والكعك شكرها بأدب، وأعرض عنها جميعًا. ومع ذلك أبدى استحسانه بداري ونظافتها وجمال أثاثها، وقال للسيد تشارلز مري: (إن صديقك ليس طبيبًا فحسب، وإنما فنان أيضًا). وقد لاحظت أنه يُكن ودًّا خاصًّا لقنصلنا الهمام، وينصت إليه بتركيز إذا أبدى ملاحظة أو تعليقًا.

وفي لفتة لطيفة أهدانا الوالي جوادًا رماديًّا من سلالة الحمدانية وقال متباهيًا إنه من أعرق السلالات العربية وأكثرها جمالًا ورشاقة، وأرفقه بنيشان من الذهب معقود بسلسلة ذهبية، وقد سُجِّل عليه إهداء رقيق ممهور بختم الوالي: (إلى الدكتور وليام براون... تقديرًا لجهودك الطبية في علاج رعايانا من أهل مصر. عباس حلمي والي مصر. سنة 1853)،ثم صافحني مهنئًا بالكريسماس كما صافح مرجريت وداعب بسيمة بوقار الولاة وتمنى لنا أوقاتًا سعيدة، وهمس القنصل في أذني: (مبروك... علق النيشان في عنقك، ولا

تخلعه أبدًا فهو صمام أمان لك).وقبل أن يغادر الوالي فاجأني بسؤال، وهو يسند ذراعه اليسرى إلى باب داري:

- هل كان الولد الذي هرب...

ثم نظر إلى أدهم بك وسأله:

- ما اسمه؟

- عليوة يا وليّ النعم... عليوة.

وعاد يقول وهو يرمقني بعينين بنيتين حادتين:

- هل كان بصحة جيدة تجعله قادرًا على الفرار؟

فأجبت بسرعة مفتعلًا الاندهاش:

- ربما تحسنت صحته نسبيًّا مع تناول الدواء الذي أعطيته له.

فغمغم الوالي وهتف متوعدًا:

- مهما يكن... لن يفلت من عقابي هذا المجرم ولا من عاونه على الهرب!

فعقب تشارلز مري بحماسة:

- بكل تأكيد يا مولانا... الشرطة لديكم ستصل قريبًا إلى الاثنين... عليوة الهارب ومعاونه المجرم!

وغادر الوالي داري، تاركًا حشرة القلق الكريهة تزحف في صدري!

* * *

هل أخطأتُ بإنقاذ عليوة وتهريبه وإيوائه؟ هل تجاوزتُ حدودي؟ لقد جئتَ إلى مصر لتعالج الناس البسطاء يا وليام، لا لتدخل في مغامرات محفوفة بالخطر، فالطب لديك رسالة سامية، فكيف حولتها إلى مناكفة ومناوأة واعتراض على فرمانات صاحب السلطان؟ الطب محاولة جادة يومية لشفاء الناس في الأزقة والحارات والعطوف، لا حيل وألاعيب تدار في القصور والغرف الفخمة. ماذا جرى لك يا وليام؟ هل نسيت هدفك الرئيسي وقضيتك الإنسانية وأبحاثك الدائمة عن

أمراض الفقراء في مصر؟ ألم تخبر أستاذك في جامعة أكسفورد قبل سنوات أنك تحلم بالذهاب إلى القاهرة؛ لتعرف سر الأوبئة والأمراض المستوطنة التي تفتك بالألوف من أهلها وتعالج المرضى هناك؟

ثم كيف لم تفطن يا وليام إلى أن حكام هذا البلد لا يحتملون تمرد أحد من رعاياهم؟ هل نسيت ماذا فعل محمد علي بالمماليك وعمر مكرم وغيرهم؟ تقيم في مصر منذ عشرة أعوام، ومع ذلك لم تعرف جوهر الحاكم الشرقي بعد. إنه نصف إله... جبار... مستبد... لا يقبل الاعتراض ولا يرضى بمناقشة... يمحو من يقف في طريقه بإشارة من يده، ويزيله من الوجود بإيماءة من رأسه.. لقد مرّ على هروب عليوة أكثر من شهرين، والوالي عباس لم ينسَ، بل مازال يتوعد. ورغم أن أدهم بك قال لك إنهم جاءوا بخمسة من الفلاحين ليتولوا المهمة المشبوهة لعليوة ويتذوقوا طعام الموت قبل الوالي، إلا أن عباس الأول لم ينسَ فرار عليوة من عرينه. ثم ماذا يعني قول السيد تشارلز مري إن الشرطة ستصل قريبًا إلى الاثنين؟ هل يملك معلومات؟ هل الشرطة حصلت على أدلة وبراهين؟ هل هناك من يراقبني ويراقب عليوة؟ هل زيارة الوالي اليوم بريئة، أم لها علاقة بما توصلت إليه الشرطة؟ إنها المرة الأولى التي يزورني فيها عباس، لقد مرَّت علينا عشرة أعياد للكريسماس لم يزرني في واحد منها، فلماذا الآن؟ هل يسخر مني؟ هل يهديني نيشانًا في الصباح ويلقي القبض عليّ في المساء؟ما العمل إذًا؟ هل أخبر السيد مري بكل شيء، صحيح أنه ليس صديقًا حميمًا، لكن من المؤكد أنه سيحميني من بطش الوالي، فأنا ابن بلده ومصالح عباس معنا عديدة ومهمة وقنصلنا يعرف كيف يساومه، حتى لا ينالني منه غضب أو سوء. لكني لم أرتكب جريمة بمعنى جريمة. إن عليوة استنجد بي، وبذكائه الشديد رفض معانقة الموت، فكيف لا أذود عنه وأعاونه؟

وتلاطمت الأسئلة في عقلي فأنهكتني وكاد الصداع يشج رأسي نصفين، وحاولت تهدئة روعي بأنني إنجليزي، وأن الوالي لن يستطيع إيذاء طبيب إنجليزي مهما كانت جريمته، فحكام مصر يخشون حكام أوروبا ويخطبون ودّهم؛ لأنهم ضعفاء فرضوا أنفسهم على شعوبهم بالقوة والبطش، لا بالانتخابات والديمقراطية، والضعيف يهاب القوي ويعمل له ألف حساب. وقبل أن أنهض لأتناول دواءً يخفف آلام الرأس وهواجس الصدر، دخلت مرجريت غرفتنابهدوء، وقد ظنت أني أستمتع بقيلولتي، فلما وجدتني مازلت جالسًا على السرير بملابسي، تساءلت بقلق:

- حبيبي... ما بك؟

وكدت أبوح لها بعبارات الرعب التي تركها الوالي ومري على باب الدار قبل

المغادرة، إذ لم تشهد لحظة الوداع المخيف، فقد انصرفت عقب المصافحة وتركت لي وداع الوالي ورجاله، لكني أمسكت إشفاقًا عليها، وضممتها إلى صدري بقوة كأنما أحتمي بها وبحنانها، فقبّلتني في وجنتي وهمست:

- وليام.. كفاك كسلًا... قم بدّل ملابسك، فالمدعوون على وصول، فالساعة تقترب من السادسة!

* * *

ارتفعت الكؤوس. انسكبت الخمر في الحلوق والبطون.. انطلقت الضحكات. احتشدت الدار بالضيوف. صدحت الموسيقى. رفرفت الأنغام. انهمك الجميع في الثرثرة. عمّ الصخب.تبودلت القبلات الحارة.ومازالت مرجريت توزع الابتسامات والمجاملات بذكاء. أما برقوق فيوجّه الخدم بهمة لتقديم أفضل خدمة للموجودين، وأما بسيمة فتراقب العازف اليوناني بتركيز شديد. وأما الساعة فتجاوزت الثانية عشرة ليلًا وأما عليوة فلم يعد بعد!

واقتحمني خاطر سئ... هل أمسكوا به؟ فأفسد ذلك الخاطر مزاجي،لأنه قد يفشي سر المغامرة كلها، ويوضح لهم كيف ساعدته وآويته، ثم طافت أمنية خضراء وسط الضجيج خففت عذابي... ليته لا يعود. وليبحث عن مأوى آخر، ثم اعترتني نوبة خجل من نفسي، وقلت مؤنبًا: (أنت طبيب يا وليام... الحياة مبتغاك والموت عدوّك)، وقررت إرسال برقوق للبحث عنه في جامع الأقمر أو الحاكم بأمر الله كما طلبت منه الاختفاء في أحدهما. وبعد ساعة عاد برقوق وقد ارتسمت على وجهه آيات الخيبة، فتفاقم توتري ومضيت أحسو الويسكي بعصبية لاحظتها مرجريت، فاقتربت مني وهمست في أذني ضاحكة بدلال، أعرف مغزاه جيدًا:

- مهلًا... اعمل حسابك... بعد انصراف الضيوف... لنا سهرتنا الخاصة.

ثم أشارت إلى السيدة كاثرين بعينيها وقالت بصوت خفيض محشو بتوابل الغيظ:

- انظر... حتى في الكريسماس، لا تتوقف عن عرض بضاعتها للبيع. ألم أقل لك: إنها تاجرة مجوهرات من منازلهم، حقًّا... She is thick-skinned! إنها من أصحاب الجلد السميك!

فربت كتفها بحركة آلية، ولم أعلق، فمنحتني قبلة سريعة في شفتي لم أشعر بمذاقها وتركتني لضيوفها. ما أتعس المرء الذي لا يملك القدرة على البوح!وما أقسى الرعب من الحاكم المستبد!وانتبهت إلى أن مرجريت ترمق السيدة

كاثرين بحنق، وهي منشغلة في حوار مع زوجة القنصل، وفكرت في أن أنبهها إلى ضرورة مداراة مشاعرها، ولكني تراجعت، فاقتحام سلوكيات النساء ومحاولة تغييرها مثل اقتحام عش دبابير للإمساك بأحدها، كلاهما مؤلم ومضرّ وبلا فائدة. وحاولت الاندماج مع الضيوف، وأقبلت عليّ ڤيرجينيا متسائلة باهتمام حقيقي:

- دكتور وليام... أين أبو المكارم؟ إنه يقيم معك كما أخبرني.

الغبي، لِمَ منحها معلومة مجانية عن مكان إقامته، وهو يدرك حساسية موقفه بوصفه هاربًا من السلطات؟ وعضضت أصابع الندم، ولمت نفسي فأنا المخطئ، لأنني لم أشدد عليه ألا يعرف أحد أين يقطن؟ وقررت إذا عاد عليوة بسلام أن أطلب منه ضرورة الانتقال إلى دار أخرى، وسوف أتكفل بنفقات الإيجار. وودت لو انتهت السهرة فورًا، واختفى الضيوف وڤيرجينيا والعازف اليوناني إلى الأبد. وقلت لڤيرجنيا كاذبًا:

- لقد انتقل إلى دار أخرى بالغورية.

- أوه... لِمَ لم يقل لي هذا الشقي؟ إنه يخبرني دومًا بكل شيء.

وعادت تسألني:

- لماذا لم تدعُ بدر الدين ليسهر معنا هذه الليلة الجميلة؟ ألا يعتبر مدير عيادة حضرتك؟

فلتذهبي يا ڤيرجينيا إلى الجحيم، وتتركيني لهواجسي، وأعلنت بنبرة حاسمة تنهي المحادثة لتعي أني مللت أسئلتها السخيفة:

- هذا عيدنا نحن المسيحيين، وبدر الدين مسلم لا يعرف شيئًا عن هذه الأعياد.

ففطنت إلى حدتي، وانصرفت بأدب، ودنا مني السيد بيل تاجر الخمور وخاطبني متوددًا:

- أظنك راضيًا عن أسعار الويسكي والشمبانيا اليوم دكتور وليام.

هناك شيء مزعج في هذا الرجل، ربما فجاجته في الكلام عن المال، وربما ملامحه الحادة غير المريحة، فكما تقول مرجريت دومًا إن له عينيّ بومة. ومع ذلك فهو أفضل تاجر خمور في القاهرة، فبضاعته معتقة ولذيذة، ولا مفر من

التعامل معه، وقلت بابتسامة مقتضبة:

- شكرًا جزيلًا على هذه الالتفاتة الكريمة سيد بيل. إنه تخفيض كبير بحق.

ولما انفض الناس من حولي، صعدت إلى غرفة نومي قبل مرجريت، وألقيت بجسدي المنهك وهواجسي الكثيرة على السرير فغرقت في بحر النوم من أول لحظة، ولم أشعر بزوجتي، إلا وهي توقظني صارخة:

- وليام... استيقظ... قم... عليوة غارق في دمه!

* * *

مرجريت براون

مسكين أبو المكارم. لقد نزف كثيرًا، وجسمه النحيف لا يحتمل الأذى، ورغم أن السهرة أمس مرّت لطيفة بشكل كبير، إلا أن الصباح بدا نذير شؤم. وتكلم وليام أخيرًا، بعد أن تمكن من إيقاف النزيف:

- الجرح ليس خطيرًا، لكن النزيف المستمر أمسى الخطر الأكبر، كما أن نحافته الشديدة لا تمنحه القوة لمقاومة تبعات هذا النزيف وآثاره الجانبية.

وأضاف بألم:

- المجرم هوى على رأسه ببلطة!

وكل ما تمكن من معرفته قبل أن تسرق الغيبوبة المقيتة عقل عليوة أنه اختبأ في مقابر باب النصر منذ الظهيرة، وعندما توجّه لأداء صلاة الفجر في جامع الحاكم بأمر الله، أوقفه أحد المجرمين وحاول الاستيلاء على كيس نقوده، فقاومه عليوة بشراسة، فما كان من المعتدي إلا أن سحب بلطة من سيالة جلبابه، وفي لمح البصر عاجله بها. ولكن، بقدرة خارقة، تمكن من الوصول إلى هنا بمساعدة خبّاز التقاه على حارة قصر الشوق.

وعدت أسأله بقلق متزايد:

- هل سيعيش؟

فضمني إلى صدره وهمس:

- لا تقلقي حبيبتي مرجريت... سيعيش، لكنه في حاجة إلى الراحة التامة لمدة أسبوعين على الأقل، مع نظام غذائي صحي ومفيد مكون من الألبان واللحوم وقطع الكبد بالذات؛ ليساعده على تقوية مناعته الطبيعية وتعويض الدم المنزوف.

- إذًا، فأنت مطمئن الآن على حالته!

فابتسم وقال بصوت يشوبه حزن غامض:

- نعم... ولكن الخطر الحقيقي ليس من الجرح، وإنما من المفاجآت المنتظرة!

فرمقته بنظرة يشع منها قلق كبير وصحت:

- وليام... ما بك؟ أيه مفاجآت تقصد؟

* * *

منذ تزوجنا من عشرة أعوام، لم أر رفيق حياتي بهذه الحالة. ثمة أذى ينهش روحه، وحيرة تفتك بأعصابه، لدرجة أن الدار امتلأت برائحة سخط مكتوم. وللمرة الأولى تعامل مع قلق بسيمة على عليوة بغير اكتراث، وقال لها: (غدًا سيفيق من غيبوبته)، وقد وضح لي أن الصبية مغرمة بالمريض الغائب عن الوعي، وقررت أن أتحدث معها في هذا الشأن، لكن صمت وليام يزلزلني، واعتكافه في غرفة الأنغام يثير أعصابي. ولما حاولت بسيمة العزف على البيانو أمرها بالتوقف بحدة. وقلت لنفسي فلأعد له وجبة الحمام المصري المحشو بالفريك الذي يحبه، وقد علمتني خادمتي المصرية الطيبة أم السعد طريقة تجهيزه قبل سنوات، ثم نأخذ قيلولتنا معًا بعد أن نمارس الحب، فقد مرت ليلة الكريسماس أمس دون حتى قبلة تبل الريق.

توجهت نحو المطبخ بنشاط، وكلي يقين أن خطتي في إزالة توتر وليام ودفعه إلى البوح ستحظى بالنجاح.فالرجل إذا تلقى الرعاية اللائقة والاهتمام المأمول من زوجته وأعقبهما التلاحم الجميل والاندماج اللذيذ رقت مشاعره وباح بما يخفيه في صدره. وأنا أعرف زوجي جيدًا... الطعام الطيب يرضيه واللقاء الحميم يسعده. ثم ابتسم خاطري وأنا أتذكر قول أم السعد: (الرجال كلهم هكذا... املأي معدته على المائدة، واطفئي توتره في السرير يصبح خاتمًا في أصبعك).

وبعد وقت قليل فاحت الروائح الشهية فانتقلت من المطبخ إلى الغرف المجاورة فأثارت لعاب بسيمة، إذ أقبلت نحوي لتسألني بحياء:

-أمي... متى سينتهي تجهيز الطعام؟

ثم بهمس شديد:

- هل هناك مشكلة، أشعر أن أبي حزين؟

وطمأنتها بعبارات عامة تقال عادة في مثل هذه الأمور، وتوجهت نحو وليام في غرفة الأنغام، وسألته بمودة وابتسامة كبيرة على وجهي:

- حبيبي.. هل يستطيع عليوة تناول الحمام اليوم؟

فرمقني بنظرة حادة وصاح بغضب:

- اسمه أبوالمكارم!

ففوجئت وارتبكت وتألمت، ومع ذلك كظمت حزني، وحافظت على ابتسامتي وعدت لأشرف على إعداد المائدة، وزيّنتها بزجاجة نبيذ مع الكأسين النادرتين اللتين اقتنيتهما من مزاد في باريس قبل ثلاثة أعوام، وهما من الكؤوس الخاصة بالملك لويس السادس عشر.. لا نستعملهما إلا في غرفتنا قبل أن نسبح في نهر الحب.

لم يأكل سوى قطعة واحدة من الحمام وبصعوبة ومن باب مجاملتي وتحت إلحاحي وتدليلي. أعرف جيدًا أن الهموم تفسد الشهية وتدمرها. ووليام مهموم بشكل لم يحدث من قبل، ولكن لِمَ؟ولماذا رفض أن يفصح عما يمور في صدره وعقله ووجدانه؟ ولما ألححت عليه في ضرورة إكمال غدائه، صاح في وجهي غاضبًا مرة أخرى، فارتعبت بسيمة، وتركت المائدة وصعدت إلى غرفتها!

* * *

غادر الدار مكفهرًا.

أطل على عليوة في غرفته لحظات، ثم غادر الدار مكفهرًا دون أن يفتح فمه. تركني فريسة لهواجس سوداء. ماذا دهاك يا وليام؟ هل ثمة امرأة أخرى؟ ومن هي؟ ومنذ متى؟ وأين التقاها؟ لقد أفرط وليام في الشراب أمس حتى يتهرب من نداء السرير، واليوم لا يطيق لي كلمة. أجل... أجل... هناك امرأة. وتذكرت حكمة أم السعد: (الرجل لا ينفر من زوجته إلا إذا احتلت عقله امرأة أخرى).

واختل توازني النفسي دون أن أغادر مكاني وتأملت بقلب موجوع الطعام في الصحون والصواني كما هو والنبيذ أيضًا، فأمرت برفع المائدة. وتذكرت رعب بسيمة فتحاملت على أعصابي المتوترة وصعدت إلى غرفتها لأطمئن عليها. وجدتها منكمشة في سريرها ومن عينيها ينبعث بريق حزين وحائر. ما أجمل عينيك المصريتين يا حبيبتي. جلست بجوارها وضممتها إلى صدري برفق، وقلت لها بعقل مشوش: (لا تحزني ولا تغضبي من والدك... فمشكلات طارئة تحاصره منذ يومين).

لا مشكلات ولا غيرها. كنت أكذب. إنها امرأة لا ريب. وتركتها بعد أن نصحتها باستكمال غدائها، رغم أنني أدري أنها لن تنفذ النصيحة، وذهبت إلى غرفة نومنا. ودفعني الشك القاتل إلى البحث في ملابسه وأشيائه عن دليل. رائحة أنثى... شعرة امرأة... هدية موحية... رسالة غرام. وخجلت من نفسي وأنا أفتش جيوب القمصان والبدل، وصحت بصوت عال: (ما أقبح الغيرة العمياء، وما أتعس

الشك المدمّر). وبينما أواصل مهمتي المشبوهة، فتح وليام الباب فجأة. وقف مذهولًا للحظات موزعًا نظراته بيني وبين ثيابه الملقاة بفوضى على السرير. غضضت بصري خجلًا وتشابكت راحتيّ لأسفل في وضع العاجز قليل الحيلة. ابتسم... دنا مني... سألني بنبرة مسالمة:

- ما بك؟ هل تبحثين عن شيء؟ هل تشكين في إخلاصي؟

ثم طوقني بذراعه وقادني برفق شديد نحو السرير، وأجلسني بهدوء وقال بنبرة حزينة جدًّا:

- صدق حدسي، وكما توقعت، فقد شككتِ في إخلاصي وظننتِ أن ثمة امرأة اقتحمت حياتي وأفسدت غرامنا.

ثم بصوت يفوح منه حزن العالم كله:

- لا يا زوجتي الحبيبة... لا امرأة ولا شيء... إليك الكارثة يا مرجريت... تلقيت تهديدًا من أكبر رأس في هذا البلد... من الوالي عباس شخصيًّا!

* * *

لم أكن أتخيل أن مساعدة شاب على النجاة بحياته ستعرضنا لكل هذا الخطر، وربما تجبرنا على مغادرة مصر التي نعشقها منذ اخترناها وطنًا ثانيًا، قبل أكثر من عقد من الزمان. باح وليام بكل شيء... نبرات الوالي المريبة... تهديداته... تلميحات القنصل المخيفة، ثم اعتذر عن صياحه بغضب في وجهي ولثم راحتيّ بمودة. قبلت اعتذاره فورًا فأنا أحبه بجنون. والحب يروي داخلنا بستان التسامح، والغرام نور يمحو ظلمة الغضب الطارئة. وعلى الفور رجوته أن نذهب للتنزه على النيل، فنحن نشترك في محبة هذا النهر الجميل. كنت أريد أن أستوعب القصة كلها باحتمالاتها المرعبة. أستوعبها في الهواء الطلق، لا في غرفة مغلقة.

وافق وليام على اقتراحي، فأمر برقوق بـتجهيز الفرسين وإعداد العربة سريعًا وتوجهنا بها عبر الأزهر فالأزبكية حتى بولاق. لم نتحدث طوال الطريق، واكتفينا بتأمل الباعة والدكاكين والسابلة وأنا أسند رأسي على كتفه، بينما راحتي اليمنى تنام في حنان راحته اليسرى. وردد وجداني ما أجمل المصريين في انكبابهم على العمل واقتناص الرزق الحلال رغم أنه شحيح دومًا. تلقينا نسمات باردة طوال الطريق، فانتعشت صدورنا جميعًا هو وأنا وبرقوق والفرسين، ورغم أن الشمس مازالت تبعث لنا ببعض الدفء، إلا أن النهر الذي وصلنا إلى مشارفه مازال يهدينا البرد الرحيم. ترجلنا عند ميناء بولاق ووقفنا لحظات نتأمل المراكب

الراسية بأشرعتها البيضاء، وقلت لنفسي سأطلب من أحد الرسامين الأوروبيين الذين يمرون على عيادة وليام أن يرسم لي هذا المشهد الفاتن. وبعد لحظات من التأمل الصامت، اقترحت عليه أن يحكي للقنصل كل شيء، فرفض بحسم:

- سأفقد ثقته بي إلى الأبد.

- والعمل؟

تفكر مليًّا وقال ونحن نسير بمحاذاة النيل متشابكي الأيدي:

- سأخفي أبا المكارم في مكان آخر لفترة حتى تتبين الصورة، ثم أعيده إلى قريته ببنها في الوقت المناسب.

- أين ستخفيه؟

- في اللوكاندة بدرب قرمز.

فتعجبت، وتساءلت:

- لكنك دفعت في شرائها أموالًا كثيرة وتنوي أن تفتتحها قريبًا عندما تنتهي التشطيبات واللمسات الأخيرة في إعدادها لاستقبال الزبائن.

- سنؤجل الافتتاح إلى حين تنجلي الأمور.

مفاجآتك لا تنتهي يا حبيبي، وهذا أجمل مافيك، وعدت أسأله:

- حسنًا... وعمل أبي المكارم في العيادة؟

تروى قليلًا ثم صمت برهة كأنه يتلقى الإجابة من الروح القدس، ثم تنهد قائلًا:

- لن يعود إليها أبدًا.

فارتجفت وقلت بقلق:

- ولكن بسيمة مشغولة به وقلبها يخفق حبًّا لرؤيته!

فغض بصره وهمس بأسف:

- خطأ قاتل لم نعمل حسابه... الحب مهما بلغ سموه ورقيه لا يحمي من بطش الحكام. فلتتألم قليلًا أفضل من أن نتعرض جميعًا للأذى.

ثم بنبرة خافتة:

- الحاكم الشرقي لا يولي مشاعر الحب أي اهتمام،ولا تعرف الرحمة طريقًا إلى قلبه... إنه لا يعرف أباه، إذا تعلق الأمر بمعارضته او انتقاده أوظهور أدنى بادرة خلاف معه.

فجفلت، وقد شعر بذلك، فمضى يقول ليبث الأمان إلى روحي المتوتر، وهو يضم راحتي اليمنى فيكوّمها في يده:

- حبيبتي لا تقلقي أبدًا. لن يجرؤ عباس ولا ألف عباس أن يؤذينا، فنحن إنجليز أبناء الإمبراطورية العظمى، والجميع يهاب بطشنا، وما عباس سوى حاكم تعيس لولاية تابعة للدولة العثمانية. وأقصى ما يستطيع فعله أن يطردنا من مصر، ولكني أخشى على عليوة كثيرًا، لأن الوالي لن يرأف به إذا تمكن من عنقه.

وتذكرت ما قرأته في كتاب (وصف مصر) الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية عن الطبيعة الخيّرة المسالمة لأهل البلد، وعن الجبروت الدائم للحكام الأتراك والمماليك، وفي طريق العودة زادت نغمة الهواء البارد ارتفاعًا، فاشترينا ذرة مشوية من بائع يقف أمام جامع السلطان "أبوالعلا"ببولاق والتهمناها بتلذذ. وما إن دلفت العربة من خلف جامع الأزهر واقتربنا نحو دارنا، حتى فوجئنا بأدهم بك بملابسه الرسمية المزركشة يقف وسط حراسه أمام الباب، فدبّ التوتر في عروقي، وهمست لوليام بهلع، وأنا أقبض على كفه: (لقد حلت الكارثة)، لكن الرجل صافحنا بأدب شديد وهو يرسم ابتسامة عريضة على شفتيه، وقال وهو يتصنع الحياء:

- دكتور وليام براون... مدام مرجريت براون... معذرة... جئت أطلب يد كريمتكم بسيمة، فأنا أعشقها!

* * *

بدر الدين أباظة

تجاوزت عامك السابع والعشرين يا بدر الدين ولم تتزوج بعد! ورغم أنك مفتون بڤيرجينيا، إلا أن قلبك يخفق لرؤية فردوس، وجسدك يزدهر ويورق وهي تتلوى من فرط اللذة بين أحضانك، ولكن هل يعقل أن تتزوج عاهرة رسمية يا رجل؟ صحيح أن الفؤاد يهفو إليها، وصحيح أيضًا أنها كفّت عن منح زهور جسدها لأي رجل سواي استجابة لطلبي، لكن الناس تعرف مهنتها وتلعنها. والزواج الناجح زهرة لا تتفتح إلا برضا الأهل والأصحاب ورعايتهم، فأنت لست في لندن يا بدر الدين، كل إنسان حر فيما يفعل أو لا يفعل، فلايحاسبه أحد مادام لم يؤذ مخلوقًا أو يتعدى النظام العام. أنت هنا في الغورية... في الأزهر... في مصر المحروسة. وأمس كدت تتورط عندما همست فردوس في أذنك بعد الارتواء الجسدي الجميل: (فلتتزوجني يا سي بدر)، أجل... كدت تتورط وتوافق، لكن الصوت المدوّي لسقوط طست الغسيل في المطبخ محق التردد وأنقذك من الورطة، وابتعدت عنها بحجة الاغتسال. حقًّا... ما أبشع أن يصطدم جواد الحب المندفع بجدار التقاليد الصلبة!

واليوم لم تستطع أن تبوح لڤيرجينيا بخبايا صدرك، رغم أن الحيوان أبا المكارم لم يأت، وذهب إلى قريته بالجيزة لرؤية أهله والاطمئنان على والده المريض، كما قال لي الدكتور وليام. ودعوت في سرك (الله لا يرجعه)، لكن انشغال حبيبة القلب مع الدكتور طوال الفترة الصباحية حال دون أن تفصح وتفيض، والعيادة تغلق أبوابها يوم الخميس في الفترة المسائية. وها أنت تقضي ليلة الجمعة بمفردك، فلا النفس تميل نحو سرير فردوس هذا المساء، ولا العقل قادر على إبعاد شبح ڤيرجينيا عن فضاء خيالك، والضجر نال منك وأزعجك أيما إزعاج، فما العمل إذًا والليل مازال في أوله يتسلل في خجل؟ ألا يوجد اختراع يمحق السأم؟ وفي لندن كنت تلعن الوقت لأنه يفر سريعًا، ولأنك تلهث خلف الزمن، فلا تلحق به، والليالي تمضي جميلة رخية بين سهر ومجون ومرح وسرور وخمر ونساء، أما الآن، هنا في الغورية، فالزمن جامد مثل صخر في صحراء شاسعة، فلا سهر ولا طرب ولا سرور، ولولا فردوس لصرت من مجاذيب الحسين!

ما أتعس أيامك يا بدر، وسمعت أذان العشاء، فاستغفرت الله ورجوت منه الرحمة والغفران!

* * *

تكاسلت في الذهاب إلى جامع الأزهر لأداء صلاة العشاء، ولكن بعد أن أديتها في الدار، لم أستطع مقاومة الوحدة أكثر من ذلك، وتاقت نفسي إلى الناس،

أحادثهم وأسمع منهم، فذهبت إلى مقهى المعلم إلياس الدمشقي، فهناك أجد الحفاوة والتقدير والاستقبال الكريم من صاحبه ومن زبائنه على حد سواء. وهناك أيضًا أتفاخر بحكاياتي اللندنية وأتباهى بمعلوماتي الطبية، فأنصح المرضى الجالسين في المقهى بتناول ما تيسر من أعشاب ووصفات تخفف عنهم آلامهم الطارئة. صحيح أنني لا أتقاضى أجرًا نظير هذه الوصفات، لكنهم يغمرونني بالدعوات الطيبة، وبصراحة أطمع كثيرًا في تلك الدعوات فالقلب يطرب لها كثيرًا وربما خففت عني ميزان سيئاتي، وما أثقله، ويكفي علاقتي الآثمة بفردوس.

حين خرجت من باب داري، لفحني تيار شديد من البرد، فارتجفت للحظة، وعدت سريعًا إلى الداخل لأستدفئ بالقفطان، رغم أنني حريص دومًا على ارتداء الملابس الأوربية منذ عدت من لندن. أعرف أن هيئتي هكذا بالقفطان والعمامة توحي بالهيبة والاعتبار، وأنني أبدو أكبر من سني، ولكن لا بأس. في الطريق ابتعت قطعة كنافة من الحلواني الذي يفرش بضاعته على ناصية حارة السكرية، والتهمتها بشهية، ولما وصلت إلى المقهى استقبلني المعلم إلياس بحفاوة وترحاب ومودة أبهجتني، فبادرته:

- ليلتك سعيدة يا معلم... أعطني السحلب الساخن جدًّا، فالبرد الليلة يعصف بالأجساد ويزلزلها.

وسرعان ما جلس قبالتي ثلاثة زبائن يعرفونني جيدًا، لكنهم ليسوا أصدقاء. أولهم سألني بخجل عن علاج يسهم في ضبط الأحوال عند الجماع، لأنه يعاني من ارتخاء مفاجئ، والثاني رجاني أن أساعده في تخفيف آلام الرأس التي يعاني منها منذ الصباح، والثالث طلب وصفة لطفلته الرضيعة التي تتقيأ على الدوام منذ يومين.

انتشيت بالأسئلة، وملأني غرور محبب يرضيني دومًا ويخفف عني بعض عذابات الإخفاق في لندن، ثم بدأت في تلقين الإجابة ووصف علاج كل حالة على حدة، مستعينًا بخبراتي مع الدكتور وليام دون أن أذكر فضله أو اسمه وكأنني صاحب العلم وأستاذ الطب، وقد تنافس الثلاثة في دفع حساب السحلب، وأقسم صاحب أزمة الارتخاء على دعوتي على العشاء.. لكني رفضت، فقرر أن يطلب لي المريمية الشامية، فوافقت، ثم وصل إلى المقهى شيخ الحارة حسنين شيحة بجسده البدين وجلبابه الفضفاض وطربوشه العثمانلي الأحمروصوته الأجش، فصافحني بحرارة كعادته كلما رآني، وطلب الانفراد بي فوافقت، فوشوشني أن ابنه عبد الراضي غير قادر على معاشرة زوجته منذ زفافه قبل شهرين، رغم أنه شاب صغير لم يتجاوز العشرين، فأخبرته بضرورة أن يستريح

وأن يتناول اللحم بكثرة مع أعشاب معينة حددتها له، كما طلبت منه أن يحضّوا زوجته على أن تتزين وتتدلل أمامه حتى تستثير شهوته ويقبل عليها بهمة، فشكرني بشدة وأصر على دفع الحساب، وسألني برجاء: (متى تجبر خاطري وتقبل دعوتي لنتناول البوظة في خمارة المعلم مكاوي الشال؟)، فاعتذرت بأدب.

وفجأة وقبل أن يغادر اقتحم المقهى مجموعة من رجال الشرطة الأرناؤوط بأجسادهم الضخمة وطرابيشهم الحمر وشواربهم المبرومة ولحاهم الكثة وثيابهم المميزة وضجيجهم المخيف. لم يتحدثوا مع أحد، لكنهم تفرسوا في وجوه الزبائن بتركيز شديد، فتوجه نحوهم شيخ الحارة مستفسرًا، فهمس له قائدهم بعبارات لم نسمعها، ولما انتهت عملية فحص الوجوه، التف الجنود حول القائد في نصف دائرة وصاح الرجل بلكنة مصرية مفهومة:

- هل يعرف أحد منكم فلاحًا يدعى عليوة؟

ثم هتف بنبرة أعلى:

- إنه فلاح مجرم من بنها، ومولانا المعظم عباس حلمي باشا خصص مكافأة قيمتها مئة جنيه لمن يعثر عليه أو يدلنا على معلومة تساعدنا في الإمساك به.

وانطلق صوت من أقصى المقهى يتساءل باستنكار:

- وما جريمته يا باشاويش؟

- وأنت مال أهلك؟ لقد أصدر الوالي فرمانًا بأنه مجرم. إذًا فهو مجرم، ومجرم خطير.

ثم خاطب شيخ الحارة حسنين شيحة قائلًا بحرارة:

- ننتظر تعاونك معنا يا حسنين أنت وبقية شيوخ الحارات في الأزهر والحسين.

فصاح شيخ الحارة:

- طبعًا طبعًا... نحن في خدمة مولانا المعظم عباس باشا، والمجرم عليوة سنمسك به بإذن الله، حتى لو اختبأ تحت الأرض.

بعد ذلك أشار القائد إلى أحد الجنود بسبابته، فأسرع بإخراج ورقة كبيرة من بقجة كان يحملها على ظهره وفردها، وشرع في لصقها على جدار المقهى بالغراء. وقد كتب عليها بالنص (ضبط وإحضار... أصدر جناب الوالي عباس حلمي

باشا حفظه الله فرمانًا بصرف مكافأة 100 جنيه لكل من يعثر على المجرم الهارب"عليوة أبو زهرة" من قرية الشموت ببنها ويسلمه للشرطة،أو يدلي بمعلومات تساعد الشرطة على إلقاء القبض عليه، وهو شاب قمحي اللون، ذو لحية خفيفة، نحيف جدًّا ومتوسط الطول، كما أمر جناب الوالي بقطع رأس كل من يساعده على الهرب أو يتستر عليه أو يخفيه عن رجال الشرطة).

* * *

استعرت النار في المقهى. اشتعلت الأسئلة. انهمرت التخمينات، تطايرت الأحلام. تعانق الخوف بالأمل. عبثت الأمنيات بالرؤوس. مئة جنيه رقم ضخم جدًّا، وصاح أحدهم: (إنه يحل مشكلات منطقة الأزهر كلها). وظل المعلم إلياس الدمشقي يتلو بصوت عال نص الفرمان كل فترة وجيزة، فهو الوحيد الذي يعرف القراءة في المقهى غيري، وقد تعجبت من صبر الرجل على إلحاح الزبائن:

- أرجوك يا معلم إلياس... ما المكتوب؟

- لقد قرأته لكم الآن يا حاج.

- معذرة... اقرأه علينا مرة أخرى حتى نستوعب أكثر.

فيبتسم المعلم ويستجيب للإلحاح، فهو لا يريد أن يخسر زبونًا واحدًا، وسرعان ما تبارى الحاضرون في تخمين طبيعة الجريمة:

- لقد سرق عليوة هذا مجوهرات من قصر الوالي.

- لا... لا... لا... إنه اعتدى على إحدى جواري القصر واغتصبها.

- أظن أنه تهاون في ري أرض الوالي ففسد الزرع.

- وربما قتل أحد العبيد العاملين في خدمة ولي النعم.

- ألا يمكن أن يكون عليوة هذا مظلومًا.

- وارد جدًّا، فما أكثر المظلومين في هذا الزمن.

- وكل زمان، ومن سمعك!

- قد تكون وشاية ضد هذا المسكين، أطلقها جار له أو جندي أرناؤوطي متربص

به لسبب لا نعلمه!

- ترى... أين اختفى؟

- أكيد في إحدى القرى المجاورة لقريته ببنها... ولا أعرف لماذا أتوا للبحث عنه هنا في مصر؟

- لأن الزحام الشديد في مصر يبتلع الجميع، الطيبين والأشرار، فلا يلحظ وجودهم أحد.

تابعت التأويلات باهتمام، وتعجبت من سرعة البديهة التي يتمتع بها الناس، لكني انزعجت من صخبهم وضجيجهم، ولما دنا من مجلسي أحدهم وسألني باهتمام:

- وما رأيك أنت يا دكتور بدر؟

ابتهجت بالتقدير والاحترام، وقلت بعد تفكر، وأنا أعيد قراءة نص الفرمان بعينيّ فقط:

- أظن أن عليوة أبا زهرة هذا أحد المارقين.

قلت ذلك، وفي ذهني شبح أبي المكارم وطيف ربيع المغاوري!

* * *

رغم البرد الشديد، ورغم لهفتي على التمتع بالدفء في حضن فردوس، إلا أن ربيع المغاوري أهم ألف مرة في هذه الليلة الغريبة.وسوف يبوح لي بكل ما يعرف، فهو لا يخفي عني شيئًا. فأنا أواظب على منحه المال كل فترة، ففي مصر يجب على المرء أن يوثق علاقته برجل أمن حتى يحمي نفسه من الأذى، أو ينجز معاملة رسمية بسهولة. ولكن واضح جدًّا أن هناك علاقة ما بين عليوة وأبي المكارم؟ الأوصاف المعلنة في الفرمان تشير إلى ذلك. نحيف وقمحي اللون ومتوسط الطول. والدكتور وليام لم يخبرنا من أين جاء بهذا الفلاح أبي المكارم؟ صحيح أنه صرّح لي اليوم أن أبا المكارم ذهب إلى أسرته في الجيزة، فربما كلامه غير صحيح أو للتمويه، وهو المجرم المقصود بالفعل. وراودتني أحلام خضراء.. هل ستكون المكافأة من نصيبي؟ وزغرد الفؤاد، فبضربة واحدة أزيح هذا الوغد من طريقي وأحصل على مئة جنيه، فيخلو لي وجه ڤيرجينيا، وساعتها أسترد اهتمامها بي وشغفها بما أقول، لعلي في النهاية أظفر بها حبيبة أو زوجة

أو عشيقة. غادرت المقهى متوجهًا نحو خان الخليلي حيث دار صديقي البصاص ربيع المغاوري، فعنده الخبر اليقين لا ريب. ولأتحمل هذه الوخزات المتتالية من تيارات البرد.

ماهذا؟

الفرمان معلق على حوائط الدور وجدران الدكاكين... على جدار جامع الأزهر وجامع الحسين وجامع عبد الرحمن كتخدا... على نواصي الحارات والأزقة... على مدخل حارة المشهد الحسيني وخان جعفر والنحاسين وقصر الشوق. على جدران الأزقة الضيقة في خان الخليلي. متى علقوا كل ذلك؟ ألهذه الدرجة عليوة هذا مجرم خطير؟ ماذا ارتكب يا ترى؟ وورد في خيالي خاطر مريب فابتسمت وكتمته في الحال، وحدّثتني نفسي يبدو أن الوالي ضبط عليوة يضاجع حرمه المصون،وإلا ما ملأ البلد بأوصافه ومكافآته وتهديداته.. لقد صارت مصر كلها في ظرف ساعات معدودة مرصودة للبحث عن المجرم عليوة!

الظلمة حالكة، ومواء القطط الهائجة منفر جدًّا، وربيع يقطن في بيت صغير محشور بين بيتين ضخمين داخل عطفة ضيقة محرومة من النور، حتى أشعة شمس يوليو لا تستطيع الوصول إليها. بعد عدة طرقات على الباب فتح ودعاني للدخول، فرفضت، فقال على الفور ببسمة تكشف عن أسنانه الصفراء:

- إذًا، فلنذهب إلى الغرزة نشد أنفاس الحشيش!

- يا رجل... تخلص من هذه القذارة... حشيش ودخان وقرف... تعال.. أنا أدعوك إلى كأس ويسكي في بار الإيجبسيانة بالأزبكية لنحظى بالدفء.

ورغم علمي أنه يتحصل شهريًّا على دخل معقول بشكل مشروع وغير مشروع، لكن مصروفاته كثيرة، فهو ينفق على زوجته وأبنائه الصغار الثلاثة وأمه وشقيقته الأرملة وابنها. فلما تردد في الذهاب إلى البار، أكدت له أنه معزوم ولن يدفع بارة واحدة، فوافق شاكرًا وممتنًا للدعوة، ثم نفحته خمسة قروش فابتهج صدره وانكسرت عيناه!

المفاجأة الأولى أنني وجدت الفرمان معلقًا على مدخل البار باللغة الفرنسية والإنجليزية والتركية، كما شاهدته منتشرًا في أزقة الرويعي، فازداد اندهاشي واشتعل فضولي، وتساءلت ما الجرم الذي ارتكبه عليوة هذا؟ سأفتح الكلام عنه بعد أول رشفة من الويسكي.

بصراحة... أحب الجلوس في هذا البار رغم أسعاره المرتفعة، لأنه يذكرني ببارات

لندن من حيث الشكل العام والإبهار وجو السهرة والنظافة والترتيب والخدمة الممتازة، كما أن النادلة القبرصية جميلة ورقيقة وذات قوام شهي. بدا البار مزدحمًا كما توقعت، وكان عازف البيانو الإيطالي شابًّا متحمسًا للموسيقى؛ إذ ظل يضرب البيانو لا بأصابعه فحسب، بل بجسمه ورأسه وشعره وأعصابه فلفت انتباه الحاضرين بحركاته البهلوانية المتوترة وسعدوا به وبنغماته. وعلى الفور طلبت كأسي ويسكي مع المزة الساخنة كبد الدجاج والخبز المحمص، وبعد أول رشفة سألت ربيع المغاوري المنبهر بالمكان:

- ما حكاية هذا الشاب؟

لم ينظر إليّ، إذ كان مصوبًا بصره بتركيز على مؤخرة امرأة يونانية سمينة تتجه نحو الحمام، فأدرت وجهه نحوي براحتي اليمنى، وكررت السؤال، فقال وهو يحسو الرشفة الثانية:

- أي شاب؟

- عليوة أبو زهرة، ففرمان الوالي معلق على جدران مصر كلها!

- آه... معلوماتي، أنه كان يعمل في قصر الوالي ببنها، ثم هرب، لكن لا أعرف لماذا هرب؟ ولا من ساعده على الهرب، لكن كبير الشرطة يقول إن عليوة ارتكب جريمة كبرى تستحق القتل!

ثم أضاف ضاحكًا وقد لعبت الخمر برأسه:

- المرأة... ابحث عن المرأة... فالوالي لن ينشغل بهارب من قصره، إلا إذا كان الأمر مرتبطًا بالنساء!

فهتفت ضاحكًا:

- معك حق، فنصف مشكلات الدنيا سببها نساء.

ثم أضفت:

- ولكن، ربما سرق عليوة هذا بعض الذهب والمجوهرات من القصر، فما أكثر كنوز الوالي!

- اخفض صوتك... البصاصون في كل مكان، أنسيت أني واحد منهم؟والسجون محتشدة بالآلاف، حتى لو صارت تهمة المرءمجرد إلقاء نكتة تذمر على مقهى.

لقد انقسمت مصر في عهد عباس إلى نصفين: النصف الأول يراقب ويعمل بصاصًا على النصف الثاني!

* * *

عليوة أبو زهرة

يا بختك الأسود يا عليوة.

مصر كلها تبحث عنك. اسمك صار مضغة الأفواه. أوصافك أضحت على كل لسان. هروبك من الموت بات جريمة غامضة ألهبت خيالات الناس بجرائم أخرى متنوعة ارتكبتها أنت، وأنت وحدك.

ماذا أفعل؟ وأول أمس طمأنني الدكتور وليام، وهو يبدّل الرباط على الجرح بعد وضع العقاقير اللازمة:

- لا تقلق يا أبا المكارم... لن يستطيع أحد الوصول إليك في هذا المكان.

قالها بثقة، لكني شممت رائحة قلق تخرج مع كلماته، ورأيت برقوق يرمقني بنظرات حائرة، نظرات يختلط فيه الإشفاق مع السخط. كأنه يلعن اليوم الذي ساعدني فيه على الهرب من القصر، أو كأنه يقول: (من رماك علينا، فأفسدت حياتنا)، لكني ألحظ أيضًا في عمق عينيه رغبة أصيلة في حمايتي وإخفائي عن جنود الوالي ورجاله. وقلت للدكتور:

- أنا آسف يا دكتور لأنني سببت لحضرتك كل هذا القلق دون داعٍ.

فابتسم الرجل وهو يربّت كتفي، وقال بيقين عجيب وهو ينظر إلى اللاشيء:

- كل ليل وله آخر، والشمس ستشرق حتمًا، فالأوضاع المختلة لا تستطيع البقاء للأبد.

ثم التفت نحوي وأمرني بحسم:

- إياك أن تخرج من هنا... القاهرة كلها ألغام ستنفجر فيك. وبرقوق سيمر عليك باستمرار ليتولى إمدادك بالطعام والشراب وكل احتياجاتك.

ثم بنبرة رقيقة:

- هوّن عليك... ستمر هذه العاصفة قريبًا، فاعتصم بالأمل، وتذكر أنك واحد من عشاق الحياة الكبار الذين نفرح بوجودهم بيننا.

ثم انحنى قليلًا حتى أصبح فمه بجوار أذني وهمس معاتبًا ولائمًا:

- لماذا أخبرت ڤيرجينيا عن مقر إقامتك؟ الثرثرة بلا حساب والدردشة مع الإعجاب سارة في البداية ضارة في النهاية. يجب أن تحتاط دائمًا حتى من نفسك.

وغادر وبرفقته برقوق، وتركاني وحيدًا أمضغ الوقت المر، أفكر في مقولته ولا أفهم شيئًا. ومن ساعتها لم أر وجه مخلوق، أو اطمأنت روحي بالحديث مع إنسان.

* * *

ثلاثة أيام كاملة، ومازلت مسجونًا في دار كبيرة غامضة داخل درب قرمز لا أرى أحدًا، ولا يسعدني أحد برؤيته. أتلقى أصوات الباعة والسابلة والصبية مع شمس الصباح، عبر مشربية صغيرة تطل على قصر الأمير بشتاك، فيصبو روحي إلى هؤلاء الغرباء، وأتمنى لو رأيتهم وتحدثت معهم، وسمعت لهم وسمعوا مني، فما أجمل الناس حتى لو لم تربطنا بهم علاقة، وما أبشع الوحدة حتى لو سكنت في دار باذخة.

لقد حملني برقوق كدجاجة، وأتى بي إلى هنا في الليلة التي هبط فيها الجنود الأرناؤوط كالجراد أرض الأزهر حاملين عشرات النسخ من هذا الفرمان الذي يحرض الناس كافة على الإمساك بي ويعدهم بمكافآت سخية. أذكر جيدًا كيف اقتحم الدكتور وليام غرفتي وبصحبته زوجته وبسيمة وبرقوق. كان الذعر يتراقص في عيون الجميع. وبدا الهلع كائنًا بغيضًا محشورًا بينهم. لم أفهم السبب، لكن عدوى الفزع غزت أوردتي في الحال، فانتفضت واقفًا، وقبل أن أستفسر، بادرني الدكتور بجدية شديدة:

- يجب انتقالك من هنا فورًا.

ومضى سريعًا يفك الرباط عن رأسي، فتساءلت بخوف:

- لِمَ؟

- جنود الوالي يبحثون عنك. الفرمان معلق على جميع الجدران في القاهرة!

فقذف الرعب في قلبي وتمزقت حواسي، ووجدتني أرتعش وأستغيث بعينيّ بسيمة، فرأيت دموعها تنحدر ببطءعلى خديها، وهمست مدام مرجريت:

- لا تقلق يا عليوة... ستنتقل إلى مكان آمن خفي عن العيون والبصاصين... ستكون في أمان.

فنهرها زوجها صائحًا:

- اسمه أبو المكارم.

وتوتر الجو، وارتمت بسيمة في حضن أمها خوفًا ويأسًا وحزنًا، بعد أن تراجعت السيدة إلى الخلف خطوة احتجاجًا أو تبرمًا من صياح زوجها، وواصل الدكتور تجديد العلاج وتغيير الرباط على الجرح بهمة، ثم أمر برقوق بحملي فوق كتفه، بعد أن لفوني جيدًا في ثياب امرأة، وطلب مني ألا أفتح فمي مهما حدث، ثم قال بحزم:

- أنت الآن امرأة مريضة جدًّا لا تستطيع الكلام... هيا يا برقوق... انطلق.

ولم يمنحني أي فرصة لمصافحة بسيمة، ولما حاولت تقديم الشكر له، صاح:

- اسكت... انتهى.

فامتثلت لأمره وغادر برقوق،حاملًا جسدي النحيل،دار الدكتور وليام في منتصف ليلة شتوية تعصف بها رياح شديدة من الهواء البارد. اخترق الطريق نحو جامع الأزهر، فجامع الحسين ثم انعطف يمينًا في حارة المشهد الحسيني ثم يسارًا نحو حارة خان جعفر، فالجمالية ثم انحرف يسارًا نحو درب قرمز.

ظل قلبي يخفق بشدة وأنا محمول كالبقجة التافهة فوق كتف برقوق ماضيًا بي إلى المجهول، يرافقنا نباح الكلاب الضالة ومواء القطط الهائجة وصفير الرياح المخيف، وكنت أرفع الغطاء قليلًا عن عينيّ لأرقب الطريق، ورغم الظلمة الحالكة، تناثرت بؤر ضوء من بعض المقاهي الساهرة، فسمحت لي برؤية الفرمان الملعون معلقًا هنا وهناك، فتقلصت معدتي وأمعائي من شدة الخوف، وشعرت أن النجوم والكلاب والقطط يراقبونني، وتمنيت لو يعود الزمان بي إلى الوراء، وأرتد طفلًا أمرح في الحقول لا أعي ولا أتألم. وفرت حفنة دموع من عينيّ فجأة، ولعنت حظي البائس وزمني المشاكس وقلة حيلتي، وتذكرت بوجد قول الله تعالى (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين)، وأفقت من هواجسي على صوت برقوق، وهو يفتح باب دار غريبة ويهمس:

- لقد وصلنا في سلام والحمد لله.

* * *

أخبرني برقوق أن هذه الدار ابتاعها الدكتور وليام قبل خمسة أشهرليحولها إلى لوكاندة صغيرة، ينزل فيها الأوروبيون الذين يمرون على القاهرة للتجارة أو التنزه والاكتشاف. وأنه يعمل على إعدادها بما يلزم من خدمات مميزة تليق بمكانته واسمه في مصر المحروسة. وقال لي أيضًا وهو يسحبني خلفه، إن ثمة دهليزًا في الدور الأرضي، يفضي إلى غرفة سرية لا يتوصل إلى معرفتها أحد، وأنني، حفاظًا على حياتي، يجب أن أفر إلى هذه الغرفة إذا شعرت بأي خطر، كما ينبغي أن أنام فيها، وفقًا لأوامر الدكتور وليام. وغادر برقوق، بعد أن ترك لي حفنة من الشموع الصغيرة لأوقدها عندما يجن الليل، وشدد قائلًا: (أشعل واحدة فقط يا عليوة... واخفِ نورها ما استطعت حتى لا يتسرب إلى الخارج).

تعجبت من موقع تلك الغرفة السرية، فمن الصعب جدًّا ملاحظة وجودها. إنها غرفة غير مرئية تقع في نهاية الدهليز جهة اليسار، وكأنها جزء من الجدار، ولا يمكن التعرف على مدخلها إلا إذا أزحت حجرًا صغيرًا تحت بابها المخفيّ. وأكد الدكتور وليام في أول زيارة لي أنه اشترى الدار هكذا بتصميمها الفريد وغرفتها المريبة هذه، وابتسم قبل أن يضيف شارحًا:

- مثل هذه الغرف السرية مرصودة للقاءات الجنسية المحرمة خصوصًا لكبار الشخصيات والمسؤولين، أو للمؤامرات الخبيثة أو لإخفاء الأشياء الثمينة من ممتلكات ومسروقات، أو ربما صممت كملاذ وحماية للشخصيات المهمة.

في الليلة الأولى جافاني النوم من فرط الرعب، فحُمّى البحث عني بعد تعليق الفرمان استحوذت على عقول الناس كما يؤكد برقوق، فالمكافأة سخية،والمال أفعى تلعب في الصدور. واللحظات التي غفوت فيها احتشدت بكوابيس مزعجة، فالخوف مستودع الهواجس. أخطرهذه الكوابيس وأكثرها تقززًا تمثل في تقييد أطرافي وقدميّ من قبل جنود الوالي، وإلقائي على ظهري في مطبخ القصر الملعون، ثم انهمك هؤلاء الجنود في حشر فضلات الطعام في فمي بالقوة، حتى انتفخ بطني مثل كرش أدهم بك، فتقيأت وأفرغت ما في جوفي كله ليتحول المطبخ إلى أكوام من الفضلات والروائح الكريهة، ونجوت من التسمم بالاستيقاظ مذعورًا.

كان كابوسًا مقرفًا وملعونًا، لكن في الأيام التالية، ولما سكت عني الخوف قليلًا واطمأن روحي بعض الشيء إلى غرف الدار وجدرانها، تقلصت الكوابيس وتراجع عددها فبات النوم الهادئ يصادقني فترات لا بأس بها، فأنعم به وأحمد الله. ومع ذلك، فالنهار أطول مما يتخيل أحد، والزمن يتجمد في هذه اللوكاندة، وغراب الوحشة ينعق حولي فيعتريني اكتئاب، وتهفو نفسي إلى الناس بلا فائدة، وأسمع صوتي يردد بحسرة: أريد أن أتحدث مع أحد. وأسبح في نهر أحلام

اليقظة وأغمغم: آه لو تنشق الأرض عن أبي أو أخي غباشي أو بسيمة، أو ڤيرجينيا، أو برقوق أو حتى بدر الدين بحقده وخبثه ونظراته المريبة. كل الناس طيبون، بمن فيهم الأوغاد، إذا صارت الوحدة هي العقاب. إن تحمّل سخافات الناس وغلّهم أهون ألف مرة من البقاء وحيدًا من دونهم أقاوم عذابات نهار بارد... قاسٍ لا ينتهي.أما الليل فوحش عظيم رابض في الزوايا والأركان لا يتحرك ولا يغادر، وأما نظافة اللوكاندة، فلا تشجع الفئران والحشرات والصراصير على الزيارة، فالنظافة شعار دائم يرفعه الدكتور وليام بكل حزم... في العيادة... في داره بالأزهر... حتى هنا في هذه اللوكاندة غير المكتملة. وأسمعني أردد بصوت هزيل: "ليت الحشرات والحيوانات الليلية تعرف الطريق إلى هنا فتمزق السكون وتقهر وحدتي". وهكذا أهيم منفردًا بين أنيني المكتوم والجدران الصامتة والليل الجاثم، ولولا الأصوات التي تصعد إليّ أحيانًا من قاطني درب قرمز والعابرين فيه، لفقدت صوابي وصرت واحدًا من المجاذيب.

أستغفر الله العلي القدير، حتى صلاتي الدائمة وتلاوتي المستمرة لما أحفظ من سور القرآن الكريم لا تمنحاني السكينة إلا فترة محدودة، ثم يعاود غول الوحدة نشاطه اللعين في نهش أعصابي وتفتيت روحي.وأتذكر إقامتي في قصر الوالي وأتحسر عليها، فقد كنت أرى الناس ثلاث مرات في اليوم، ورغم الرعب من الموت مسمومًا، فإن رؤية البشر والتحدث إليهم نعمة كبيرة حتى لو عاد الموت يترصدني بعدها. وما التجوال العبثي في هذه اللوكاندة الواسعة سوى ممارسة بائسة للملل والسخف، فقد حفظت معالم الغرف السبع الكائنة في الطابق الثاني، وحفظت كذلك عدد درجات السلم العشر التي تفضي إلى الطابق الأرضي ومدى ارتفاع كل واحدة، كما أضجرني تكرار النظر مرات ومرات إلى محتويات غرف هذا الطابق وقاعته ومطبخه. وتساءلت: هل مقدور عليّ أن أظل أسير السجن طوال شبابي... سجن السخرة في أرض الوالي... سجن مطبخ قصر الوالي ببنها، سجن الخوف في دار الدكتور وليام... وسجن لوكاندة الدكتور بدرب قرمز؟ وتساءلت أيضًا أكثر من مرة: كيف سيفتح الدكتور وليام اللوكاندة لاستقبال النزلاء وأنا أقيم هنا؟ صحيح أن ثمة أمورًا لم يتم الانتهاء منها بعد مثل تجهيز المطبخ الكبير بالأدوات والمواعين،والانتهاء من طلاء القاعة الرئيسة والحمامات، إلا أن ذلك يعد أمرًا سهلًا قد لا يستغرق فقط أيامًا معدودات، وانتابني شعور كبير بالذنب. وقلت لنفسي: (ها أنت تعطل مصالح الناس يا عليوة. وأي ناس... إنه الرجل الكريم الذي أنقذك وأخرجك من ظلمة المطبخ الكريه إلى نور الحياة). وتذكرت حديثه المقلق عن الشك في وجود الله، فارتعبت وتساءلت والحيرة تغرز أنيابها في عقلي: كيف تجتمع الطيبة مع شكاك؟ وكيف تزدهر الرأفة في قلب رجل يشك في وجود الله؟ وهل يعقل أن يهب الرحمن رجلًا شكاكًا مثل الدكتور وليام فؤادًا عامرًا بمحبة الناس؟ ولما لم تسعفني إجابة تطمئن القلب، بلغ مني الحزن أشده، فنقلت فراشي من الغرفة السرية إلى

جوار المشربية الصغيرة في القاعة الكبيرة، حتى يأتنس روحي بأصوات البشر الذين يملأون الدرب صخبًا وضجيجًا، وكأني أنصح نفسي... عِش مع الناس ولو من خلف الجدران.

وسخرت من حالي وقلت: صرت كالحريم يا عليوة... تتلصص من خلف المشربية على الذاهبين والعائدين، وفرحت لأن هناك مقهى في الجهة المقابلة للوكاندة، يسمح لي برؤية زبائنه بشكل جيد. مقهى المعلم صميدة كما كتب على جداره الأيمن بخط سئ. المقهى يعني الحياة... يعني الكلام والحركة... يعني تغيير الوجوه... المقهى مستودع الحكايات والأخبار والنكات، وشكرت الله أن وهبني نعمة الاختباء بجوار مقهى لتمنحني أصوات زبائنه ما تيسر من أنس وألفة!

ما هذا؟ الفرمان المريب يتصدر واجهة المقهى، وثلاثة من الرجال يتسمرون أمامه، وأحدهم يتلو عليهم نص الفرمان بصوت عال يصل إلى مسامعي هنا. الناس يتكاثرون حول قارئ الفرمان البغيض. أسئلتهم تتلاحق بسخافة... السخرية تتدفق من الألسنة بسماجة. حقًّا... ما أتعس أن ترى اسمك مدونًا ومعلنًا على الملأ في دائرة التربص.وما أسوأ أن يطاردك البشر لأنك هربت من الموت المجاني واخترت الحياة... هربت من الوالي المخبول وعانقت البشر الأسوياء... وكرهت هذا المقهى!

* * *

- مساء الخير... كل هذا النوم!

بسيمة، الصوت الرقيق... الناعم... الحنون... ما أجملك، فكم أوحشتني، وانتبهت إلى وجود الدكتور وليام وبرقوق. وأدركت أن النوم غلبني، وأن الشمس مازالت تسطع في الخارج، من خلال أشعة الضوء المتسربة من فتحات المشربية. بسيمة... أليفة الروح... كم أوحشتني.

وابتسم الدكتور قائلًا:

- حسنًا فعلت يا أبا المكارم... النوم قريبًا من حركة الناس في الدرب يخفف عنك عذابات الوحدة. ثم أضاف:

- هذه آخر مرة سيتم فيها التغيير على الجرح... لقد أوشك على الالتئام تمامًا.

وراح يفك الرباط برفق ويضع المطهر بمعاونة برقوق، ثم يعيد ربط مكان الجرح بهدوء، بينما نتبادل نظرات شوق مكتوم أنا وبسيمة التي خاطبت الدكتور

بالإنجليزية، وهي تنظر إليّ:

- Father, when will Abo AlMakarem return to our house?
متى سيعود أبوالمكارم إلى دارنا يا أبي؟

فابتسم وقال وهو يرمقها بنظرة إعجاب:

- ممتاز جدًّا... إلقاؤك سليم يا بسيمة... لقد بدأت تتقنين الصيغة الصحيحة للسؤال طبقًا للقواعد أو Grammar فاشكري ماما على مجهودها معك، وسوف أقدم الشكر الجزيل بنفسي لمدرس اللغة الإنجليزية.

ثم تفكر لحظات ورنا إليّ وهمس:

- لن تعود إلى الدار الآن... سنرى فيما بعد!

وخزتني لزوجة إجابته، فسألته بلهفة:

- ما الأخبار يا دكتور؟ هل مازالوا يبحثون عني؟

فنظر إلى المشربية كأنه يطل على درب قرمز، وقال بحزن حقيقي:

- بكل أسف... الوالي عباس باشا يشعر بأن هروبك من مطبخ القصر تحدٍّ لإرادته السامية واعتداء على كرامته الشخصية، لذا فهو مُصرّ على الإمساك بك، وجنوده لا يتوقفون عن البحث عنك في كل زاوية وركن من أرض المحروسة!

فارتجفت للحظات، وغضضت بصري يأسًا، فعاد الدكتور لابتسامته اللطيفة وصوته الهادئ:

- لا تقلق... هذا المكان آمن تمامًا، فاللوكاندة تحت التجهيز، فلن يخطر في بال أحد أنك مختبئ بها، كما أن الغرفة السرية خير ملاذ إذا حام الخطر، فلا تخش شيئًا، كما أنني أوقفت تمامًا أعمال التشطيبات تحسبًا لأي محذور.

فقلت سريعًا:

- أعتذر جدًّا يا دكتور لأنني عقبة في إتمام مشروعك الخاص بتحويل الدار إلى لوكاندة.

فغمغم قائلًا بمحبة ظاهرة:

- لا عليك... المهم الآن... الحفاظ على حياتك، فإنقاذ حياة إنسان طيب وذكي ومحب للحياة مثلك بمال الدنيا كلها.

ودسّ في يدي عشرة قروش كاملة، وقال بنبرة محببة مطمئنة:

- أعرف أنك لست في حاجة إلى النقود لأنك لن تخرج من هنا، ولكن لا يصح أن يحيا الإنسان فارغ الجيب بلا مال، فالمصادفات العجيبة قد تحتم علينا مواجهة ما لم نحتسب له، فيصبح المال هو المنقذ من كارثة محققة.

فرمقته بنظرة امتنان وقلت بمحبة صادقة:

-ألف شكر يا دكتور.

وتذكرت بأسى بعض الشيوخ في قريتنا، الذين يحرضوننا باستمرار في خطبة صلاة الجمعة على عدم مصافحة المسيحيين أو تهنئتهم بأعيادهم أو دخول بيوتهم لأنهم كفار كما زعموا، وقلت في خاطري ها هو مسيحي أجنبي غير عربي يعرض نفسه للخطر، ويعطل مصالحه من أجل إنقاذ شاب مصري مسلم دون مقابل. هو المسيحي يحميني لوجه الله والوالي المسلم يرفض أن يعتقني لوجه الله. ما أغرب الإنسان... ينفر من المودة ويعانق الكراهية. ولو كان الأمر بيدي لقصصت على الناس كلها حكاية الدكتور وليام... الرجل ذي القلب العامر بالمحبة للناس، كل الناس. وفجأة انطلق ضجيج وصياح في الدرب، وارتجفت بسيمة وتكومت في حضن الدكتور، بينما اشرأب برقوق برأسه فبدا كعملاق أسطوري، وتكتلنا جميعًا أمام المشربية حتى تلاصقت رؤوسنا، لنرى ونسمع ما يجري في درب قرمز، وصعدت إلينا أصوات متداخلة مشوشةونداءات غير واضحة، حتى غطى عليها جميعًا صوت حودة نادل المقهى صائحًا:

- كفى يا جماعة... كفى رجاءً.. لقد أمسكوا عليوة أبو زهرة!

* * *

الدكتور وليام براون

خرجت من غرفة العمليات تاركًا ڤيرجينيا، تتابع شؤون السيدة العجوز التي أعطيتها المخدر المناسب لعمرها وحالتها من حيث الكمية والتركيز، وقد طلبت منها أن تتولى تدليك بطن المريضة وأمعائها برفق لمدة عشر دقائق. وما إن جلست في مكتبي حتى أخبرني بدر الدين بوصول نوبار بك.

ليست هذه هي المرة الأولى التي أستقبله فيها في عيادتي، فقد زارني نوبار بك مرات عديدة يشكو خلالها من آلام في معدته وأمعائه، وها هو يقبل عليّ اليوم للسبب نفسه. لقد جاء الرجل في الصباح، وفي يده صحيفة اللوفيچارو الفرنسية. بدا لي متماسك الأعصاب رغم أنني موقن أن ثمة اضطرابًا شديدًا يعصف بروحه، فعيناه البنيتان الغائرتان تحت حاجبيه الكثيفين، يكتنفهما قلق كبير لمن يملك مهارة قراءة ما تخفيه العيون، وأزعم أنني واحد من هؤلاء بحكم دراساتي لأساسيات علم التشريح، وكذلك اهتمامي بفنون المسرح. ذلك الفن الذي يولي تعبيرات الوجه أهمية كبرى.

استقبلته بمودة، فأنا أكن لهذا الشاب الأرمني، الذي لم يتجاوز الثلاثين احترامًا كبيرًا، فهو نشيط ودؤوب ومخلص في عمله، وأظن أنه يثق بي ويبادلني ودًّا بود. كما أن علاقته طيبة بقنصلنا الإنجليزي السيد تشارلز مري، ولكونه سكرتيرًا شخصيًّا للوالي عباس، فقد تمتع نوبار بك بنفوذ كبير جعل الجميع يحاول التقرب إليه، وهو يعي ذلك جيدًا، ومع ذلك فلا يتفاخر ولا يتكبر على الناس. فور جلوسه في مكتبي نزع طربوشه العثماني التصميم، وطلب أن يتناول القهوة وسألني بجدية:

- هل القهوة تفاقم مشكلات المعدة؟

فابتسمت وقلت:

- القليل منها لا يضر.

فهز رأسه شاكرًا، ثم قال متحسرًا بصوت خفيض:

- أين أيام الوالي الكبير محمد علي باشا... لقد راح زمن المجد ولن يعود!

بداية غريبة، وتذمر واضح، ولكن لِمَ؟ ألست صفيّ الوالي وحبيبه؟ ألم تكن أنت الموظف الوحيد، الذي احتفظ به عباس باشا من ضمن كبار الموظفين الذين

عملوا سابقًا مع عمه إبراهيم بن محمد علي؟ لقد أطاح عباس بهم بإشارة من يده. فما بك يا نوبار؟ ولماذا يفوح السخط من عباراتك؟ وواصل الرجل شكواه قائلًا:

- هل يعقل يا دكتور وليام أن العالم كله مشغول بحرب القرم منذ أكتوبر الماضي، بينما الوالي عندنا يبحث عن فلاح هارب من مطبخه؟ مَنْ عليوة هذا لينشغل الجميع بالبحث عنه؟ ألم تطرق مسامع عباس باشا طبول الحرب المندلعة على الشاطئ الآخر من البحر الأبيض؟ إن قيصر روسيا يملك جيشًا قويًّا مدججًا بأحدث الأسلحة، ولولا تحالف أوروبا مع السلطنة العثمانية، لاكتسح الروس منطقة القرم وضموها لأراضيهم منذ الأسبوع الأول.

فجأة... دفعت ڤيرجينيا الباب برفق وأشارت لي، فأستأذنت منه لدقائق، وأجريت العملية بفتح شق صغير في جسم المريضة واستئصال المرارة والتطهير، وخياطة الجرح الداخلي والخارجي ووضع العلاجات اللازمة وتركت بقية العمل الروتيني لڤيرجينيا. وعدت إلى مكتبي واعتذرت لنوبار بك قائلًا:

- عفوًا... عملية استئصال المرارة والحوصلة الصفراوية لسيدة عجوز.

- واضح جدًّا أن المخدر الذي اكتشفه الطبيب الأمريكي وليام مورتون له فعل السحر، فلم أسمع أي تأوهات أو صراخ.

- صحيح تمامًا تمامًا... هذا الطبيب واحد من أصحاب القلوب الكبيرة، الذين خففوا آلام البشر وعملوا على إسعادهم، بعكس الكثير من السياسيين الذين يشعلون الحروب هنا وهناك.

فأحنى رأسه موافقًا،وتذكرت حديثنا قبل إجراء العملية عن الحرب التي نشبت قبل ثلاثة أشهر، لكن الأخبار الواردة عن مسار المعارك شحيحة، فقادني الفضول إلى سؤاله:

- وإلى أين وصلت المعارك الآن يا نوبار بك؟

فأشار إلى جريدة اللوفيچارو، التي وضعها أمامه فوق المنضدة، وقال بحماسة:

- نشكر الرب، فالأخبار المنشورة هنا تؤكد أن جيش التحالف يحقق نجاحات مدهشة في مواجهة جحافل الروس، وقنصلكم تشارلز مري أكد لي ذلك،رغم أن القيصر حشد أكثر من نصف مليون جندي روسي، وأظن أن النصر ينتظرنا نحن الأوروبيين والعثمانيين قريبًا، وأن هذا القيصر المتغطرس سيحظى بهزيمة مدوّية.

ثم بنبرة غامضة:

- لكن المشكلة الأكبر أن كثيرًا من الأوروبيين فروا إلى مصر هربًا من النار التي اشتعلت في مدنهم وملابسهم وحدائقهم، ومعظمهم استقر في الإسكندرية، فأنشأوا دكاكين البقالة والعيادات الطبية ومكاتب المحاماة وصالونات الحلاقة والبارات ونوادي القمار، حتى باتت المدينة وكأنها قطعة من أوروبا.

- وما المشكلة في ذلك؟

فتفكر قليلًا ثم تناول رشفة من قهوة أم خديجة كما نسميها، وقال:

- عباس باشا لا يحب الأوروبيين أبدًا ويخشى كثيرًا من الضغط عليه من قبل قناصل دولهم، كما أن فرار الكثير منهم وإقامتهم في الإسكندرية سيزعج الوالي كثيرًا، وأكيد سينعكس بالسلب على أدائه وقراراته. لقد وافق بصعوبة شديدة على اقتراحي بإعطاء الإنجليز حق إنشاء أول خط سكة حديد في مصر، بين الإسكندرية والسويس قبل ثلاثة أعوام. وافق ليضمن حماية الإنجليزله، لأنه يعي جيدًا أن السلطان العثماني والصدر الأعظم وكبار رجال الدولة في إستانبول يكرهونه ويعملون جاهدين على الإطاحة به!

كنت أعلم من قنصلنا أن معظم أفراد أسرة الوالي قد فروا إلى إستانبول؛ خوفًا منه واحتجاجًا على قراراته المجحفة بحقوقهم كما يزعمون، ومنها حرمانهم من استلام إرث والدهم وجدّهم محمد علي باشا، وأعرف أيضًا أنهم يركزون بهمة ونشاط على تشويه صورة عباس، أمام السلطان العثماني والصدر الأعظم من أجل إزاحته، وقد نجحوا في ذلك إلى حد كبير، ساعدهم عليه عباس نفسه بتصرفاته وقراراته البائسة التي هوت بالبلاد إلى الحضيض أو تكاد، كما أعلمني السيد مري أن الوالي بات أكثر قلقًا وتوترًا في الفترة الأخيرة، وعدت أسأل ضيفي الأرمني:

- وما أحواله الآن؟

فرمقني بنظرة تنم عن تردد، لكن بعد صمت قصيرأباح وأفاض:

- عباس باشا مسكين... عزل نفسه عن الجميع، فكرهوه وعادوه.يحلم أن يستقل بمصر عن الدولة العثمانية، لكن لا قدراته تتيح له ذلك، ولا إمكانات مصر تيسر له تحقيق هذا الحلم، ومع ذلك فأنا أراه حاكمًا ذكيًّا ومخلصًا لمصر، صحيح أنه لا يملك العقل الجبار والعزيمة الصلبة والرؤية الثاقبة البعيدة، التي تميّز بها جده محمد علي باشا وطوّر بها مصر، إلا أنه في سياق عصرنا يعد حاكمًا جيدًا.

ويكفيه أنه تمكن من فرض الأمن في طول البلاد وعرضها، فقضى على غارات البدو وألجم قطاع الطرق واللصوص، فسمح للتجارة أن تزدهر، حيث كادت تختفي ظاهرة السطو على القوافل التي تجوب الصحراء، محملة بالبضائع القادمة من أوروبا إلى ميناء الإسكندرية، ومنه إلى السويس ليحملها البحر إلى الهند. ولا تنس عزيزي دكتور وليام أن الوالي لم ير أباه، فقد مات طوسون باشا والده، وهو طفل لم يبلغ الثالثة بعد. يعني طفل مأزوم حتمًا، فحرمان الطفل من الأب أو الأم يعني أنك زرعت في روحه مرضًا ما لا علاج له.

ستظل تعشق محمد علي باشا إلى نهاية عمرك يا نوبار بك، ومعك حق، فقد أهداك 30 ألف فدان في الفيوم، وكنت تعمل مترجمًا شخصيًّا له ثم صرت من رجال ابنه إبراهيم، وها أنت لصيق بحفيده الحاكم الثالث لمصر من أسرة محمد علي.. ومع ذلك، فأحوال الملايين الخمسة من المصريين مازالت بائسة، والفقر يطحن عظام الناس، والمرض يلتهم أجسادهم النحيلة، والخرافة تسطو على عقولهم، فكيف تصف الباشا الأول بأنه طوّر البلاد؟ وفجأة قفز إلى ذهني هاجس مخيف.. ماذا لو علم نوبار بك أنني أخفي عليوة في اللوكاندة التي أملكها بدرب قرمز؟ هل سيبلغ عني ويستلم المكافأة؟ أم سيحفظ السر وينقذني من بطش الوالي؟ وقررت إحراجه ربما بسبب دفاعه الدائم عن محمد علي وأسرته، وأنا لست من المغرمين لا بالباشا الأول ولا بالباشا الثالث، وقلت بنبرة ذات مغزى:

- لكن الوالي وافق على منح كل فرد من أسرة محمد علي نصف مليون جنيه إسترليني نصيبهم من إرث والدهم!

فتألقت عيناه البنيتان بالدهشة، ورمقني بتركيز، وهو يتساءل بسرعة:

- كيف عرفت؟

فابتسمت، وقبل أن أجيب قال ضاحكًا:

- آه... من يكن صديقًا حميمًا للقنصل الإنجليزي مثلك، فلن تخفى عنه خبايا القصور وأسرارها.

وبعد أن تفحصت جسده سريعًا أعطيته الدواء اللازم لعلاج مشكلات الهضم والمعدة، وقبل أن يغادر دعاني وزوجتي لنقضي معه سهرة الخميس في داره بشبرا.

* * *

رفضت مرجريت قبول الدعوة والذهاب معي، وقالت باقتضاب دون أن تنظر إليّ أو ترفع عينيها عما تقرأ:

- لن أستطيع.

واضح أن رنين صمتها يزداد ارتفاعًا في الأيام القليلة الماضية، وواضح أيضًا أنها تتهرب مني بأكثر من حجة. ولأني أعرف أنها تلجأ إلى الصمت أحيانًا؛ خاصة عندما تغزوها الدورة الشهرية، فقد تركتها تستمتع بصمتها فترة، لكن الصمت هذه المرة طال أكثر مما ينبغي، فتأملتها وهي مستلقية على الأريكة المقابلة للسرير في غرفة نومنا وسألتها، بعد أن بدلت ملابسي، وهي منهمكة في قراءة مسرحية شكسبير (الملك لير):

- ما الحكاية يا حبيبتي؟ أشعر أنك عازفة عن التعامل معي. وأمس حين حاولت احتواءك في صدري، نفرت بعصبية، وزعمت بأنك متعبة، وأنا أعلم أنه لا تعب هناك بالمرة!

فلم ترد ولم تنظر إليّ وواصلت القراءة كأنني لم أتكلم. آه من النساء وتقلباتهن. أعرف أن المرأة أسيرة تناقضاتها التي تفتك بأعصابها، وأنها ضحية تشوش دائم في جهازها النفسي، وأنها لا تلين بسهولة، ولا تسترد عافيتها النفسية بيسر إذا اعتراها عطب، فما العمل؟ وقد مرّ أكثر من أسبوع ومرجريت ترفض تجوالي ببستان أنوثتها، رغم أنها لم تهجر غرفة النوم، ورغم أنها تعلم جيدًا، أنني لا أحتمل الحرمان من مشمشها الشهي أكثر من ثلاثة أيام متواصلة. وكم شرحت لها مرارًا أن حاجة الرجل إلى الجنس أمر حيوي جدًّا، ويكاد يتدفق نهرها شلالًا كل مساء، إذا كان في مثل عمري الذي تجاوز الأربعين بقليل. وأذكر أيضًا تعليقها المميز آنذاك: (مساكين أنتم أيها الرجال، لن تصفو لكم الحياة دون أن نحتويكم في أحضاننا نحن النساء)، وأيدتها تمامًا وقلت لها مؤازرًا: (المرأة للرجل مثل المياه للكائن الحي، من دونها يذبل ويضمحل)، وقلت أيضًا موضحًا: (المرأة شجرة وارفة يستظل بها الرجل من قيظ الأيام). وسألتني مستفسرة: (وماذا في حوزة الرجل ليعطيه للمرأة)، فقلت بإخلاص: (الرجل يهبها الحنان والأمان، وهما أهم وأجمل مطلبين لأي امرأة، كما أنه يمنحها السعادة والاستقرار)، فوافقت وأيدت، فلماذا تمنعني اليوم عن تذوق فواكه جسدها؟

التفتُّ وقلت لها بنبرة حادة:

- مرجريت... من فضلك اتركي شكسبير وملكه وبناته جانبًا وأجيبي عن سؤالي؟

فوضعت الكتاب على الأريكة، ورنت لي بعينيها الزرقاوين الساحرتين لحظات، ثم

نهضت وغادرت الغرفة بهدوء دون أن ترد عليّ. انفجر بركان غضب في عروقي، إلا الإهمال وعدم الاحترام يا مرجريت. تخطئ المرأة كثيرًا، لكنها لا تدرك حجم هذا الخطأ ومدى تأثيره على الرجل. وهممت بأن أتبعها وأوقفها بالقوة، وأطلب منها بالأمر أن تفسر لي تصرفاتها الغريبة، لكن ظهور بسيمة المفاجئ عطل قراري، إذ نادت وهي تقف بباب غرفة النوم:

- أبي... متى سنزور أبا المكارم؟

فكظمت غيظي وأنا أتابع ذبول صوت خطوات مرجريت تدريجيًّا وهي تهبط درجات السلم، ثم لمحت فراشات اللهفة ترفرف حول عينيّ بسيمة، فأشفقت عليها قائلًا:

- ليس الآن يا حبيبتي، فيما بعد، أنسيت الشاب الذي أمسكوا به وزعموا أنه أبو المكارم؟ الأجواء الآن متوترة جدًّا، والأفضل ألا يزوره أحد حتى يظل متنعمًا بالأمان!

- ولكن يا أبي... بقاؤه وحيدًا فترات طويلة سيدمر أعصابه!

فرمقتها بإعجاب، وقلت لنفسي: (كبرت بسيمة، ومسّها القلق اللذيذ للحب)، وقلت أيضًا: (يبدو أنها اكتسبت هذه الرقة الناعمة من معاشرتها لمرجريت، ولكن متى عرفت القسوة الطريق إلى قلب زوجتي؟)، وضممت بسيمة إلى صدري بحنان ولثمت جبينها محاولًا تهدئتها:

- لا تقلقي يا بنيتي... سنتدبر وسيلة لزيارته في أقرب فرصة.

فتألقت عيناها بالمحبة وهمست:

- شكرًا جزيلًا يا أبي.

فطمأنتهابنظرات حانية من باب جبر خاطرها فقط، لأنني قررت ألا أزوره قريبًا!

* * *

هجرت مرجريت غرفة النوم.

للمرة الأولى لم تقتسم معي السرير.. لم تنم بجواري. اختارت المبيت مع بسيمة في خطوة فاقمت من غضبي واستفزازي. تجاهلت تصرفها وتمالكت أعصابي، وقضيت ليلة سخيفة بمفردي مع برودة الشتاء، والمرأة سيدة هذا

الفصل بامتياز، فهي منبع الدفء واللذة،فكيف هان أمري عليك يا حبيبة القلب؟ وكيف احتملتِ قضاء ليلة شتوية، دون أن تغمريني بعطرك الفوّاح، وكيف زارك طائر النوم دون أن أمطرك بمياه حناني؟ ألم تتعلمي شيئًا من قراءة شكسبير؟ ألم تفهمي بعد نفسية الرجل ومدى احتياجه لزوجته؟ ألم تلاحظي أن الاهتمام جوهر نجاح العلاقة الزوجية، فكيف هان أمري عليك يا أنيسة الروح؟ ومتى تدركين أن سريرًا دون امرأة هو العذاب المهين لأي رجل؟

في الصباح توجهت نحو عملي، دون أن أتناول إفطاري. لم تكن مرجريت موجودة لتشرف على إعداد المائدة كعادتها كل صباح، فزاد غيابها من استفزازي وحنقي عليها. ولما سألتني أم السعد وهي أمام المطبخ كالحارس الأمين: (ألن تتناول إفطارك يا دكتور؟)، نفيت بحركة من رأسي، وغادرت سريعًا.

في العيادة طلبت من أم خديجة أن تبتاع الطعام من سوق الغورية لتجهز إفطارًا شهيًّا لجميع العاملين، فأنا معتاد فعل ذلك بين الحين والحين، فالقائد الناجح يجب أن يبدو بسيطًا مع مرؤوسيه، ويشعرهم بالمودة، وليس سوى التجمع وتناول الطعام معهم ما يمنح الجميع إحساسًا بالطمأنينة والمحبة تجاه رئيس العمل، فيبهج صدورهم ويتقنوا عملهم أكثر ويصبحوا له مخلصين. في أثناء الإفطار تبادلنا أحاديث عامة عابرة حول غلاء الأسعار، الذي فاق كل تصور والترحم على أيام محمد علي، ومتى ستصل الأجهزة الطبية الحديثة التي طلبتها من لندن.بعد الإفطار استأذن بدر الدين في مقابلتي، ودخل حجرتي بتردد وسألني بدهاء مستتر:

- يا دكتور وليام... معذرة، متى سيعود أبو المكارم من إجازته؟ لقد مضى عليها أكثر من أسبوعين. وبصراحة القلق يعتريني بشأنه!

كذوب وخبيث هذا الشاب، فالسؤال ليس بريئًا، ونظرات عينيه يملؤهما المكر والرغبة في الإيذاء. وأمس نقلت لي ڤيرجينيا عنه أنه أخبرها أن أبا المكارم لن يعود، وأنه يشك في أمره فأثارت مخاوفي. وانبثق في عقلي قرار: يجب أن أتخلص من بدر الدين هذا في أقرب فرصة.. هززت كتفي باستهانة، وقلت له بنبرة محايدة:

- لا أدري، الغائب حجته معه كما تقولون يا بدر.

ونهضت من مجلسي وتوجهت نحوه وأنا أتأمله. البالطو الأبيض النظيف والوجه الخمري والأنف الدقيق والعينين السوداوين الضيقتين واللحية المشذبة. وقلت لنفسي رغم ذكائه ونظافته ومهارته، سأطرده، فليس من عادتي الاحتفاظ بالحاقدين والخبثاء. ثم باغته بسؤال لإرباكه وإحراجه، وأنا أسدد بصري نحوه

واضعًا راحتي اليمنى على كتفه:

- هل غيابه يؤثر في استمرار العمل في العيادة بشكل جيد؟

فدافع عن نفسه ومكانته ودوره على الفور وهتف:

- أبدًا... أبدًا يا دكتور، فالعمل يسير بكفاءة ممتازة تحت قيادة حضرتك والحمد لله، وأبو المكارم لم يعمل معنا سوى أيام قليلة، وغيابه لم ولن يؤثر أبدًا، لكني فقط أتساءل إذا كا...

وتوقف عن الكلام عندما سمعنا طرقًا خفيفًا على الباب، فإذا بها مرجريت بكامل أنوثتها ورقتها، وخلفها برقوق بهيكله العملاق حاملًا صينية الطعام، فدقّ قلبي طربًا وفرحًا وغمرني نهر من السرور. وتذكرت ما كان يشرحه لنا أستاذ المسرح في جامعة أكسفورد (أفضل طريقة لكسب ود المرأة أن تعاملها كطفلة مدللة، لم تتجاوز ثماني سنوات، مهما بلغ عمرها، ومهما بلغ حظها من العلم والتعليم)، وأكد لنا أيضًا (أن الطفلة في حاجة إلى تدليل دائم وصبر ذكي على تصرفاتها المتناقضة لتفوز بحبها واهتمامها، فلا تنسوا أبدًا أن أية امرأة إنْ هي إلا طفلة صغيرة). تذكرت هذا الكلام، ونحن نسير معًا في اتجاه شاطئ النيل. مرجريت بالمعطف البني فوق الفستان الأصفر والقبعة الزرقاء، وأنا ببدلتي الكحلي ورابطة العنق الحمراء وقبعتي السوداء.

خرجنا من العيادة واخترقنا الطريق إلى الغورية فدرب الجماميز حتى وصلنا إلى الأزبكية، ومنها انعطفنا نحو بولاق، لنتناول غداءنا في مطعم باريس الذي افتتح مؤخرًا مقابل ميناء بولاق. الشمس ساطعة جريئة دافئة، ونسمات البرد منعشة غير مؤذية، ومتابعة النشاط الدائم للمصريين متعة كبيرة، فهم في حركة دائبة، يمارسون أعمالهم الشاقة برضا وإصرار، ويواجهون قسوة الحياة وشح الموارد بالاتكال على الرب والنكتة اللطيفة، ويتعاملون مع دوابهم بمحبة طاغية، كأنها أشقاء أو أبناء لهم.

غادرنا العيادة بعد عتاب قصير؛ حيث ألمحت لي أنني أهنتها وصرخت في وجهها مرتين خلال فترة وجيزة، عندما نبهتها إلى أن (اسمه أبو المكارم)، وأنها تغاضت عن اتخاذ موقف في المرة الأولى، لكنها لم تحتمل زجري لها أمام عليوة وبرقوق وبسيمة في المرة الثانية. سمعت عتابها باهتمام ونصيحة أستاذنا في المسرح ترن في أذني؛ كي تربح قلب المرأة عاملها كطفلة مدللة. ولأني كنت في أمس الشوق لاحتضانها، فقد قدمت اعتذاري سريعًا كرجل إنجليزي مهذب، مبررًا عصبيتي بتفاقم مشكلة عليوة، وكيف أن الخوف من الوالي كان يرافقني، ومازال، بسبب إيوائي لهذا الشاب. على الفور لانت وابتسمت، وأهدتني قبلة

رقيقة في فمي. كدت أجن لأحتويها في صدري وأشرب جسمها الثري في العيادة، لكني تماسكت وأجلت الفرح بالحب إلى عودتنا من سهرة نوبار بك الليلة.

* * *

في شبرا استقبلنا نوبار بك وزوجته على مدخل دارهما الفخمة المقامة، وسط حديقة كبيرة منسقة بعنايةوعامرة بأشجار التوت والليمون وأحواض الزهور وقليل من النخيل. وخيرً افعل برقوق فقد قاد العربة بتمهل بناء على أمر من مرجريت لتستمتع برؤية النيل ساعة المغيب. وبالفعل النيل في مصر بالغ السحر في تلك الساعة. أجل... هذه هي المرة الأولى التي أزور فيها نوبار بك في داره، حيث بدا لي أنه مغرم كثيرًا بالأبهة والجمال، وأنه ينفق بسخاء على تزيين داره بكل ما هو جميل ونادر ونفيس، فقد ازدانت بالأثاث الفخم والأرائك المريحة والسجاد العجمي والثريات الضخمة واللوحات الزيتية. كما تألقت زوجته الجميلة في فستان أخضر رقيق، تاركة شعرها الأصفر الطويل الناعم ينساب على كتفيها مناصفة، فبدت كلوحة آسرة من عصر النهضة.

كنت أعرف أنه تزوج قبل عامين أو ثلاثة، وكم دعاني لزيارته لكن الظروف حالت دون تلبية الدعوة. وقد أهدت زوجتي السيدة قرينته طاقم أدوات مائدة فضية ابتاعته من مزاد بلندن، واختصرت ضاحكة:

- معذرة... هدية متأخرة.

فأشرقت عينا زوجته، العروس سابقًا،فرحًا وسرورًا، واصطحبتها لتطلعها على غرف الدار وتصميمها وأجمل مقتنياتها، أما نوبار بك فقادني نحو ركن في القاعة الرئيسة بجوار البار. جلسنا متقابلين بحميمية كأننا صديقان قديمان، وشرع خادم أسود في إعداد المائدة بالخمور والمقبلات والكؤوس، لكني رجوت صاحب الدار أن يأمر خادمه باستقبال برقوق في جناح الخدم؛ حتى لا يبقى وحيدًا في حديقة الدار، فوافق وابتسم وقال متسائلًا:

- هل كل الأطباء طيبو القلب مثلك يا دكتور؟

فابتسمت، لكنه عاجلني بسؤال أربكني:

- صحيح... ما رأيك في عليوة الهارب؟ ألم تكن مسؤولًا عن علاجه قبل هروبه؟

فتناولت كأس النبيذ لأعطي لنفسي وقتًا أطول للتفكير في الرد، وبعد أن

احتسيت رشفة سألته:

- ماذا تقصد بالتحديد؟

- أبدًا... هل هو شاب ذكي فعلًا وقادر على خداع الحراس والفرار من القصر؟ هل تعلم أن الناس تمسك شابًّا نحيفًا كل فترة وتزعم أنه عليوة، ثم يهرعون به إلى أدهم بك مدير القصر فيتفحص وجهه مع الحراس والطباخين، ليعلنوا أنه ليس الشاب المطلوب. لقد جنّ الناس بالمكافأة المنتظرة، ويبدو أن الوالي لن ينسى من استخف بأوامره أبدًا، وسيصل إلى عليوة حتمًا!

سمعته بتركيز شديد، وقلت له بعد أن استعدت توازني:

- لم أعرفه جيدًا، فأنا لم أتعامل معه إلا قليلًا، وإن كنت أختلف معك، فقلة من المصريين هم الذين يسيل لعابهم على المكافأة، أما الغالبية فستعمل على إخفائه إذا لجأ إليهم عليوة، لأن بداخلهم غضبًا تاريخيًّا مكتومًا تجاه الحكام بسبب ظلمهم وبطشهم، وأية فرصة تتيح لهم الانتصار على الحاكم، مهما كانت بسيطة، سيقدمون على انتهازها بحماسة كبيرة!

- من المؤكد أنك تتعاطف مع المصريين، وأنا أيضًا أتشارك معك في هذه العاطفة، لكني أرى أنهم غير مؤهلين بعد للقيام بأعمال كبرى أو مشروعات جماعية.

- لا أظن يا عزيزي نوبار بك، المصريون مهرة وأذكياء ويملكون طاقات جبارة على العمل والإبداع والابتكار، لكن حظوظهم شحيحة، فحكامهم أجانب دائمًا لا يثقون بهم أبدًا، ويمنحون الأجانب من بني جلدتهم المناصب القيادية على الدوام، فحتى هذه اللحظة لم يصل رجل مصري واحد إلى منصب ناظر؛ أي وزير منذ مئات السنين. أما بقية الملايين من الفلاحين المصريين فهم عمال بالسخرة لدى الحكومة، أي بلا أجر كما تعلم، فضلًا عن الضرب بالسوط لمن يتباطأ أو يحتج. ومن أسف فإن التاريخ يقول لنا إن المصريين لم يحكموا أنفسهم أبدًا منذ قرون، وأن الغزاة هم الذين يقبضون على السلطة في هذا البلد ذي الخيرات الوفيرة، ويعاملون المصريين بوصفهم عبيدًا لهم.

فغمغم موافقًا، ومضى يحسو كأسه برفق وتلذذ، بينما لاحت مني نظرة على لوحة ضخمة منفذة بألوان الزيت تحتل الجدار المقابل لجلستنا، تصوّر نابليون بهيبته وكبريائه وهو يمتطي فرسه، فأدركت بشكل واضح جدًّا أن نوبار بك مفتون بالقادة الأقوياء، بغض النظر عن قسوتهم وعنفهم وطموحاتهم الملوثة بالدم. ووجدتني أسأله من باب الفضول:

- اسمح لي نوبار بك... أنا أغبطك، فأنت محظوظ، لأنك عشت قريبًا جدًّا من الحكام الثلاثة لمصر محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا وحفيده الحاكم الحالي الوالي عباس باشا... فما أبرز الفروق بينهم؟

فلمعت عيناه انتشاءً بالمديح، وشرد للحظات كي يستجمع من الذاكرة خيوطها الهاربة، وقال بعد أن أفرغ ما بقي من نبيذ في جوفه:

- الوالي الكبير، وأعني محمد علي باشا، كان شخصية فذة وقائدًا عظيمًا، ولعلك تعرف أنني هبطت أرض مصر للمرة الأولى قبل اثني عشر عامًا، وبالتحديد في سنة 1842، وعمري سبعة عشر عامًا فقط، وقد ساعدني خالي بوغوص بك غفر له الرب، وهو ناظر المالية والشؤون الأفرنجية لمحمد علي، على الانضمام إلى فريق العمل مع الوالي، فعُيّنتُ مترجمًا له، وأشهد أن محمد علي كان ذا عزيمة فولاذية تتكئ على رؤية عصرية، أخرجت مصر من الظلمات إلى النور، لدرجة أن السلطان العثماني كان يعمل له ألف حساب، ولعل استقلاله بمصر تمامًا بات على وشك الحدوث، لولا تحالف قوى أوروبا ضده وهزيمته وإجباره على توقيع اتفاقية لندن عام 1840؛ ليخرج من بلاد الشام كما خرج من اليونان من قبل، ويقنع بحكم مصر والسودان فحسب، أما ابنه إبراهيم باشا فكان قائدًا عسكريًّا ممتازًا، لكنه ديكتاتور قاس وعنيف لا يتورع عن قتل أقرب الناس إليه، إذا رأى ذلك ضرورة لتعزيز سلطاته ونفوذه، بينما الوالي عباس باشا...

ثم سكت ومرت على جفنيه غمامة يأس مؤقت، ورمقني بتركيز ليتأكد من أن حماستي للإنصات لم تفترومازالت متأججة، فأشرت له برأسي أن يكمل، فقام وملأ الكأسين بالنبيذ ومضى يقول:

- مشكلة الوالي عباس تكمن في طبيعته النفسية المعقدة وميوله الغريزية الشرسة، فقد أمر مرة بخياطة فم إحدى وصيفاته؛ لأنها تجرأت على التدخين في جناح الحريم مخالفة أوامره الصارمة. إنه شخص انعزالي، يشك في الجميع، لا يعرف كيف يستوعب الآخرين حتى لو كانوا من أفراد أسرته، فلوّث سماء البلاد بالرعب والخوف، كما أنه يقارن نفسه عادة بما حصل عليه جده من الاستقلالية عن الباب العالي، الأمر الذي يعذبه، لأن السلطان العثماني يضغط عليه كثيرًا ويفرض عليه التبعية الكاملة تقريبًا لإستانبول. تخيل أنه ليس من حقه التصديق على حكم الإعدام إذا صدر بحق أحد المجرمين! وأن هذا الحق مخوّل للسلطان العثماني فقط! وأنه لا يستطيع إبرام أي اتفاقية مع أي دولة أوروبية لتشييد مشروع ما، مثل إنشاء خط سكة حديد؛ لأن الاتفاق على تأسيس مشروعات كبرى في مصر أضحى من اختصاص الباب العالي! رغم أن إنشاء خط سكة حديد سيجلب الخير لمصر؛ لأنه سينقل الناس والبضائع والأفكار والأخبار والتقنيات

والخبرات بصورة أكثر سرعة وأمانًا. بصراحة يجب أن ينتهي عصر الدواب في مصر.

ثم مال بجذعه كثيرًا حتى كادت أنفاسه تختلط بأنفاسي، وهمس كأنه يبوح لي بسر خطير:

- دكتور وليام... هذه التبعية المهينة للسلطان العثماني هي ما تمزق عباس تمزيقًا، فاستعان بالإنجليز ليعاونوه على الوقوف ضد تسلط الباب العالي، واضطر في النهاية إلى رفع الجزية التي تدفع لإستانبول إلى 400 ألف جنيه سنويًّا ليحظى بقدر من الاستقلال!

فتعجبت من هذه المعلومة، ويبدو أن ملامحي أبدت امتعاضًا ما، فسألني:

- ما بك؟ ألا يستحق استقلال مصر أن نبذل له الغالي والرخيص؟ ألا تنعم مصر الآن بأمان لم يحدث طوال تاريخها؟ لقد حقق عباس قفزة كبرى في ضبط الإدارة والاقتصاد والأمن، حتى لو تم ذلك بقبضة من الحديد. إذًا دفع أي مبلغ من أجل استقلال مصر أمر مشروع.

فاستعدت ابتسامتي الهادئة وقلت:

- أبدًا يا عزيزي نوبار بك، إنك تقصد استقلال الوالي، وليس الوطن أو الناس. المشكلة أن الغالبية العظمى من المصريين مازالت تكابد الثالوث البائس المتمثل في الفقر والجهل والمرض بعكس ما تقول، بينما الوالي يبدد ثروة البلد على قصوره ورشاويه للباب العالي، ثم أن...

فقاطعني ضاحكًا وهتف:

- آه يا دكتور... يبدو أنك تأثرت كثيرًا بالبيان الشيوعي الذي أصدره ماركس وإنجلز قبل ستة أعوام وأربكا به عقل أوروبا، وأثارا حفيظة التجار وأصحاب المصانع الكبيرة والصغيرة، صحيح أنه بيان مهم ولافت، ولكنك تنسـ...

فقاطعته موضحًا:

- أبدًا أبدًا... الأمر لا يتعدى طبيعتي المنحازة دومًا للفقراء والمساكين، وأنني أرى أن الفقر ليس قدرًا، وإنما نتيجة سياسات خاطئة وجشعة يمارسها الحكام، كما أنني أحاو...

واقتحم جلستنا ثلاثة من الخدم، ومعهم برقوق وصاحوا في نفس واحد تقريبًا:

- مولانا الوالي وصل... مولانا وصل!

فبهت نوبار بك واصفرّ لونه في لحظة وهرع نحو الباب، ووقفت حائرًا ينتابني اضطراب غامض، وبحثت عن زوجتي بعينيّ لأقتبس منها بعض الأمان فلم ألمح لها أثرًا، فتفاقم شعوري بالقلق وتشوش تفكيري. ودخل عباس باشا القاعة بهيلمانه وملابسه الرسمية محاطًا بمجموعة من حراسه الأرناؤوط، وبرفقته قنصلنا السيد تشارلز مري. ابتسم الوالي حين رآني وصافحني باحترام وهتف:

- أووووه... دكتور وليام هنا... مفاجأة جميلة يا نوبار.

وقال القنصل من باب المجاملة:

- نوبار بك يعرف كيف ينتقي أصدقاءه.

فرسمت ابتسامة شكر مقتضبة على وجهي، وقبل أن أرد المجاملة بأحسن منها، صاح الوالي وهو يسدد سبابته في وجهي، دون أن يفقد بسمته:

- أبشر... قريبًا جدًّا سنصل إلى مكان الفلاح الهارب ونمسك به، وسأستدعيك لتراه بنفسك وتتأكد يا دكتور.

ثم اختفت ابتسامته فجأة عندما رجاه صاحب الدار أن يتفضل بالجلوس، فرفض بإشارة من يده، وقال له بنبرة جادة محشوة بالغطرسة:

- يا نوبار... لقد استغنيت عن خدماتك لي هنا في مصر، وعينتك وكيلًا لأعمالي وتجارتي في ڤيينا، ولا تنس أن والدك كان وكيل أعمال جدي الباشا الكبير في باريس!

ومدّ راحته اليمنى نحو نوبار، الذي انحنى قليلًا ولثمها بأدب شديد، ثم غادر الوالي سريعًا دون أن يصافح أو يسلم على أي أحد آخر، وتبعه القنصل والحراس ونوبار، ووقفت وحيدًا حائرًا لا أعرف ماذا أفعل، كأن عاصفة هوجاء غزت الدار للحظات، مخلفة وراءها الفوضى والتوتر والدمار. وعاد نوبار بمفرده مكسوًا بالكآبة والضيق، ثم ألقى بجسده على الأريكة واضعًا رأسه بين راحتيه في حالة يأس شديد، أما أنا فاعتراني الذعر وشعرت أن معدتي امتلأت بالتراب والحصى!

* * *

مرجريت براون

حرمنا الوالي من قضاء ليلة ممتعة أمس بتهديده وغمزه ولمزه، فالخوف يطفئ نور الإحساس، والرعب يفسد وردة القلب، والذعر يقتل براعم الحب. لم أر الوالي، فقد ظهر فجأة في دار نوبار بك ولم يمكث سوى دقائق معدودات، وحين بلغنا خبر وجوده ونحن في الطابق الأعلى، كان عباس قد ذاب مع حراسه في ليل القاهرة. لم يحتمل صدر وليام التهديد الكامن في كلام الوالي، فأباح به ونحن مستلقيان على السرير..

كنت أمنّي نفسي بلقاء ساخن دافئ ممتع، فجسدي يناديه بأقصى شهوة، وقد حاول بالفعل، لكنه أخفق في الاستجابة لحرارة مشاعري، ورغم أنني دللته وقبلته واحتضنته بنهديّ، إلا أن الشلل اعتراه، فلم ينهض ولم يشتعل ولم يتفجر بالقوة التي أحلم بها، وخجل وليام من نفسه، فلثمت خده وواسيته: (لا عليك... الخوف يقتل الإحساس)، فسألني على الفور: (وأنت... ألست خائفة؟). فقلت دون تردد: (وأنت بجانبي... لا يستطيع الخوف أن يمرّ ببابي أو يؤذي أعصابي)، فنظر إلى السقف وهمس بضيق: (نحن إنجليز... يجب ألا نستسلم للخوف من عباس، أرجو ألا ننسى ذلك أبدًا؟)، وحاولت التخفيف عنه فتساءلت ضاحكة: (هل تحول عباس إلى عفريت يطرد المسرّة من غرف النوم؟).

أمطار غزيرة تهطل على القاهرة منذ الفجر، والرعد يشيع القلق في النفوس ويطارد عصفور النوم في الجفون. وتذكرت ليالي الصقيع في لندن، وقلت لا أصعب من الاضطرار إلى إزاحة اللحاف في هذا البرد. تحسست بيدي أستدفئ بجسد وليام فلم أجده. الخوف لا يقتل الحواس الجميلة فحسب، بل يحرم المرء من النوم الهانئ. مسكين يا حبيبي. وفكرت للحظة، ماذا لو تخلى عن عليوة؟ ألا يمنحنا ذلك السكينة الضائعة، بدلًا من أجواء الرعب التي تحوم حولنا منذ أسابيع؟ وقررت أن أطرح عليه الفكرة، ثم تراجعت وأنا أغسل وجهي في الحمام. وليام لا يتخلى عن مظلوم. ولا يغدر بمن استغاث به.

عندما هبطت إلى الطابق الأرضي، فوجئت ببسيمة متكومة على الأريكة الكبيرة في الصالة، وقد وضعت راحتها على خدها، وهي في حالة شرود غريب. اعتراني قلق، فلما ألقيت عليها تحية الصباح، جفلت للحظة، ثم بادرتني بسؤال بعد أن ردت التحية:

- يا أمي... سألت أمس المقدّس بولس أثناء حصة الدين المسيحي: هل لي أن أترنم بآية تعجبني في الكتاب المقدس فأقوم بتلحينها وعزفها على البيانو؟ فابتهج وشجعني وأخبرني بأن الملك داود، وهو نبي أيضًا كما قال، قد عزف نحو

150 مزمورًا كلها مدوّنة في العهد القديم بالكتاب المقدس، وأضاف حضرته أن كثيرًا من المؤمنين يلحنون ويعزفون على العود آيات وأسفارًا كاملة، كما أن المسيحيين في صعيد مصر وقراها الذين لا يملكون عودًا ولا يعرفون البيانو يعزفون الأسفار والإصحاحات والآيات بنغم جميل على الربابة، وسيأتي لي بواحدة منها الحصة القادمة.

- جميل... جميل جدًّا يا حبيبتي.

فلم تفرح بإشادتي، بل زمت شفتيها وقالت، والحيرة تنهمر من حروفها والعجب يغمر روحي:

- ولكن عندما سألت الشيخ عبد الغفور أثناء حصة الدين الإسلامي السؤال نفسه غضب ورفض بشدة وهتف: هذا حرام حرام. فلماذا يا أمي؟ أليست كلها آيات من عند الله الواحد، رب الأديان كلها؟

فابتسمت وضممتها إلي صدري برفق وأخبرتها أن تنتظر حتى تنتهي من دراسة الأديان الثلاثة وتكبر قليلًا، وسوف تهتدي بنفسها إلى الإجابات والأسباب التي تحيرها الآن، ثم طلبت منها أن تسبقني إلى المطبخ لتساعدني في إعداد طعام الإفطار، ففعلت وقد استردت بسمتها الجميلة. لمحت وليام من ظهره في غرفة الأنغام، فتوجهت نحوه، وفوجئت به يطالع (البيان الشيوعي) الذي ابتاعه من لندن قبل عدة سنوات، ألقيت عليه تحية الصباح، وسألته متعجبة تسبقني ابتسامتي التي يحبها كثيرًا كما يقول عادة:

- ماركس والشيوعية في الصباح الباكر... هل هذا معقول؟

فأشار بيده أن أدنو، فانحنيت قليلًا لأصير قريبة من شفتيه، فمنحني قبلة شكر على خدي الأيسر مرفوقة باعتذار رقيق عما حدث أمس، أو عما لم يحدث أمس إذا شئنا الدقة، ثم قال بسرعة كأنه يغيّر الموضوع:

- ذكّرني به نوبار بك الليلة البارحة، فأردت استعادة أبرز أفكاره.

فضحكت بصوت عال وقلت له:

- بسيمة هناك غارقة في الأديان وعلاقتها الملتبسة بالموسيقى، وأنت هنا تصادق ماركس ونظرياته الجريئةحول المجتمع وصراعاته. يبدو أن دارنا باتت مأوى للفلاسفة والمفكرين!

ثم تذكرت زوجة نوبار وقلت بسرعة، والفرح يتراقص في صدري:

- تصور يا حبيبي... زوجته لا تتعاطف مع السيدة كاثرين أيضًا، ولا تطيق التعامل معها. ألم أقل لك إن زوجة تاجر الخمور هذه امرأة مزعجة غير مريحة بالمرة، ولما عرضت عليها بضاعتها من المجوهرات رفضت الشراء منها، وتوقفت عن التعامل معها تقريبًا.

فعلّق مؤيدًا، ولكن بنبرة محايدة:

- معك حق يا حبيبتي... كاثرين هذه تاجرة جشعة ورخيصة، مثل زوجها بيل تمامًا.

إنه يجاملني، فباله مشغول، أعرفه من نبرة صوته، إذ تخلو من الحرارة المعهودة. ومع ذلك... المجاملة أمر لطيف نحتاج إليه بين الحين والحين، وأستأذنته في الإشراف على إعداد طعام الإفطار، وتركته مع ماركس وأنجلز وتوجهت نحو المطبخ، وطلبت من أم السعد أن تقلي حفنة من بيض البط فهو يعشقه بالزبدة، وفاجأني برقوق وهو يقبل علينا مبللًا بماء المطر حاملًا جعبته، وراح يجفف نفسه ويستخرج الصحون الفارغة من الجعبة، ويصيح بصوته الناعم:

- الحارات والأزقة والعطوف كلها غارقة في الطين يا سيدتي، وهناك بغلة انزلقت عند حارة خان جعفر عطلت الطريق والناس مازالوا عاجزين عن رفعها.

تعجبني طريقة برقوق في الكلام، فهو يتحدث بسرعة كأن الكلمات عبء على لسانه ينبغي التخلص منها فورًا، وقد ضحك وليام بشدة عندما بيّنت له ذلك مرة، وأثنى على ملاحظتي، ولاحظت عودة الشرود والحزن إلى بسيمة، فطلبت منها مساعدتي في إعداد المائدة لأشغلها عن التفكير في حبيب القلب البعيد. ولما اجتمعنا على مائدة الإفطار، قدم برقوق تقريرًا عن أحوال عليوة:

- دكتور وليام، أود أن أخبرك أني قمت بزيارة أبي المكارم فجر اليوم كما أمرتني، وأنه بخير، ولكنه اختنق بالوحدة كما قال لي.

- وهل يتناول كل الطعام الذي نرسله له؟

- يترك الكثير منه بكل أسف، ويزعم أن نفسه مصدودة تعاف الطعام!

فصاحت بسيمة بانزعاج:

- لِمَ؟ سينتابه الضعف ويتعرض للمرض.

فأشفقت عليها، وقبل أن أحاول تهدئتها بكلمة رقيقة، استأذنت في الانصراف دون أن تكمل وجبتها، فقررت أن أبدأ خطتي في بتر علاقتها العاطفية مع عليوة. فاستمرار هذا الغرام بقلقه وتوتره لا ينبغي أن يطول، فبسيمة تتعذب وتشقى، والحب لا ينمو أبدًا في مناخ الرعب، ثم إننا لسنا متأكدين بأنه حب، فربما كان عطفًا أو شفقة أو رثاءً لحاله. هكذا أقنعت نفسي حتى لا أشعر بالذنب، إذا ما أقدمت على بتر العلاقة واقتلعتها من جذورها نهائيًّا.

استأذنت من وليام في الصعود إليها؛ كي أزيل التوتر والقلق من نفسها قدر المستطاع، وكي أساعدها أيضًا في مراجعة دروس التاريخ والجغرافيا قبل قدوم المدرس. وبالفعل نجحت إلى حد كبير في مهمتي. ثم أخبرتني أم خديجة بوصول المدرس، فنزلنا الدرج واستقبلته في الصالة بترحاب، فبادرني قائلًا:

- بسيمة تحقق تقدمًا ملحوظا في استيعاب الدروس، والفضل يعود لحضرتك ولاجتهادها.

فشكرته، فأضاف بجدية:

- سأخصص الأسابيع المقبلة لدراسة تاريخ السلطنة العثمانية وجغرافيتها، كما كان مقررًا على زملائها الذكور في المدارس قبل أن يغلقها الوالي.

فتعجبت وقلت له بحسم:

- يا أستاذ... يا أستاذ... بسيمة مصرية وحضرتك مصري، ونحن في مصر، فما دخل السلطنة العثمانية في الموضوع؟ عليك مشكورًا أن تشرح أولًا تاريخ مصر وطبيعة أرضها ومواردها. يهمني جدًّا أن تدرس ابنتي تاريخ بلادها، فهذا حق لها وواجب عليك، وليس لي دخل بمناهج الوالي عباس أو السلطة العثمانية. أريد أن تعرف ابنتي تاريخ المصريين، بداية من الفراعنة وعهد الأسرات وما تلاه حتى يومنا هذا، ومرورًا بالبطالمة والفرس والرومان والعرب.

فاندهش المدرس، وهتف:

- بسم الله ما شاء الله يا هانم... حضرتك تعرفين تاريخ بلادنا جيدًا.

فشكرته، وأكملت:

- بعد أن تشرح لها تاريخ مصر بشكل واف، لا بأس من الإطلال على تاريخ الدولة العثمانية!

وربت كتف بسيمة وغادرت الصالة.

* * *

- يا خبر أبيض... مفاجأة غريبة جدًّا.

هكذا صحت وأنا أرى أندرو ابن عمي يدخل داري برفقة وليام ذات مساء. متى جاء من لندن؟ وكيف؟ ولماذا؟ أسئلة كثيرة ازدحم بها رأسي وأربكتني، وأنا أتأمل ملامحه التي تغيرت نسبيًّا منذ رأيته آخر مرة في لندن قبل خمس سنوات حين حضر لتقديم واجب العزاء عندما رحلت والدتي. لقدأكمل الثلاثين بكل تأكيد، فهو يصغرني بعامين تقريبًا، ومع ذلك فالريبة مازالت تطل من عينيه الزرقاوين الواسعتين مثلما كانت في الأيام الخوالي، وثمة آثار جرح على الجبين جهة اليسار. إنه من معارك البارات بلا ريب. صافحته بترحاب وسألته سؤالا روتينيًّا وهو ينزع معطفه الأسود:

- كيف أحوال عمي وزوجته وأشقائك؟

فقال باقتضاب:

- بخير، إنهم يرسلون لك سلامهم الحار.

وبادر وليام قائلًا بنبرة لا تخلو من سخرية بعد:

- أندرو يريد أن ينشئ محلًا للعب الأطفال هنا في القاهرة... تخيلي!

فتعجبت، لكن أندرو رمق وليام بنظرة ذات مغزى واندفع محتجًّا:

- يا دكتور وليام... رجاء افهمني... فكما قلت لك، إن محلات هاملز (Hamleys) هي التي تريد، وأنا مجرد مندوب لهم. وهذه المحلات كما تعرفون تأسست في لندن عام 1760، أي منذ قرن تقريبًا، وقد طوروا صناعة لعب الأطفال كثيرًا، ويبغون فتح أسواق لهم في كل مكان خارج إنجلترا، كما أن خط السكة الحديد الذي أسس حديثًا بين القاهرة والإسكندرية سينقل البضائع سريعًا وسيحفظها من التلف، فضلًا عن أن أرباح...

فقاطعه وليام هاتفًا:

- يا أندرو... أنت في مصر، يعني في بلد محروم من نعمة التطور بكل أسف، بلد منهوبة خيراته من قبل حكامه وحاشيتهم، بلد ليس به مصانع ولا مدارس ولا جامعات، والفقر الشديد سيد الموقف، والملايين يعملون في السخرة، والذين....

فقاطعه أندرو مستفسرًا باهتمام شديد:

- ما معنى العمل بالسخرة؟

- أي إن الحكومة تستخدم مئات الآلاف من الفلاحين لتنفيذ الأعمال مثل شق الترع والطرق وإنشاء السكك الحديدية وبناء الجسور والسدود والقناطر دون أجر يذكر، ثم يستخدمهم الولاة والباشوات وكبار القوم في بناء قصورهم ودورهم الخاصة الفخمة دون أجر أيضًا، ومن يعترض أو يحتج أو يتباطأ ينل نصيبه من الضرب بالسوط أي الجلد، وربما القتل!

ثم بنبرة تقطر أسى وسخرية:

- بلد لا يجد فيه الفلاح ما يسد به جوعه أو يستر جسده، فمن أين للناس بالأموال لاقتناء لعب أطفال؟

ولاحظت أن كلام وليام قد أزعجه كثيرًا، إذ مرت سحابة توتر فوق عينيه الزرقاوين، فتساءل أندرو متعجبًا وهو يوزع بصره بيننا:

- ما بال صحف لندن تحتفي بعبقرية محمد علي، كلما جاء ذكر مصر وتشيد بإنجازاته في أنه أسس بلدًا حديثًا... هل تكذب هذه الصحف؟

وامتد الحوار على العشاء حول دور محمد علي باشا في تأسيس دولة عصرية، وشاركتنا بسيمة بما درست دون أن تفتح فمها، ولكن الاهتمام بما يجري تجلى في نظرات عينيها، ومع ذلك أكلت القليل بشهية معطوبة، وأكد وليام أن محمد علي بنى وأنشأ مؤسسات ومشروعات تخدم مصالحه وأسرته فقط، ومع أن الشعب قد تلقى بعض الفتات من هذه المشروعات، التي انهارت كلها تقريبًا حتى قبل وفاته مثل الأسطول البحري والكثير من المصانع، فإن الأوضاع الحالية باتت أسوأ بكثير مما مضى، فالوالي عباس باشا لا يؤمن بالتطور فيما يبدو.وتساءل أندرو عن دور البعثات العلمية التي كان أرسلها تباعًا محمد علي باشا إلى أوروبا لتلقي العلوم والفنون والآداب، فكرر وليام ما يقوله لي باستمرار إن هذه البعثات لن تؤتي أكلها إلا بعد عشرات السنين؛ شريطة أن يتواصل التزاوج المشروع بين الموهوبين المصريين ومنجزات أوروبا، وأنه يكاد يزعم أن مصر لن تشهد تطورًا أصيلًا قبل أن يهضم الناس هنا أحدث المعارف، التي توصلنا

نحن إليها منذ اقتحمنا عصر النهضة قبل أربعة قرون تقريبًا، فالناس هنا لا تعرف شيئًا عن الدستور والأحزاب والبرلمان والقانون والجامعات وعلوم الفيزياء والكيمياء والطب والهندسة وفنون المسرح والأوبرا والرسم والنحت والصحافة، رغم يقينه التام بأن الرجل المصري إنسان ذكي جدًّا وطيب وقادر على التعلم والابتكار، إذا أتيحت له الفرصة ولم تحجب عنه أو يحجب عنها.

وعندما انتقلنا للجلوس في الصالة الرئيسة، طلب أندرو بقلة ذوق أن تزوّد المائدة بالويسكي، بعد أن قضى على قنينة كبيرة من النبيذ الأحمر بمفرده تقريبًا. وقال ساخرًا (النبيذ للمبتدئين)، ومضى يحكي عن أجمل وأبرز لعب الأطفال التي تعرضها محلات هامليز، وأن ثمة لعبة واحدة بيع منها نحو مئة ألف قطعة في أوروبا وحدها خلال ثلاثة أشهر، وأنهم بصدد افتتاح فرع لهم في الهند.

ولاحظت أنه يتجرع الكثير من الويسكي بشراهة، وكلما صب في جوفه كأسًا انبعثت من عينيه نظرات جائعة نحو بسيمة، فشملني توتر غامض، فقررت الانسحاب من الجلسة واصطحبت معي بسيمة إلى الطابق الأعلى بحجة أن وقت نومها قد أزف، لكنها اعترضت بحجة أنها تود الاستماع إلى أندرو وحكاياته عن لندن ومحل لعب الأطفال، فزجرتها بنظرة حادة من عينيّ، فغضت بصرها خجلًا وانصاعت. وبينما نصعد درجات السلم سمعنا طرقًا شديدًا على الباب، فتوقفنا لنستطلع الحدث وقلبي يخفق بشدة،ونهض وليام مفزوعًا وسار بخطوات قلقة نحو الباب، حيث هرع برقوق ليرى من الطارق المزعج، وإذا بأدهم بك يقتحم الدار، ويلقي بجوال على الأرض أمام وليام صارخًا:

- هذه خمسة آلاف فرنك أقدمها مهرًا لبسيمة، وقد طلقت زوجاتي الأربع في جلسة واحدة!

فارتمت بسيمة في صدري وتعلقت بعنقي وانخطرت في نشيج مكتوم!

* * *

الكل يطمع في بسيمة. عينا أندرو الجائعتان، وأدهم بك المخبول، ولما سألتها للمرة الثانية هل تقبلين بأدهم بك زوجًا؟ بكت وارتمت في حضني، وغمغمت بصوت دامع: (لن أتزوج إلا عليوة، فنحن متفاهمان ومتحابان ومتلازمان في عشق البطيخ، كما أنه يحب الموسيقى التي أعزفها). وهكذا أخفقت خطتي المزمعة في بتر علاقتها به حتى قبل أن تبدأ. وللمرة الأولى أشعر أنني مطالبة بحماية ابنتي أكثر من أي وقت مضى، وأنني سوف أحطم وأدمّر كل من يقترب منها أو يحاول إيذاءها.وقلت لوليام بعد ليلة عاصفة:

- ثم ماذا؟ ألا يفهم هذا المجنون؟ ألم نخبره قبل ذلك أن الصبية مازالت صغيرة، وأننا لا نوافق على الإطلاق أن يتزوجها رجل له زوجة وأبناء، وهو لا يكتفي بواحدة، بل بأربع!

فابتسم وقال لي، وهو يرتدي ملابسه استعدادًا للذهاب إلى العيادة:

- جنون الشهوة لا حدود له، وأدهم بك يشتهي الصغيرات. إن جميع القيم قد تسقط تحت قدمي الجنس!

- هذا من سوء حظها، ويبدو أننا معشر النساء لن نفهم أبدًا كيف تعمل الغريزة في عقولكم وأبدانكم أنتم أيها الرجال؟

فغمغم موافقًا:

- معك حق تمامًا يا حبيبتي، فغريزة الجنس قاهرة مدمرة، والرجل لا يندفع إلى القتل إلا بسبب ثلاثة: المال والسلطة والجنس!

فاعترتني رجفة قلق، وتساءلت:

- وماذا ستفعل؟ وجمال بسيمة أضحى نقمة عليها، فباتت هدفًا مرصودًا للجائعين والمهووسين من الرجال؟

فتحسس كتفي بحنان، ثم ضبط هندامه في المرآة التي تحتل الجانب الأيمن من الجدار المقابل للسرير، وترنم بكلمات هادئة تحمل رسالة اطمئنان أتوق إليهاكثيرًا:

- لا تقلقي يا حبيبتي، فأما أندرو، فقد أوضحت له أن ظروفنا لن تسمح باستضافته هنا ليلة أخرى، وطلبت من برقوق قبل قليل إيصاله للإقامة في أحد فنادق الأزبكية، وأما أدهم بك، فلا حل أمامي سوى إبلاغ القنصل تشارلز مري بجنونه المرذول وتصرفاته الصبيانية، ليخبر بها الوالي فيرتدع ويبتعد عنا بأمواله ومطلقاته!

ومضى إلى عمله بعد أن أهداني قبلة ناعمة ملونة على خدي الأيسر، منحتني قدرًا كبيرًا من السرور والأمان.وقررت أن أعد له الحمام المحشو على الغداء، عسى أن يضمنا سرير الحب في الظهيرة. ولما هبطت إلى الطابق الأرضي استقبلت أذناي النغمات الأولى من السيمفونية الخامسة لبيتهوفن، فانشرح صدري، فقد أتقنت بسيمة عزفها في وقت قصير. نعم... هذه فتاة موهوبة بحق.

دلفت بهدوء إلى غرفة البيانو وتأملتها. رقيقة في هذا الفستان الوردي بشعرها الأسود الطويل الناعم المنسدل على كتفيها كأنها أميرة فرعونية. بدت منهمكة تمامًا في العزف، لدرجة أنها لم تنتبه لوقوفي خلفها. وأصابتني رجفة تقزز لفكرة أن تقترن هذه الفتاة الجميلة بهذا الألباني الغليظ ذي البطن المنفوخ كقربة السقاء! وبقي يرن في أذني سؤال: كيف تخيلت أنني قادرة على حرمان هذه الرقيقة من حبيب قلبها؟ يا لك من قاسية يا مرجريت براون. قلبك قُدّ من حجر. وفي المواقف العصيبة نتورط في اتخاذ قرارات خاطئة أحيانًا. فلتغفري لي يا زهرة أمك. إنك مسلمة وعليوة مسلم ابن الأرض المصرية نفسها التي أنبتتكما، فليبارك الرب زواجكما يا بنيتي، ولكن كيف؟ والوالي نفسه يطارد الشاب المسكين والمدعو أدهم بك يطاردك. والمستقبل غامض ومجهول ولا يبشر بانفراجة قريبة. ما أصعب أيامك يا حبيبتي،لكن بسيمة انتبهت فجأة لوجودي خلفها، فتوقفت عن العزف، وأطاحت بـ "بيتهوفن" بصيحة فرحة وهبت تحتضنني قائلة:

- ماما... أخيرًا بابا وافق على أن نزور عليوة في أقرب فرصة!

* * *

بدر الدين أباظة

طردني الملعون وليام!

طردني، من العيادة بحجة واهية.زعم أنني أهين المرضى وأتعالى عليهم، ولا أتمتع بالرحمة الواجبة لكل من يتعامل مع مرض الإنسان وضعفه. قالها ببرود سخيف: (يا بدر الدين... أنت لا تصلح للعمل في عيادتي... سلّم عهدتك وتعالَ خذ ما تبقى لك من حقوق مالية، واهجرنا في سلام)!

لا سلام بعد الطرد والإهانة يا دكتور. هل أجرمت لأنني رفضت استقبال أحد المرضى قبل أن تبلغ الساعة الثامنة مساءً، وهو موعد إغلاق العيادة؟ وصل المريض في الساعة السابعة وأربعين دقيقة، وحاله تشي بأنه سيظل في غرفة العيادة مع الدكتور لأكثر من نصف ساعة على الأقل، فضلًا عن وجود مريض آخر في انتظار دوره، وكل ما فعلته أنني طلبت منه أن يمضي لحال سبيله ويعود في الصباح. صحيح أنني تحدثت مع المريض بحدة، ومنعته من مقابلة الدكتور وليام، لكن ذلك لا يبرر أبدًا إقدامه على طردي وإهانتي أمام ڤيرجينيا وضيفه الإنجليزي!

لقد وقعت الواقعة بسرعة عجيبة ومباغتة، فالمصيبة قد تنهمر على الرأس في لحظة، فقد تعجلت مرور الوقت لارتباطي بموعد مع أليسا تلك الفتاة اليونانية فائقة الجمال، التي التقيت بها أمس في بار الإيجبسيانة بالأزبكية، وكدت أسابق عقارب الساعة المعلقة على الجدار بخيال ينتظر تحقيق الوعد اللذيذ وقلب يخفق بالنشوة. (غدًا سنسهر ونستمتع معًا، مادمت قادرًا على دفع الثمن). هكذا قالت أمس بفجاجة لم تزعجني، ومن ساعتها وصدري يزدحم بالآمال الملونة، فالفتاة ذات وجه ساحر وقوام يشعل النيران في الجسد. إنها النموذج الأوروبي الشهي، أما فردوس فتبدو بجوارها مثل "المِش" إذا وضع بجانب عسل النحل!

مرت الساعات في العيادة بطيئة مملة. إذا توقف الزمن عن الحركة حلّت الكوارث في الصدور. وكلما ولج مريض جديد انقبض قلبي وتوترت حواسي، وهرعت عيناي إلى الساعة أناشدها الإسراع. ولما جاء الضيف الإنجليزي سُرّ داخلي؛ إذ من المحتمل جدًّا أن يصطحب الدكتور وليام ويغادرا العيادة سريعًا. لكن الحظ العاثر قذف بهذا المريض في وقت حرج، وسرعان ما ارتفع صوته، عندما رفضت إدخاله غرفة الكشف، وتدخلت ڤيرجينيا في صالح المريض فوبختها وأمرتها بألا تتعدى حدود وظيفتها، وجذب صخبنا في الخارج اهتمام الدكتور فخرج مسرعًا وفي أعقابه ضيفه الإنجليزي، وبعد أن أنصت إلى ڤيرجينيا والمريض أصدر أمره الملعون بطردي!

وقفت للحظات مذهولًا. ما هذا العبث؟ بقرار مفاجئ من فرد واحد أفقد وظيفتي ويتهدم مستقبلي. حاولت الدفاع عن نفسي، لكن الدكتور لم يرد سماعي. لقد أصدر قراره وعاد بسرعة إلى غرفته بمنتهى الهدوء، وكأن شيئًا لم يكن، بينما ظل ضيفه يرنو إليّ باهتمام مريب. وفي سرعة البرق مرقت في ذهني كالشهب أساليب معاملته لي في الفترة الأخيرة، وبالتحديد بعد أن سألته عن سر غياب أبي المكارم. لقد تغير الدكتور من ناحيتي، فقلّ حديثه معي، وتجاهلني غير مرة مفضلًا التعامل مع ڤيرجينيا، وقبل أسبوع رفض إعطائي سلفة من راتبي كنت في أمسّ الحاجة إليها. وأول أمس وبّخني بحدة لأنني أضحك بصوت عال مع ڤيرجينيا. أجل... هناك سر كبير في تحوّل مزاج الدكتور، ومفتاح هذا السر قابع في جيب أبي المكارم، وسأعرف كيف أصل إليهما معًا... المفتاح وأبو المكارم!

بعد فترة وجيزة من التشتت الذهني نزعت البالطو الأبيض وسلمته بقلب موجوع إلى فيرجينيا مع مفاتيح العيادة والغرف الداخلية والخزينة، كما قمت بعدّ النقود التي وردت اليوم وسلمتها مع الدفتر المدوّن به أسماء المرضى. رنت إليّ بحزن، وبدت عيناها حائرتين مضطربتين تطل منهما مشاعر الذنب. وفجأة مدّت راحتها اليمنى لتصافحني قائلة بالإنجليزية: (أتمنى لك حظًّا سعيدًا)، ثم غادرت المكان بسرعة شديدة، بينما تتابعها نظراتي بمشاعر مختلطة.

وما إن خرجت من باب العيادة وبلغت جامع الأزهر حتى سمعت من يناديني، فالتفتُّ خلفي، فإذا به الضيف الإنجليزي الذي بادرني قائلًا :

- مستر بدر الدين... أنا أندرو ابن عم مدام مرجريت زوجة الدكتور وليام.. هل لي بخمس دقائق من وقتك؟

وفي تلك الليلة رأيتني في المنام أمتطي فيرجينيا على شاطئ نهر التايمز بلندن، بينما أليسا فتاة البار اليونانية تقذفنا بكؤوس البيرة الفارغة، كلما ارتفع صوتنا من فرط اللذة!

* * *

عقله من نار رغم ملامحه الملائكية باستثناء أنيابه الأربعة الحادة والطويلة نسبيًّا، أما روحه فمستودع للخداع يداريه بنظراته الساهمة. وهأنذا ألتقيه للمرة التاسعة أو العاشرة في ظرف أسابيع قليلة لتتوثق العلاقة بيننا أكثر وأكثر، وقد استقبلني غير مرة في لوكاندة نيقوسيا بالأزبكية حيث يقيم، واحتسينا البيرة معًا في بار اللوكاندة. حقًّا... يحظى أندرو بذهن جبار قادر على استيلاد المال من التراب، ورغم أنه اقترض مني جنيهات قليلة على فترات، إلا أنني أثق بقدرته

على استخراج النقود من تحت الأرض، فعقله من ذهب وجرأته مدهشة وخياله خصب ومتدفق. وقد أضحكني كثيرًا عندما تحدث معي في أول لقاء بيننا حول مشروعه في افتتاح فرع لمحل لعب الأطفال (هامليز)، وأبديت له موقفي ساعتها، ونحن نحتسي النبيذ في بار الإيجبسيانة: (محل لعب أطفال في الغورية؟ أنت مجنون يا مستر أندرو). ومع أن أليسا اليونانية لم تف بوعدها بحجة أنها متعبة، إلا أن صحبة هذا الشاب الإنجليزي الطموح خففت من غضبي في ذلك اليوم البغيض عندما طردني وليام. لكن المثير حقًّا أنني شعرت أن ثمة حشرة حقد غير مرئية على الدكتور تعبث في صدر أندرو، وأنه لا يكن له الود المتوقع باعتباره زوجًا لابنة عمه.

وحين سألني عن أبي المكارم بعد أن قصصت عليه موجز رحلتي الوظيفية مع الدكتور وليام، استبعد أن يكون أبو المكارم هو عليوة الذي يبحث عنه رجال الشرطة، وأن يكون لصهره علاقة بالموضوع، وقال: (وليام لا يورط نفسه في أمور كهذه، ماله وما لفلاحي مصر؟). ومع ذلك نفذت خطتي في اليوم التالي لطردي، فقابلت ربيع المغاوري وطلبت منه مراقبة برقوق، الخادم الأمين للدكتور، فقد يفتح لنا الدروب المعتمة التي تقودنا إلى كشف العلاقة بين الدكتور وليام وأبي المكارم، فحدسي يؤكد أن عليوة الهارب هو نفسه أبو المكارم الغائب.

واليوم.. سأخبر أندرو بما توصل إليه ربيع المغاوري، عله يراجع موقفه بشأن هذه العلاقة. ولكنه تأخر عن موعده، والبار بعد اختفاء أليساوعودتها إلى بلادها كما أكدوا لي، بات خاليًا من الحرارة، ورغم أنها حرمتني من تذوق فواكهها الشهية بأعذار شتّى، إلا أن حضورها في البار كان يشع بهجة وفرحة وطربًا وسرورًا. وقد قنعت بالجميز مؤقتا إلى حين تبدّل حالتها فتسمح لي بالتريض السعيد في بستانها الفريد، لكنها غادرت فجأة دون سابق إنذار. وعدت خائبًا إلى فردوس فمنحتني الدفء واللذة وشراب الراحة الجسدية، لكن الافتتان بأليسا اليونانية لم يخفت أبدًا، والظفر بها حلم مشتعل على الدوام. إنها الحكمة الأزلية الموجعة (الممنوع مرغوب).

لم يأت أندرو بعد وقد مللت الانتظار، فدفعت الحساب وغادرت البار في حدود التاسعة بمزاج عكر. استقبلتني نسمات مارس الطرية بحنو، فغمغمت ما أجمل الجو، وتساءلت... أين أذهب؟ ما أتعس المرء المحروم من العمل والزوجة والأبناء. وقادتني قدماي للتجوال الحر في حارات الحي الأفرنجي بالأزبكية، وقلت لنفسي:يمتلك الأجانب قدرة مدهشة على صناعة الجمال والتمتع بالحياة الرخية، فالحي منسق ومنظم ونظيف ومضاء بالمصابيح الزيتية ومزدان بالأشجار وأحواض الزهور، ومن يبتعد عنه خطوات ويختلط بأجوائنا المصرية، يصطدم بالفوضى والضجيج والظلام وأكوام القمامة! ووجدت الندم يتسلل إلى أعصابي

بسهولة، فقلت ليتني ما هجرت لندن، وانهالت مطارق التقريع على رأسي (أنت فاشل يا بدر الدين... أخفقت في دراسة الطب... أخفقت في الاحتفاظ بوظيفتك... أخفقت في تعزيز علاقتك بأبيك حتى تمزقت، فلم يعد يسأل عنك، ولم تعد تسأل عنه... أخفقت في اصطياد قلب ڤيرجينيا... أخفقت في جرّ أليسا اليونانية إلى سرير المتعة... حياتك كلها سلسلة مقززة من الإخفاقات المتوالية).

فجأة لفت انتباهي طفل يعدو مرحًا في سباق مع أبيه نحو مطعم باريس، فتاقت نفسي إلى الذرية بقوة، وصحتُ بصوت عال: (ما أقبح الوحدة)، وقلت أيضًا (إن الخمر تفضح خبايا النفس وتفصلها عن الروح المعذّب، وهذا أجمل ما فيها).

ولما بلغت مشارف الأزبكية جهة الرويعي، فوجئت بأندرو مقبلًا نحوي تسبقه ابتسامة عريضة، فصافحني بحرارة وقدم اعتذاره عن التأخير، ثم عدنا إلى البار،ولاحظت أنه يسير بسرعة كأنه متأخر عن موعدما رغم أننا التقينا أخيرًا وانتهى الأمر، وبعد أن طلب الويسكي ومقبلات من أجنحة الدجاج المشوية، سألني بجدية:

- أسمع كثيرًا هنا عن البوظة... فما هي؟

فضحكت بشدة وقلت له، وأنا أتفرس في قسمات وجهه المنتبه لكل كلمة:

- إنها نوع من الخمر الرديء يتم إعداده في المنازل والمقاهي والحانات، وتتكون البوظة من الخبز والسمسم والشعير والطحين واللبن المختر والخميرة والسكر وعصارة الليمون، فتخلط مكوناتها وتوضع على النار وتقلب باستمرار حتى تنضج، ثم تصفّى وتترك لتبرد.

ووعدته بأن أصطحبه إلى خمارة مكاوي الشال بالدرب الأصفر، ليتذوقها بنفسه، ويندم، فعاد يسألني باهتمام:

- من فضلك... ذكّرني يا بدر الدين... كم المكافأة التي خصصها الوالي لمن يقبض على عليوة هذا؟

فتعجبت من اهتمامه المفاجئ بعليوة وقلت:

- مئة جنيه.

فضحك ساخرًا بصوت عال، فبرزت أنيابه المدببة كثعلب متربص، وأشار لي أن اقترب أكثر، وبعد أن صبّ الويسكي في جوفه دفعة واحدة، ملت بجذعي نحوه

يحرقني الفضول حتى كاد يرتطم رأسانا، فهمس:

- دعك من عليوة وواليكم ومكافأته التافهة، سأعطيك ألف جنيه كاملة إذا ساعدتني على تنفيذ خطتي!

فرمقته متعجبًا، فازداد لمعان عينيه الزرقاوين تحت النور المنبعث من المصباح المعلق خلفي، وسدد نظراته نحوي بقوة ليرى أثر مفاجأته على ملامحي. ظللنا لثوان نتبادل نظرات غامضة، هو يتابع انفعالاتي بدقة محاولًا التنبؤ برد فعلي، وأنا أتساءل ماذا في جعبتك يا ابن الإنجليز؟ ثم عدت إلى الوراء وتنهدت، وتخيلت حجم المبلغ المنتظر، فلعبت الأحلام برأسي، وتساءلت مندهشًا:

- كيف؟

- كل ما عليك أن تضربني!

- نعم؟

- تضربني بحساب، أي بحرفية، ثم تعالجني!

* * *

مجنون.. أقسم بالله العظيم إن أندرو مجنون، ولكنه الجنون المفيد المثمر. يا سلام لو تحققت الفكرة. سأربح ألف جنيه بلا أي تعب. مجرد لكمات بسيطة أسددها في وجهه بحساب لتترك بعض الكدمات في الجبين والوجنتين مع جرح بسيط بزاوية الفم وتجلّط بقعة دم صغيرة لتضخيم المشكلة، ثم أفر هاربًا، وبعد ذلك أتولى معالجته بسهولة. واليوم سننفذ الخطة الجهنمية خلف مقهى الفيشاوي، وفي أثناء استماع الجمهور إلى غناء وتواشيح الشيخ محمد عبد الرحيم المسلوب.

لقد اختار أندرو هذه الليلة لأن القمر سيحقق طموحه أخيرًا ويكتمل، فتمسي الحواري مفروشة بسجاد من نور، الأمر الذي يجعل من السهل عليّ تنفيذ الاعتداء المزعوم بحساب وبذكاء دون ترك عاهة أو أثر سئ مستديم، ولأنه عرف أيضًا، وبوسائله الخاصة كما أخبرني، أن القنصل الإنجليزي السيد تشارلز مري سيكون حاضرًا الليلة؛ لأنه من المعجبين بصوت الشيخ المسلوب وأدائه.

التقينا في مقهى الملعم إلياس الدمشقي بالغورية عقب صلاة المغرب. بدا المكان فقيرًا من الزبائن رغم لطافة الجو. واضح أن العوز يحرم الناس حتى من

دفع ثمن قدح قهوة أو قرفة، فآثروا البقاء في بيوتهم، فلا مقهى ولا تزاور ولا يحزنون. ومع ذلك يحاول المعلم إلياس أن يبدو كريمًا بشوشًا ضحوكًا، لكن من يقدر على مصادقة الخراب في رزقه؟ فقد طبع الهم بصمته الحزينة في عينيه وانتهى الأمر.أقبل أندرو متأخرًا متعللًا بظرف طارئ كعادته. صافحني بحرارة وسألني بعصبية لافتة، وهو يمسح بعينيه المكان:

- هل أنت مستعد؟

فغمغمت وأومأت مؤكدًا، ثم سألته بعد أن طلبت قدحين من الخروب البارد:

- وهل أنت واثق بالنتيجة يا مستر أندرو؟

فابتسم وهمس:

- يا بدر الدين... لقد افتعل بعض الأوربيين هذا الأمر من قبل،وحسب معلوماتي رضخ الوالي وانصاع، ولن يستطيع التملص أو الرفض.

- ولكن مبلغ عشرة آلاف جنيه كتعويض عن الاعتداء عليك مبلغ كبير جدًّا جدًّا، لن توافق الحكومة على دفعه؟

فنقر بأنامله اليمنى ظهر راحتي اليسرى وقال بغرور:

- وما دور قنصلنا؟ إنه سيضغط على الوالي والحكومة، وكلي ثقة بنجاحه كما نجح في أمور مشابهة من قبل. الإنجليز أقوى من مصر كثيرًا، والقوي يجبر الضعيف على الامتثال لشروطه.

أي شيطان أنت؟ وهل حاكمنا ضعيف إلى هذه الدرجة أمام قناصل الدول الأوروبية؟ يرضخ ويذعن ويدفع؟ ولماذا كل هذا الخنوع؟ ومضيت أسأله:

- ومحل لعب الأطفال؟

فقهقه بصوت عال لفت انتباه المعلم إلياس، فرسم بسمة سريعة على شفتيه تحية لنا، وقال:

- لا أمل في محل لعب الأطفال... لقد راودتني فكرة ظننتها جيدة، وهي أن أقترح على شركة (هامليز) افتتاح مصنع لها هنا في مصر، لكنني تراجعت عندما علمت من أصدقائي أن عباس باشا أغلق المصانع التي أنشأها جده محمد علي، زاعمًا أن صيانتها وتجديدها..يتكلف نفقات باهظة، كما أنها لم تكن تقدم إنتاجًا

جيدًا قادرًا على منافسة البضائع الأوروبية فلم تستطع تسويقه، فتكبدت خسائر ضخمة وفقًا لما يقولون، وبالتالي لا أظن أنه سيرحب بتشييد مصانع أخرى في عهده، وهو مازال شابًّا لم يبلغ الأربعين بعد، أي سيظل يحكم بلدكم حتى نهاية القرن، أي عام 1900.

وضحك فجأة بصوت عال، فلم أشاركه، فتوقف، وعاد يهمس قائلًا:

- إننا سنجني أموالًا طائلة في وقت قصير للغاية من وراء ما سنقدم عليه الليلة.

ثم طالع إعلانًا باللغة العربية معلقًا على جدار المقهى عن إحياء الشيخ المسلوب سهرة غنائية كبرى في مقهى الفيشاوي تتضمن قصائد وتواشيح وابتهالات دينية، وذلك عقب صلاة العشاء اليوم، فسألني عن محتوى الإعلان، فلما شرحته له، عاد يتساءل:

- هل هذا الرجل فنان مشهور وموهوب؟

فأجبته وأنا أحاول الغوص في زرقة عينيه لأكتشف خباياه أكثر:

- بكل تأكيد... لو كنت تعرف العربية لطربت لتواشيحه وأغنياته... ما أجمل الشيخ المسلوب وهو يترنم شاديًا (لما بدا يتثنى).

فغمغم قائلًا بفتور:

- قد أسمعها يومًا ما.

ثم سألني فجأة وهو يرمي بنظراته هنا وهناك:

- أين اختفى زبائن المقهى؟

وواصل كلامه بسخرية شديدة:

- هل ذهبوا للبحث عن صاحبك عليوة؟

* * *

- أي الأطعمة تشتهيها على الغداء يا حبيبي؟

جلست أتأمل السابلة من المشربية بجسد منهك وذهن شارد، فاليوم موعدنا

لأعرف نتائج الاعتداء المزيف، بينما فردوس تنظف بهمة ونشاط آثار الغرام العنيف المتواصل ليلًا ونهارًا، وكأنها لم تقض ليالي ساخنة مترعة بالخمر والجنس والطعام. ثلاثة أيام كاملة وأنا مقيم معها، لم أبرح دارها أبدًا كما اتفقت مع أندرو بعد أن نفذنا الخطة بنجاح.ثلاثة أيام أعاشر فيها فردوس في أي وقت، في الفجر والضحى والظهر والعصر والليل، أنا لا أشبع منها، وهي لا تتأفف ولا تتذمر، حتى صار الفراش ملاذي الأثير ومأواي المفضل، فممارسة الجنس تطفئ التوتر النفسي والبدني، وما أبشع توتري هذه الأيام، وما أصعب انتظار تحقيق الحلم بالثراء.

رؤية الناس من أعلى تتيح للمرء تكوين نظرة أشمل عن سلوكهم وطباعهم. ويبدو أن الناس في حارة الحمزاوي كما هم في كل الحارات المصرية، عمل وكفاح وخطط وذكاء وضحك ونكات وصراع ومؤامرات. وأندرو سيد المؤامرات بامتياز، وكم كان موفقًا عندما قرر في اللحظة الأخيرة تبديل الخطة، فبعد أن أضربه أفرُّ هاربًا، وأختفي عن الأنظار، ليهرع هو إلى الدكتور وليام بدمه النازف فيتولى علاجه ويثبت الواقعة ويخبر القنصل. وعادت فردوس تلح في السؤال، فالتفت إليها وقلت، وأنا أهديها ابتسامة امتنان تعبر عن عرفان بالجميل:

- صينية بطاطس بلحم الضأن مع الأرز المعمّر.

ما أروعك يا فردوس، والله لم يخلق أجمل من حضن امرأة يخفف عن المرء عذابات الوحدة والبطالة وشح المال، فالنساء جواهر تتلألأ في أحضان الرجال، والإنسان المحظوظ هو من يزدان سريره بامرأة عاشقة. ولولاقروش فردوس البسيطة ما تمكنت من مواصلة الحياة بعد أن نفدت نقودي، فقروشها البيضاء نفعتني في أيامي السوداء. وقال لي أندرو عندما طلبت منه إرجاع بعض ما اقترضه مني من أموال: (لا تقلق... عندما نظفر بالتعويض قريبًا، ستنال نصيبك وكل ما اقترضته منك، ولن تحتاج إلى أحد)، وأضاف ونحن نتوجه إلى مقهى الفيشاوي في الليلة إياها: (ألف جنيه ستقذف بك في يوم واحد من كهوف الفقراء المحرومين إلى بيوت الأثرياء المرفهين).

سبعة عشر جنيهًا هي كل ما استطعت توفيره بعد عمل لمدة سنتين في عيادة الملعون وليام، وقد اقترضها كلها أندرو، حتى صرت لا أملك ثمن رغيف خبز. آه يا فردوس... يا أنثاي الرائعة، غدًا ستلمع عيون أهل الحمزاوي، وهم يتأملون الذهب في ذراعيك وتطرب أذانهم لوسوسته، وستتمزق قلوب بعضهم من الغيرة والحسد. أقسم لك بذلك، فلن أبخل عليك بشيء. ووجدتني أرنو إليها باهتمام وهي تواصل مهامها في تنظيف الغرفة. جسد فوّار بالأنوثة والشهوة، ومؤخرة ممتلئة تأسرني وتذيب الحجر، وملامح متناسقة بعينين سوداوين براقتين

وشفتين مكتنزتين، أما البشرة فخمرية شهية تغريني دومًا بتقبيلها. ولولا انبعاج الأنف قليلًا من أسفل لصارت أجمل امرأة في مصر المحروسة. ولما لاحظت تفرسي فيها، غضّت بصرها خجلًا وتقلصت شفتاها اضطرابًا وسألتني دون أن تنظر إليّ:

-هل أعد لك قدحًا من العرقسوس؟

فابتسمت وقلت لنفسي: من زعم أن العاهرة لا تخجل؟ لا أظن أن ثمة امرأة لا ترتبك أمام رجل يعريها بنظراته، حتى لو كانت بائعة هوى محترفة. ووافقت على تناول العرقسوس، فعادت تسألني وهي تقدمه لي بحب كبير:

- وما أخبار عليوة؟ وهل مازلت تظن أن أبا المكارم هو عليوة؟

وتذكرت ما أبلغني به ربيع المغاوري قبل أيام من أنه شاهد العبد الأسود برقوق خادم الدكتور وليام وهو يتسلل ليلًا من دار الدكتور حاملًا صينية فوق رأسه تفوح منها رائحة طعام شهي، فتبعه في الظلام لكنه ذاب واختفى في أزقة الحسين، فتنامت شكوكي الحائرة، وحاولت إعلام أندرو بها، لكن خطته الجريئة أطفأت اهتمامي بالأمر، فقلت لها:

- خبت حماستي بالحكاية كلها، ملعون أبو المكارم على عليوة، فليذهبا إلى الجحيم، المهم... أن نظفر بالألف جنيه.

فتورد خدّاها سرورًا وسعادة وهتفت:

- حسنًا فعلت... أشعر أن عليوة هذا مظلوم، وبالتأكيد لم يهرب من قصر الوالي إلا تحت ضغط شديد. فعباس باشا ذو قلب غليظ لا يرحم أحدًا، ألم تسمع عن الرجال الذين يذهبون في المجهول؟ عن الغرقى والمخنوقين والمختفين والمسجونين والمنفيين. إن إيذاء الناس متعة الوالي الدائمة، فطالما تُلقى على مسامعي قصص مرعبة يشيب لها الولدان.

فانتبهت وسألتها باهتمام:

- ممن تتلقين هذه الأخبار؟

- من خاصة الرجال وعلية القوم الذين يمرون على سريري. لا تتعجب، فسرير من تمارس مهنتي قد يغدو مستودعًا لأسرار الحكم. كما أنك ترى بنفسك كيف أن الغلاء أذل كرامة الرجال وكوى أكباد النساء!

فتأملتها مليًّا، وقلت لنفسي وأنا أنهي آخر رشفة من العرقسوس: (عاهرة وطيبة وتفهم في الشؤون الجنسيةوالسياسية والاقتصادية... ما شاء الله عاهرة شاملة)، فبادرتني سائلة وهي تتناول مني القدح الفارغ:

-وهل سيعطيك أندرو هذا نصيبك اليوم؟

فضحكت بصوت عال، وقلت لها شارحًا:

- لا... لا... لن يحصل على التعويض قبل شهر، فالأمر ليس بهذه السهولة، والوالي لن يرضخ إلا بعد ضغوط شديدة. ومهما حاول التملص من دفع التعويض، فلن يستطيع عباس باشا إغضاب القنصل الإنجليزي كما أكد لي أندرو.

- وهل أنت واثق بأن أندرو سيفي بوعده معك؟ أنت تقول إنه صديقك المخلص، لكن لا تنس... فالمال يدمر الصداقات... سلني أنا، فكم من صديقة خسرتها بسبب المال.

فصدمني سؤالها، وأشحت بحركة لا إرادية من يدي أية وساوس يمكن أن تفسد حلمي بالثراء، وهمهمت بصوت غير مسموع: (سأقتله... أقسم بالله... إذا خدعني سأقتله). ورنوت إليها بتركيز شديد كأني أعيد التفكير فيما قالت، فابتسمت، فراق لي قوامها وساقاها واقتحمني سؤال مفاجئ.. لماذا لا تحبل فردوس؟ لقد أمطرت في أحشائها ماءً غزيرًا طوال أكثر من عام، ومع ذلك لا أثر لحمل؟ هل تتعامل مع عطار أو قابلة تجهضها باستمرار؟ وسألتها، فهبطت سحب الحزن في عينيها في التو، وأجابت بحسرة تفتت الفؤاد:

- أمر الله... نصيبي.

ثم دنت مني حتى التصقت بي كقطة حائرة تفتش عن الدفء والأمان وقالت بغنج ودلال:

- أحلم أن ينبت في أحشائي طفل منك.

فطوقتها بذراعي بحنان ولثمت شفتيها بشوق، فاستعرت رغبتي وتألقت شهوتها، والتقينا في عناق ساخن طويل وتلاحمنا حتى تفجرت حواسنا فارتعشنا وانتشينا، ثم انزلقت مهدودًا إلى وادي النوم العميق. وعندما صحوت استقبلتني فردوس بوجه يشع بالنضارة ومائدة عامرة بصينية البطاطس ولحم الضأن والأرز والمخللات والفواكه. ما أروعك يا فردوس، وما ألذ اللحم بعد اختراق اللحم للحم، وما أشهى الطعام بعد إشراق الجسد بالحب.

في المساء، توجهت نحو بار الإيجبسيانة في الموعد المحدد يكويني الفضول، وللمرة الأولى وجدت أندرو في انتظاري يختبئ نصف وجهه الأيسر تقريبًا تحت رباط طبي، فبدا كأن جاموسة داست على رأسه بعد ان نطحته بقرنها فأردته أرضا. كدت أضحك بقوة، فأنا أعرف جيدًا أن اللكمات التي سددتها له لا تستدعي كل هذه الأربطة، ولا أعرف كيف أقنع الدكتور وليام بفعل ذلك.صافحني بحرارة وقال ورائحة البيرة تفوح من فيه:

- الأمور كلها طيبة يا صديقي بدر الدين.

ثم أمسك، فاستعر شغفي لمعرفة الخبر اليقين وسألته:

- أبشر أيها الصديق الإنجليزي الوفي.

فابتسم وقال بثقة شديدة:

- سيهبط المال من السماء في أيدينا قريبًا... هكذا أكد لي قنصلنا المبجل تشارلز مري.

فانشرح صدري طربًا وسرورًا، فقال سريعًا وهو يرنو إليّ بنظرات ملؤها ثقة بالنفس:

- اكتب عندك... اليوم 28 أبريل 1854، وبعد شهرين اثنين فقط، أي قبل مطلع يوليو المقبل ستجتاز السحاب وتلمس قمر السماء بأناملك وتصبح في مصاف الموسرين.

فضحكت بقوة وصحت مباهيًا:

- سأكتب يا أندرو... سأكتب.

فرفع كأس البيرة إلى أعلى في حركة مثل تلك التي يفعلها الممثلون على مسارح لندن وهتف:

- هذه هي الأفكار الجهنمية يا صديقي المصري الذكي... وليس عليوة صاحبك! فليسقط عليوة.

فوافقته بحركة من رأسي، وصحت معه مهللًا:

- فليسقط عليوة.

فصاح خلفي:

- فليسقط عليوة!

ورددناه معًا ثلاثًا كشعار للنجاح والانتصار، فالتفت الحضور نحونا مندهشين، فابتسمنا معًا بطريقة آلية، ثم ناديت على النادل طالبًا ورقة وريشة، فصبّ البيرة في جوفه بشراهة، ودنا بوجهه مني حتى تقززت من رائحة فيه، وهمس:

- البيرة خفيفة لا تصلح لمثل هذا الخبر الجميل... اطلب لنا كأسيّ ويسكي على حسابك.

* * *

علیوة أبو زهرة

(وأيوب إذ نادى ربه أني مسّني الضرّ وأنت أرحم الراحمين).

ظللت أردد هذه الآية عشرات المرات عقب انتهائي من صلاة الفجر، فهي أكثر آيات الذكر الحكيم التي ترطب وجداني وتخفف أوجاع وحدتي. ولم يخلق ضرّ أقسى من الوحدة، كما لم يوجد عذاب أسوأ من الشعور بالظلم. وقد ظلمني الوالي عندما أمرني بتذوق الموت كل يوم في مطبخ قصره، كما ظلمني حين أصدر فرمانه بتفتيش حارات مصر ودروبها لاصطيادي.

مع شروق الشمس تجولت في اللوكاندة بلا هدف، هبطت الطابق الأرضي وصعدت غير مرة قتلًا للوقت المتجمد. تناولت القليل من الجبن والخبز والخيار. اكتشفت أن الطعام الذي أحضره برقوق قبل ثلاثة أيام على وشك النفاد، ولم يأت ليلة أمس كما يفعل عادة، حيث يجود عليّ الدكتور وليام بوجبات تكفيني حتى يعود برقوق بالزاد مرة أخرى؟ فهل نسيني الرجل الكريم، أم انشغل برقوق بأمر ما؟وهكذا غاب ذكري عن قلوب الجميع حتى بسيمة لم تبتكر طريقة للتواصل معي في هذا المنفى. إنها هناك... تنعم بالطعام الطازج والشراب العذب، ثم تقرأ وتمرح وتذاكر وتعزف على البيانو وتنسى علیوة. يا لحسرة الفؤاد. ترى ماذا أفعل إذا لم يعد برقوق وعضّني الجوع؟ هل أغامر بالخروج إلى النور وأبتاع ما يسد رمقي، وليكن ما يكون، فأنا أملك عشرة قروش كاملة؟ لقد سئمت حياة البهائم هنا في هذه اللوكاندة غير المحتملة... طعام قديم ونوم متقطع، حتى البهائم تتحرر من الحظائر وتغادر سجنها لترعى بحرية في الحقول.

فجأة... هبت في الخارج رياح محملة بأتربة اخترقت رائحتها المنفرة محبسي، فاقتربت من جانب المشربية لأستطلع الأمر، فرأيت الغبار يتصاعد ليحجب الرؤية أو يكاد، بينما يظهر حودة نادل المقهى في صورة ضبابية، وهو يرش الماء بكثافة ليروض تمرد الريح ويسترقد التراب ويلطف الجو. وقلت لنفسي (إنه أمشير الملعون بجنونه وترابه وفوضاه). ومع ذلك فقد اكتظ درب قرمز بالسابلة والباعة الجائلين، وفتح الناس دكاكينهم في تحدٍّ صريح لجبروت الطقس. وتذكرت أن أهالي قريتنا الشموت ببنها لا يبرحون دورهم إلا نادرًا، إذا أعلن أمشير عن حضوره البائس. ما أغرب القاهرة... كتلة متشابكة من الحركة لا تهدأ ولا تعبأ بطقس وغبار ومطر وحر وبرد. وقررت أن أغامر اليوم وأذهب لأداء صلاة العشاء في جامع الحسين؛ لأدعو الله أن يرفع عني هذا الضيم ويحميني من شرطة الوالي، وأبتاع ما يسد جوعي إذا واصل برقوق غيابه المريب.

خمدت الرياح فجأة مثلما انتفضت، ثم أجهشت السماء بمطر كثير لدقائق

معدودات، ومع صلاة الظهر ذاب الضباب وتجلت الشمس فأعلنت حضورها البهي بكبرياء، فتسلل نورها عبر فتحات المشربية فأضاء القاعة الرئيسة في اللوكاندة، فتبدّل مزاجي إلى الأفضل، ويبدو أننا رهائن لدى الطقس، فإذا بدا حسنًا لطيفًا انعكس ذلك بالإيجاب على أرواحنا، أما إذا اضطرب وتوحش وانقلب تعكّر مزاجنا وفسد.دنوت من المشربية أطالع وجوه الناس على المقهى، كما أفعل كل يوم طوال النهار والليل، فالتلصص على ما يجري في المقهى صار سلواي الوحيدة منذ أسابيع، فثمة خيط رفيع أنشأته مؤخرًا يربطني ببني البشر في الخارج. إنه يمتد من مشربية القاعة الكبرى في اللوكاندة إلى درب قرمز ومقهاه، وهو الخيط الوحيد الذي أعتصم به بقوة الآن، حتى لا يعتريني الجنون، فعذابي في قصر الوالي لم يكن بهذه القسوة، التي تلسعني بها الوحدة كل لحظة. هناك اعتدت أن أرى وأتحدث يوميًّا مع أدهم بك والحراس الأرناؤوط ورجال المطبخ. أما هنا، في نار الوحدة الحارقة التي لا تنطفئ، فلا شيء سوى المقهى بنادله وصاحبه وزبائنه، ولو من وراء حجاب.

هكذا عرفت حودة النادل بنشاطه ودأبه وصوته الرفيع الحاد ونحافته التي تقارب إلى حدٍّ ما نحافتي، وعرفت المعلم صميدة صاحب المقهى ذا الشارب الكثيف عاشق النكتة الفاحشة، والذي لا يتوقف عن تدخين الشيشة تقريبًا، لكن ما إن يهل معوض العطار بأنفه الضخم حتى يترك الشيشة جانبًا ويصيح مناديًا عليه: (ما أحدث النكات القبيحة يا معوض يا ابن الكلب؟)، فيضحك الزبائن ويسترقون السمع لأكثر النكات فحشًا، ومن عجب أن كبار السن يضحكون أكثر وأكثر على هذه النكات من صغار السن. لكن سيظل الشيخ زغلول بعمامته الخضراء الضخمة أقرب رواد المقهى إلى قلبي، فهو وسيم ومهذب يتمتع بصوت رخيم، أنيق في قفطانه، يأتي كل يوم عقب صلاة الظهر، ولا يتناول سوى اليانسون، ويهب مشورته وعلمه وفتواه لمن يشاء، والجميع يخطبون وده، حتى المعلم صميدة يتوقف عن إلقاء الألفاظ الخارجة في حضوره احترامًا وتبجيلًا لمكانته، وقد علمت من الحوارات المتناثرة أنه صاحب عمود في الأزهر الشريف.

وظهيرة السبت الماضي استقبل الشيخ ثلاثة من تلاميذه.. جاءوا بوجوه قلقة ونبرات متحفزة وثياب أزهرية، وسأله أقصرهم صاحب الصوت الجهوري عن أكثر أحاديث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أهمية، وقد بدا واضحًا أنهم مختلفون كثيرًا في هذا الأمر. دعاهم الشيخ زغلول إلى الجلوس بجواره وطلب لهم يانسون، وابتسم وقال بحنان: (كل أحاديث نبينا الكريم مهمة لأنها تحض على فعل الخير ولأنه لا ينطق عن الهوى، وأخص بالذكر ثلاثة أحاديث بالغة الأهمية من حيث دعوتهاالمباشرة إلى نشر المحبة والإخاء بين الناس من جهة، وبراعة الصياغة اللغوية وتكثيفها الشديد من جهة أخرى، إذ إن كل حديث منها يتكون من كلمتين اثنتين فقط)، فاستعر الفضول في صدري، كما لاحت علاماته في

وجوه التلاميذ. ثم تناول الشيخ العلامة الأريب رشفة من اليانسون واستكمل كلامه: (أول هذه الأحاديث يا أبنائي هو (الدين المعاملة)، والثاني هو (تهادوا تحابوا)، أما الحديث الثالث فهو (اتقوا الشبهات)، فارتسمت الفرحة في عيون التلاميذ وانهالوا عليه تقريظًا وثناءً، بينما كاد قلبي يطير من الفرح، وغمغمت: بارك الله فيك يا مولانا، فالمعرفة تسعدني وتشعرني بأنني مازلت أحيا، ودعوت الله أن يحفظ الشيخ زغلول لينشر علمه الغزير بين الناس.

لقد صار هؤلاء أهلي الآن، أهلي الذين لم يروني ولم يعرفوني، لكني أحبهم، أحبهم كثيرًا بطيبتهم وصخبهم ومناكفاتهم ونكاتهم الفاحشة، بعد أن باعد جبروت الوالي بيني وبين أبي وشقيقي غباشي. ترى... كيف أحوالهما الآن؟ وماذا يفعلان؟ وهل بلغهما أمر عباس باشا بالبحث عني؟ آهٍ... كم أوحشتني يا أبي. لكن الله غفور رحيم، فقد عوضني بأهالي درب قرمز، أأتنس بهم وأسعد بمراقبتهم والإنصات إليهم من خلف المشربية. وكم من مرة سمعتهم يتحدثون عني، بعضهم يؤكد أنني لص سرقت شيئًا ثمينًا من قصر الوالي، وإلا ما جيّش الجيوش لاقتفاء أثري والإمساك بي، أما أغلبهم فيشفقون على حالي ويتعاطفون معي، خاصة حودة النادل الذي لا يتوقف عن الدعاء لي: (اللهم احفظ عليوة، ولا تجعله يسقط بين أيدي الشرطة). في حين أن الشيخ زغلول لا ينحاز إلى رأي، وإنما يردد (هنالك سر في موضوع عليوة لا يعلمه إلا الوالي والله عز وجلّ، وكل ما نملك أن ندعو الرحمن أن يحميه إذا كان مظلومًا، أو أن ينال جزاءه إذا كان من المخطئين). حنانيك يا شيخ زغلول، لست لصًّا ولست من السارقين، فما أنا إلا فلاح مظلوم. وما أكثر المرات التي منعت نفسي فيها بصعوبة شديدة أن أخرج إليهم على الملأ وأخبرهم أنني أنا عليوة الطيب، الذي أذله الوالي بجبروته وفرض عليه الموت كل نهار، فما كان له من حل إلا الهرب من جحيم المطبخ!

حتى نبوية السمراء بائعة الجبن القريش والبيض والفطير والعسل دافعت عني، عندما أقسم أحد زبائن المقهى أنني لص؛ إذ صرخت في وجهه: (وهل رأيته يسرق شيئًا؟ وهل أحد فيكم يعرف ملامحه أصلًا؟). ما أرق نبوية وهي تفرش بضاعتها على حصيرة نظيفة جهة الجانب الأيسر من المقهى، مع مطلع الشمس حتى العاشرة صباحًا كل يوم. وكم اشتهت نفسي تناول البيض المقلي مع الفطير، لكن بات ذلك من رابع المستحيلات، وأنا محشور هنا في لوكاندة تحت الإنشاء. وقررت أن أطلب من برقوق أن يعد لي البيض المقلي في المرة القادمة حتى لو أكلته باردًا، ثم تراجعت عن قراري، فرغم انزوائي هنا منذ أسابيع لم أطلب أبدًا أن يتضمن طعامي أي صنف، فما يأتي به برقوق أتناوله شاكرًا حامدًا، وأحمد الله على نعمة التعفف، لكني سأرجوه أن يحاول اصطحاب بسيمة في الزيارة المقبلة بأي شكل، فقد تاقت نفسي إلى رؤيتها والتحدث

إليها والتمتع بالنظر إلى وجهها الصبوح. وأول أمس زارتني في المنام حاملة بيانو صغيرًا جدًّا في كفها اليمنى، ومضت تعزف لي نغمات ساحرة، وأنا مذهول من قدرتها على تصغير حجم البيانو إلى هذه الدرجة حتى تستطيع حمله والمجيء إليّ. واستيقظت من نومي بينما روحي يسيل على الوسادة من فرط الحنين إليها.

وأمعنت النظر من المشربية عندما ارتفع صوت حودة النادل مرحبًا بالشيخ زغلول، فانشرح صدري وأنا أتأمله وهو يتخذ موقعه المعتاد في المقهى، ورددتُ معه بصوت خفيض من شدة الانفعال (أهلًا وسهلًا يا سيدنا الشيخ)، وتابعت باهتمام مغادرة المعلم صميدة لمكانه المعتاد واقترابه من الشيخ ومصافحته بإجلال والجلوس بجواره. وفجأة التفت المعلم حوله، ثم لصق شفتيه في أذن الشيخ وهمس بكلام، فإذا بالعبوس يكسو ملامح الشيخ زغلول،ثم هبّ واقفًا صائحًا بغضب: (استغفر الله يا معلم... هذا كفر بواح... والله إذا لم تتراجع عن هذا الفعل، فلن أقرب مقهاك هذا إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا)،وغادر المقهى بخطوات سريعة في اتجاه قصر بشتاك مرددًا: أستغفر الله العظيم، دون أن يتناول ولو رشفة واحدة من اليانسون!

* * *

ماذا جرى؟ ماذا قال المعلم؟ ماذا أغضب الشيخ؟ إنه هادئ ووقور وطيب وحكيم، فكيف انتفض وصاح هكذا كأن بركانًا انفجر تحت مقعده. آه لو أستطيع الخروج لأستطلع وأفهم. ما أبشع الحبس؟ وما أحوجني إلى التهام خبز الحرية الآن وفورًا. ولن يمنى المرء بمصيبة أسوأ من الانزواء ليلًا ونهارًا داخل أربعة جدران. وها هي ثلاث ساعات مرت، وأنا لم أبرح المشربية، عسى أن يعود الشيخ، أو يذهب المعلم صميده ليصالحه ويسترضيه ويعود به معززًا مكرمًا. لقد شغلني الأمر بصورة لا تصدق حتى أنني لم أتمكن من أداء صلاة العصر بذهن صاف، وندمت واستغفرت الرحمن على ضعف إيماني، وتساءلت كيف يستطيع الإنسان أن ينفصل عن ذاته، أو أن ينفلت من الواقع وصراعاته وغموضه ليقف فجأة بين يدي الله بذهن صاف وقلب خشوع خمس مرات في اليوم؟ ماذا لو كان الله أمرنا بالصلاة في الصباح الباكر فقط قبل أن نغادر بيوتنا بحثًا عن الرزق، وقبل أن تتلوث أرواحنا بالكذب والغضب والنفاق والانفعال والغش؟ولما لم أجد إجابة، استغفرت الحق عز وجل وأسرفت في الاستغفار، ومازال المعلم صميده يجذب أنفاس الشيشة كأن شيئًا لم يكن، وإن بدا شاردًا بعض الوقت. ووردت على ذهني عبارة (إن أصحاب الجلد الغليظ لا يأبهون لمشاعر الآخرين)، والمعلم صميدة يتصدر قائمة أصحاب الجلد الغليظ بلا ريب.

فجأة... جادت السماء برذاذ نا عم أغرى الأطفال والصبيان بالتجمع والمرح تحت مياهه، فامتلأ الدرب بصياحهم وصخبهم، وانزلقت قدم أحدهم في الطين اللزج فانكفأ على وجهه فضحكوا وهللوا، وحاول حودة النادل إبعادهم عن مدخل المقهى لكن دون جدية حقيقية، فمتابعة لهو الأطفال أمر ممتع للكبار من الصعب مقاومته، فظلوا يمارسون لغطهم وضجيجهم بقلوب نقية مستمتعين ببعضهم وبالرذاذ. ثم ركض أحدهم فجأة جهة الجمالية، فهرعوا خلفه وخلا الدرب من حلاوتهم، وعاد إلى إيقاعه الصوتي المعتاد.

ذهبت لأقضي حاجتي في الحمام، وعدت سريعًا إلى المشربية آملًا أن تنعم عيناي برؤية الشيخ زغلول مستقرًّا في جلسته المهيبة، لكن بلا جدوى. فالمعلم غارق في دخانه، والشيخ غارق في غيابه، وشملني حزن غامض غريب، كأن الشيخ الغاضب أحد أقربائي، ووضعت رأسي بين راحتيّ يائسًا.هل غفوتُ قليلًا؟ لا أدري. لكني سمعت فجأة صرير الباب فارتجفت، فبرقوق لا يأتي إلا ليلًا، لكن الشمس مازالت تتوهج بثقة في السماء، وقبل أن أهرع إلى الغرفة السرية في الطابق الأسفل لأختبئ، كان الجميع قد وقفوا أمامي ناثرين في وجهي ابتساماتهم الطيبة بعد أن عبق الجو بعطرهم الفوّاح، فاندهشت وفرت دموعي من شدة الفرح، وهرولت بسيمة نحوي بفستانها البرتقالي الآسر وهتفت مهللة، وهي تهديني وسادة رائعة الألوان طرية ناعمة كيديها:

- ابتعتها من سوق الخيامية، أما هذه الوردة البلدي الحمراء فقطفتها لك.

فشكرتها بقلب يخفق حبًّا، وتأملت الوردة بحنان، ففوجئت بوجود ورقة صغيرة مدسوسة بين وريقاتها، فتبادلنا نظرة خاطفة أدركت منها أنها رسالة خاصة فانتشيت، وصافحني الدكتور وليام بحرارة، وقال بنبرة هادئة:

- وهذا كتاب مبسط عن تشريح جسم الإنسان، وقد تطوعت مرجريت بترجمة كلماته الصعبة عليك إلى العربية.

فصاحت بسيمة:

- وأنا ساعدتها يا عليو...

ثم رنت إلى الدكتور بخجل وصاحت:

- آسفة آسفة... يا أبا المكارم.

فلم يعلق ونظر إليها بعطف، وعاد يقول لي:

- معرفة مم تتكون أجسامنا وكيف تعمل أمر مهم جدًّا يا أبا المكارم. حتى نتمكن من اتباع العادات الصحية السليمة من مأكل ومشرب وتريضٍ وتنفس؛ كي نحافظ على النظر والسمع وأجهزة الجسم كلها، وحتى نتمكن أيضًا من تحديد الأمراض التي نتعرض لها وكيفية الوقاية منها ومقاومتها بالأدوية المناسبة.. افهم طبيعة جسمك تربح صحة جيدة.

وأشارت مدام مرجريت إلى برقوق، فأخرج من جعبته مخطوطة كبيرة، وقدمتها لي قائلة برقة شديدة أفتقدها كثيرًا:

- وهذه مخطوطة (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) التي وضعها الشيخ عبد الرحمن الجبرتي قبل أربعين سنة تقريبًا. إنها تتضمن موجزًا لتاريخ مصرحتى وصول حملة نابليون بونابرت، ثم تتحدث بالتفصيل عن هذه الحملة وما تلاها، وصولًا للسنوات الأولى من حكم محمد علي باشا.

وقال الدكتور مسرعًاوابتسامته الحلوة لا تغادر شفتيه:

- انتبه جيدًا... مرجريت لا تعير أحدًا مخطوطاتها بسهولة، وها هي من أجلك تترجم وتعير لتعرف كم أنت عزيز علينا جميعًا.

واستطردت زوجته وهي تمنحني نظرات أم رؤوم:

- اقرأ حتى تعرف تاريخ بلدك العظيم، وحتى تتغلب على هذه الوحدة التي ندرك جميعًا كم هي قاسية عليك.

فاعترتني نشوة امتنان، ولم أدر ماذا أفعل، وودت لو ينشغلون عني قليلًا حتى أطالع رسالة بسيمة، وانتشر صمت للحظات قطعه برقوق صائحًا:

- وها هي صينية الأرز المعمّر والحمام المحشو بالفريك والفواكه الطازجة، وادعُ لخالتك أم السعد.

فضحكنا، ووضع الصينية جانبًا وغطاها بملاءة بيضاء صغيرة، وعاد الدكتور وليام يقول:

- لقد قررنا زيارتك في النهار حتى لا نلفت الانتباه، فأهالي درب قرمز يعرفون أنني على وشك الانتهاء من إعداد اللوكاندة لاستقبال النزلاء، وطبيعي أن أمر بين الحين والآخر لأتابع ما تم إنجازه.

تأملتهم مليًّا، فشعرت أن أمطارًا من المودة تنهمر في وجداني، ومع ذلك ورغم سعادتي البالغة بهذه المفاجآت السارة، ورغم انفعالي الجميل بوجود بسيمة بالقرب مني، إلا أنني، ولا أدري لماذا، وجدتني مشغولًا بالشيخ زغلول ومعرفة ما أغضبه، فرجعت قليلًا إلى الخلف، وألقيت نظرة خاطفة من المشربية على الدرب، ففوجئت بوجود بدر الدين أباظة وبصحبته رجل أجنبي وآخر مصري، يجلسون ثلاثتهم على المقهى، فشهقت هلعًا ويدي على فمي:

- يا خبر أسود!

فدنا الجميع من المشربية على الفور،وأطلوا على المقهى بعيون ملؤها القلق، واستنكرالدكتور وليام منزعجًا وهو يشير إلى زوجته:

- ما الذي جمع ابن عمك أندور مع بدر الدين أباظة؟

فتمتمت بصوت مرتعش:

- لا أدري... لا أدري... فأنا لم أره منذ زيارته الوحيدة لنا.

وهمس برقوق بغيظ:

- هذا ربيع المغاوري... البصاص الحقير!

وجفلت بسيمة وهمست والذعر يقفز من عينيها:

- إنهم يراقبوننا... إنهم يراقبوننا يا عليوة!

وتلقفت راحتي اليمنى بيديها للمرة الأولى وضغطت عليها بقوة كأنها تحميني من غدر أسود يتربص بي!

* * *

استيقظت قبل الفجر منزعجًا وسعيدًا. أما الانزعاج، فلأن الكثير من العرق تقاطر على جسمي، وتكوّم جلبابي بين فخذي فاتسخ بإفرازاتي الغزيرة التي قذفتها وأنا مستغرق في نوم عميق، وأما السعادة، فلأن بسيمة رافقتني في حلم جميل، انتهى بعناق وارتعاش وانفجار. لا أذكر تفاصيل الحلم، لكني موقن أننا كنا نجلس متلاصقين تحت شجرة توت وارفة الظلال بجوار ساقية مهجورة، بينما العصافير ترفرف وتزقزق حولنا بكثافة، وقد اكتست كلها بلون برتقالي فاتن ومدهش يشبه لون الشمس ساعة الأصيل، ثم تلاحمنا وكان ما كان.

على الفور ملأت الطست بالمياه وأشعلت الكانون، واستحممت سريعًا حتى أتطهر وألحق بصلاة الفجر. وعاهدت نفسي إذا منّ عليّ الله بالنجاة من الوالي وانتقامه ومنحني نعمة الزواج من بسيمة، كما ذكرت في رسالتها، لن أعذبها أبدًا بإشعال الكانون، فهي أرق ألف مرة من الخشب والنار والدخان. وتذكرت كيف بث بدر الدين أباظة الرعب في قلوبنا أمس، واضطر الدكتور وعائلته إلى البقاء معي حتى أذان العشاء بعد أن غادر هذا الأباظة الملعون وصديقاه المقهى، فهرع برقوق خلفهم واطمأن أنهم اتخذوا طريقهم إلى خمارة المعلم مكاوي الشال بالدرب الأصفر. ولما رجع برقوق بالنبأ اليقين، ضحك الدكتور وليام وقال: (يجب ألا نسمح لبكتريا الخوف الزائد أن تفسد حياتنا الطبيعية).

تناولت إفطاري بسرعة من شدة الجوع، ثم أعدت قراءة رسالة بسيمة ربما للمرة الخمسين بقلب فرح، حتى كدت أحفظها، فهي قصيرة لكنها مترعة بالحب والأمل. كتبت ابنة الخامسة عشرة: (حبيبي عليوة... أفتقدك بشدة، وكم أوحشتني. ولكن لا تحزن ولا تيأس ولا تخف من الوالي، فأنت في أمان مادمت مختبئًا في اللوكاندة بدرب قرمز، ولن يستطيع جنود الوالي العثور عليك مهما حاولوا، فالظالم لا يفلح أبدًا، وعباس باشا ظلمك جدًّا. لا تقلق... اقترحت على أمي أن نغادر مصر إلى لندن لنتزوج ونقيم هناك، فوافقت، وقالت سننفذ ذلك بعد التشاور مع بابا، وبعد أن تتخذ الاحتياطات المناسبة لتهريبك دون مشكلات. تذكر دومًا أنني بجانبك. أحبك يا عليوة. بسيمة). هكذا كتبت بسيمة، ونِعمَ ما كتبت بسيمة.

أخيرًا... اقترب عصفور الفرح من شجرة قلبي الحزينة، وانتابتني نوبة حماسة لاسترداد غرامي بالحياة والتغزل في مفاتنها بعد شهور من العذاب والشقاء والوحدة في مطبخ الوالي ولوكاندة الدكتور، فأقبلت على كتاب التشريح بهمة وتصفحته بتركيز شديد، فأعجبتني الرسوم المنفذة ببراعة، وأذهلني القلب وتصميمه، وتذكرت كلام الدكتور وليام عن أن القلب هو المتحكم في كل كمية الدم في الجسم، ومع ذلك لا يأخذ لنفسه إلا 5% فقط ليتغذى ويحيا ويؤدي وظائفه، والكمية الباقية وهي 95% يقوم بتوزيعها على كل أعضاء الجسم وأجهزته وخلاياه، بل أكثر من ذلك، أن القلب يضخ الدم في الجسم أثناء الانقباض، أي النبض، ولا يصل إليه شيء من ذلك لنفسه إلا بعد النبضة، أي أثناء الارتخاء، فقلت يا سبحان الله، وكأنه يأبى أن يخص نفسه بشيء من هذا الدم، إلا بعد أن يطمئن إلى أن كل خلايا الجسم قد حصلت على نصيبها العادل منه. ألا ليت القائمين على مصائر الناس وحاجاتهم وغذائهم يدركون ذلك ويتعلمون من قلوبهم، لو كان لهم قلوب!

كما لفت انتباهي أيضًا الجهاز التنفسي وشرعت أشهق بتؤدة وأخرج زفيرًا عدة

مرات، وأنا أتامل تفاصيل الرئتين والقصبة الهوائية، وأندهش من عظمة الله الذي أتقن خلق الجسم الإنساني من الداخل والخارج في أحسن تقويم. ثم بدأت قراءة الفصول الأولى من مخطوطة الجبرتي فجذبتني الأحداث العجيبة، والصراعات العنيفة، التي مرت بها مصر فتفاعلت معها وانفعلت بها، وشغلتني شخصية علي بك الكبير وطموحاته اللانهائية. وإذا ما أنهكتني القراءة أرنو من المشربية إلى درب قرمز ومقهاه، فلا أجد تغييرًا مهمًّا، فمازالت نبوية تبيع البيض والفطير والجبن القريش وعسل النحل، ومازالت الأرض زلقة من أثر رذاذ الأمس، ومع ذلك، أجد البال مشغولًا بالشيخ زغلول. ترى... هل يذهب إلى تلاميذه ومريديه الذين ينتظرون بجوار عموده بالجامع الأزهر؟ هل سيأتي إلى المقهى اليوم؟ هل سأسعد بحضوره المشرق؟ وخطر لي أمر غريب، إن الشيخ زغلول يشبه علي بك الكبير رغم أنني لا أعرف ملامحه، ولكن ما كتبه الجبرتي عن شخصيته وهيبته وطموحه أوحى لي بذلك. فابتسمت، ودعوت الله ألا يحرمني من رؤية الشيخ الجميل، ومن أسف،فالمعلم صميدة مازال في جلسته يدخن الشيشة غير مكترث بشيء. وحوده النادل يصيح على الطلبات للزبائن بصوته الحاد كما يفعل كل يوم، والهموم تكتسي وجوه معظم الجالسين، والشرود يلوّن ملامحهم بالكآبة.

فجأة اقتحم الدرب مجموعة من الجنود الأرناؤوط بملابسهم الخشنة وملامحهم القاسية وبنادقهم العامرة بالرصاص، فنشروا الذعر في الوجوه، وتحدث قائدهم مع بعض رواد المقهى بغلظة وعنجهية،ثم صفع أحدهم بقوة، فجفلت وانكمشت في بعضي، ومدّ جندي أحمر الوجه راحته وخطف فطيرة من تلك التي تعرضها نبوية السمراء ومضى يلتهمها بتلذذ، وانحنى آخران وحملا وعاء البيض وسطل العسل، بينما تشبثت بهما نبوية وهي ترفع صوتها بالدعاء عليهم، فدفعها سارق الفطيرة بقدمه وهو يلتهم فطيرتها، فانكفأت على ظهرها صارخة من الألم، بينما رنين دعائها عليهم يتردد ناقمًا في الفضاء بلا فائدة. ثم أمرهم القائد بالانصراف بعد أن قال للمعلم صميدة بصوت عال ولكنة مصرية واضحة الحروف: (انتبه يا معلم... عليوة هذا مجرم خطير، قد يتخفى في لباس رجل كبير أو امرأة عجوز، فأي غريب يمر بك هنا عليك إمساكه وإبلاغنا فورًا).

يا بختك الأسود يا عليوة، مازال الوالي يشرب من بئر الانتقام والظلم، ومازال الأمل بانقشاع الغمة معلقًا في سماء الوهم. ما أغرب الحياة... تسعدني بنسيم الحب وبرقة بسيمة ورسالتها الحانية، وبعد دقائق تمطر في روحي رعبًا وهلعًا وخرابًا. وها هم جنود الوالي يعتدون على امرأة طيبة ويسرقون قوتها بقسوة وببرود، فهل ثمة أمل في أن يرحمني هذا الجالس في القصر على عرش مصر؟ وسمعتني أردد بأسى... للتعاسة أنياب شرسة تنغرز في الروح في لحظة فتدميه وتؤلمه، ولا حيلة للإنسان في مقاومتها والذود عن نفسه من شرورها.

أزف موعد حضور الشيخ الغائب فازدادت دقات قلبي، وعدت إلى كتاب التشريح وتفحصت القلب وكيف يعمل وابتسمت، ربما للمرة الثانية في يوم واحد، وهوما لم يحدث منذ هربت من مطبخ الوالي، وقلت لنفسي ما أروع المعرفة، وحزنت لأنني اكتشفت كم نحن جهلاء بأمور كثيرة، تمس صميم حياتنا ومستقبلنا من صحة وتعليم وتاريخ وصناعة وآداب وفنون.

ومرّ الوقت ببطء شديد وارتفع أذان الظهر وما ازدان المقهى بحضور الشيخ زغلول، فاكتأبت وتكاسلت عن القيام لأداءالصلاة وظللت ملتصقًا بالمشربية، آملًا أن يهل وجه الرجل الطيب بطلعته البهية في أي لحظة، وأعلن معوض العطار عن وصوله بنكاته الفاحشة فتلقى نصيبه من السباب الشائع وغرق الروّاد في مستنقع الضحك المبتذل، فتفاقم حزني، فقد نسي الناس بعد سويعات ما حل بنبوية وفطائرها وبيضها.وتساءلت هل قدرة المرء على نسيان الأذى نعمة أم نقمة؟ إذا نسينا فقد ربحنا راحة البال، لكننا سنخسر حتمًا بعضًا من كرامتنا وكبريائنا، وإذا لم ننس فقد صرنا هدفًا يسيرًا لوحش التوتر والقلق بحثًا عن الثأر، ولم أقنع بإجابة.

وارتفع أذان العصر ثم المغرب، ولم يُنِر الشيخ زغلول مجلسه في المقهى، ولم أسعَ إلى الصلاة، واصطخبت في عقلي الأفكار المتناقضة... لماذا يخلقنا الله إذا كان العذاب رفيقنا الدائم في دروب الحياة؟ هل يفرح عندما تؤذينا الأيام؟ هل يسعد بشقائنا المتواصل؟ هل تستحق الجنة الموعودة في السماء كل هذه الآلام في الأرض؟ واستغفرته سبحانه وتعالى، وأشعلت الشمعة الصغيرة التي تنير لي القاعة بعدما تسللت خيوط الليل إلى اللوكاندة، محاذرًا انتشار أي ضوء للخارج كما أفعل كل مساء، ثم أعدت قراءة رسالة بسيمة عسى أن أسترد بهجتي التي سلبها جنود الوالي في الصباح... وغفوت.

حلمت بأبي يجالس الشيخ زغلول على المصطبة أمام دارنا بقرية الشموت، ويتبادلان حديثًا وديًّا، ثم جاء من أقصى القرية رجل يسعى. إنه علي بك الكبير بهيلمانه ممتطيًا جواده المطهّم، واتخذ مجلسه بينهما، ثم صاح مخاطبًا إياي: (يا عليوة... متى سنفرح بزواجك من بسيمة؟)،وابتسم الشيخ زغلول وقال: (أسرع يا بنيّ... فالزواج فرحة للقلب وصيانة للجسم)، فقال لهما أبي بصوت حالم: (سيتزوج عليوة حين ينضج القمح في أرض الوادي ويستريح الناس من أشواك الوالي).

ما هذا الألم؟ هل مازلت ممتطيًا صهوة الحلم الجميل؟ من يلكزني في كتفي بعصبية؟ هل علي بك الكبير أم الشيخ زغلول أم أبي؟ أين أنا؟ في دارنا بالشموت أم في لوكاندة الدكتور وليام بدرب قرمز؟ تشويش كبير يعصف بذهني.

نور خافت يسبح في المكان. شبح باهت يتعملق على الجدار. آه... يبدو إنه نور الشمعة. ماهذا؟وجع في الكتف. مَنْ يلكزني؟ وصدمني صوت غريب لم أسمعه من قبل:

- هيا... قم يا عليوة... انهض.

فجفلت وجحظت عيناي وصرخت، وأنا أرى سكينًا مشهرًا في وجهي:

- مَنْ أنت؟

وكدت أبول على نفسي لا إراديًّا، وتمتمت هذا كابوس... ارحمني يا رب. وتساءلت مرة أخرى بقلب مضطرب وحلق جاف وحروف متكسرة:

- مَنْ... مَنْ أنـ... مَنْ أنت؟

* * *

تآلف قلبانا فصرنا صديقين حميمين... اللص الطيب موسى كوارع وأنا، وبعد مرور أكثر من عشرة أيام من التواصل اليومي يمكنني القول إنني مدين له بمعروف كبير، فقدأعاد الاخضرار إلى حياتي القاحلة بحضوره القوي وحديثه اللطيف وحكاياته العجيبة وخفة ظله فأنقذني من لعنة الوحدة القاتلة. ومن عجب أنني رأيت الطيبة تقطر من عينيه حين أيقظني من النوم، رغم أن السكين كاد يخرق عيني اليمنى في الليلة إياها.

حكى لي موسى كوارع أنه ولد في بيت متهالك ببولاق، بجوار مسجد "السلطان أبوالعلا" مباشرة، وأنه لم ير أباه أبدًا، وكل ما يعرفه عنه أنه صعيدي يدعى حسب الله. أما أمه فكانت تعمل خادمة لسيدة عثمانلية تقطن في دار فخمة بالأزبكية، وعندما بلغ الثامنة رحلت أمه بعد مرض قصير، ولم يسعد بوجود أشقاء، إذ مات ثلاثة قبل مولده ولم يكمل الواحد منهم العام، فعصفت به الحياة ولم يرحمه أهل الأرض، وضحك وقال: (ويبدو أن ساكني السماء لم يرحموني أيضًا). وأضاف بكبرياء: (لم أمد يدي كما يفعل الكثير من أمثالي أمام باب الجامع، فأنا أكره التسول، رغم أنني لا أعرف كم مرة بكيت فيها من عضة الجوع).

بعد وفاة أمه، عمل موسى صبيًّا لدى نجار فترة قصيرة، وهجره لأنه لم يكن يتوقف عن ضربه يومًا واحدًا (لم أحب أبدًا دق المسمار في الخشب. أشعر أنه يخترق لحمي). ثم استقر في مسمط يشرف على حارة المحمّرة قريبًا من جامع "السلطان أبوالعلا"، وظل يعمل فيه بضع سنوات حتى بلغ مبلغ الرجال،

وتذكر تلك الأيام بأسى قائلًا: (كان صاحبه يمتلك أمرين: كرشًا كبيرًا وقلبًا غليظًا، فكنت أعمل نظير طعامي فقط، وليته يكفيني، إذ فرض عليّ ألا أتناول سوى ما يتبقى في صحون الزبائن من فضلات، فلم أشبع أبدًا). ثم شرد وقال بحسرة: (لم أجد حلًّا سوى سرقة الكوارع من المحل والتهامها في خرابة أو مراحيض الجامع حتى لا يراني أحد فيخبر المعلم، ومع الوقت بدأت أسرقها لأبيعها وأملك نقودًا أقتات بها ما يحلو لي)، وضحك وصاح: (هل أدركت الآن سر اسمي؟ موسى كوارع).

كنت أتأمله كثيرًا وهو يتحدث، تأمل الإعجاب المخلوط بمشاعر غامضة لا أتبينها بالضبط. ربما مزيج غريب من الشفقة والخوف والتقزز. تميز موسى بوجه خمري مقبول القسمات، لعينيه العسليتين بريق لافت. قصير القامة إلى حد ما، لا يضع فوق رأسه أي شيء، لا عمامة ولا طاقية، وشعره أسود خشن غير مصفف دومًا. جلبابه نظيف باستمرار. يكبرني بعام أو عامين، وربما أكثر. آيات الشقاء القديم تطل من هنا وهناك... في نظرة... في تقطيبة... في الفم المنعقد... في الخوف الدائم من الإيقاع به، ومع ذلك فهو كثير الضحك عاشق للثرثرة. ولما سألته عن أول بيت أقدم على سرقته قال: (دار السيدة العثمانلية التي كانت تخدم فيها والدتي؛ لأن جارتنا أخبرتني أنها طردت أمي فور مرضها ولم تعطها أي نقود، ولو بارة واحدة لتتداوى به عند العطار).

ولما سألته أين تعلمت القراءة، شرد قليلًا وقال مباهيًا: (علمني القراءة والكتابة أفضل رجل في مصر المحروسة... الشيخ رفاعة الطهطاوي نفسه). آنذاك اعتراني سرور كبير، فكم سمعت عن هذا الرجل وفضائله من أساتذتنا في المدرسة، إذ كانوا جميعًا قد تخرجوا في مدرسة الألسن التي أسسها الطهطاوي، حيث قالوا لنا إنه أول مصري يتلقى العلم في باريس، وأنه عمل على نشر العلوم في بلادنا، وكم حزنوا عليه وعلى المدرسة عندما أغلقها الوالي عباس باشا، وسألت موسى كوارع بلهفة شديدة: (كيف تعرفت على الشيخ رفاعة؟)، فتعجب من اهتمامي برفع حاجبيه إلى أعلى وواصل حديثه، وعلى شفتيه ابتسامة مشوبة بشجن: (وأنا أتسكع في إحدى الليالي صادفت دارًا فخمة بالسيدة زينب... راقبتها عدة أيام، واقتحمتها قبل الفجر بساعة، ففي هذا الوقت يهزم النوم جميع الناس، فيخضعون له طائعين، لكن من سوء حظي أن بعض الخدم كانوا متيقظين، فأمسكوا بي وقادوني إلى صاحب الدار في غرفته، وسط جلبة مزقت سكون الليل. كان يقظًا يقرأ ويكتب. بدا لي رجلاً مهيبًا محاطًا بالكتب والمخطوطات والأوراق. تأملني للحظات، ثم أمرهم أن يفكوا أسري وأن يجلبوا لي الطعام والماء سريعًا. وطلب مني أن أتناول عشائي ومنحني ابتسامة مشرقة وخاطبني بمودة قائلًا:(بعد أن تنتهي من الطعام سنتحدث قليلًا)، وهكذا شرح موسى كوارع للشيخ الجليل حكايته، فتعاطف

معه وضمه إلى عمال النظافة في مدرسة الألسن وخصص له راتبًا شهريًّا، وتولى تعليمه القراءة والكتابة بنفسه، وقال له: (يا موسى... أنت فتى ذكيّ، لكنك ضحية مجتمع قاس لا تعرف الرحمة طريقًا إلى قلبه).

هذه العبارة الأخيرة نطقها موسى بنبرة تملؤها حسرة العالم كله، ثم أضاف بحس مستسلم مبلل بالأسى: (لقد تعرض شيخي الجليل إلى ظلم كبير عندما أغلق الوالي عباس مدرسة الألسن، ونُفي الطهطاوي إلى السودان قبل خمسة أعوام، أي في سنة 1849). وتذكرت أحوالي التعسة في مطبخ القصر، وقلت في خاطري: (ما أسوأ أن تقتصر مهمة الوالي على نفي الناس أو تسميمهم أو مطاردتهم)، وحاولت مداعبته لأخفف عنه أحزانه: (ولكن يبدو أن اقترابك من الشيخ الطهطاوي يا موسى لم يطهرك من رجس السرقة)، فانزعج وهتف: (الجوع يا عليوة يذل أشرف الرجال، وأنا لم أعد إلى السرقة إلا بعد أن أغلقت أبواب الرزق في وجهي، وطفح الكيل).

وضجّ رأسي بالأسئلة والاستفسارات... ما أغرب الحياة... كنت تحلم يا عليوة برؤية الشيخ رفاعة من شدة إكبارك له وإعجابك بسيرته العطرة، فإذا بلص يسعد به ويتلقى العلم على يديه؟ ووجدتني أسرد له الضيم الذي تعرضت له يوميًّا في مطبخ الوالي وهروبي من القصر بمساعدة الدكتور وليام من باب تبادل الهموم، فالنفس ترتاح لمن يسمع أنينها، والأذن تهفو إلى كلمة مواساة، وموسى كوارع تعلم من شيخه المنفيّ فنون الإنصات للآخرين رغم أنه لص، ولما سألني عن بسيمة بخبث وهو يرفع رسالتها في وجهي ضاحكًا، لم أشأ أن أتحدث، فامتثل لرغبتي ولم يلح في ذلك. وهكذا توطدت علاقتنا الإنسانية، فصار يقتسم معي الأحزان الكثيرة والمسرّات القليلة، ويبيت برفقتي في اللوكاندة، كما اعتاد الخروج لممارسة عمله المرذول في أي وقت عن طريق الباب الخلفي للدار، الذي تمكن من فتحه أول مرة مستخدمًا برفق السكين، الذي يحمله في سيّالة جلبابه حتى لا يحدث صوتًا ينبه الجيران، وكان يعود محملًا بلذائذ الطعام، لكنني لم أتناول منه شيئًا، فألح مرة عليّ قائلًا: (سطوت الليلة على بيت متطرف، فلم أجد به طعامًا سوى هذا اللحم المسلوق. كل معي يا عليوة... مُدّ يدك)، فقلت له محتجًّا وساخرًا: (هذا لحم مسروق لا مسلوق يا موسى، فلا يلزمني قط)، فامتعض وهتف: (إنني لا أسرق سوى الأثرياء، وأقسم لك أن يدي لم تمتد إلى جيب فقير)، فبادرته: (لأن جيب الفقير خاو دائمًا ولا يغريك). وقال لي مرة إنه سئم من النوم في مقابر باب النصر مع الحشرات والزواحف والقوارض والكلاب، وأن اللوكاندة أهدته نومًا هادئًا بلا مقابل أو منغصات، واليوم عاد بعد الفجر بقليل، وعلى شفتيه بسمة انتصار، وقال:

- لأول مرة أتحصل على ثلاثة جنيهات كاملة بعد عمر طويل من السرقة؟

فتعجبت من تباهيه المرفوض، وسألته:

- ومن أين سرقتها؟

- من دار صاحب وكالة خشب بالقلعة... بخيل ويأكل حقوق صبيانه ويضربهم بالسوط.

فشردت للحظات وقلت له بجدية فاجأته:

- هذا ليس من حقك أصلًا. ثم ماذا استفاد صبيانه؟ هل أرجعت لهم حقوقهم بفعلتك هذه؟ أم استحللتها لنفسك؟ ثم من أدراك أنه لن يقتطعها من قوتهم أضعافًا مضاعفة؟

فغض بصره خجلًا ولم يرد. وعدت أسأله:

- لاحظت أنك لا تمارس عملك المشبوه في بولاق.

فصاح معترضًا:

- أنا لا أسرق أبدًا أبناء منطقتي.

فرنوت له باندهاش مستنكرًا:

- السرقة سرقة يا موسى... سرقة الناس في الأزهر مثل سرقة الناس في بولاق. مكان السرقة لن يحولها إلى عمل نبيل.

- وليكن. لكني لن أستطيع سرقة من نشأت بينهم وتعاملوا مع أمي وأكرموها وعرفوني، وأنا مازلت في المهد صبيًّا.

فابتسمت وسألته مداعبًا:

- لماذا لا تخبر شرطة الوالي بمكاني... وتظفر بمئة جنيه دفعة واحدة؟

فدنا مني وربت كتفي وقال باعتزاز أسال دموعي:

- يا عليوة...أنا رفضت سرقة أموال أهل منطقتي، فكيف أرضى أن أسرق روح إنسان بريء وأسلمه للوالي المتجبر؟ يا عليوة... أنت صديقي العزيز. صحيح أنا لص، ولكني لست خائنًا.

* * *

الدكتور وليام براون

- أتعبني عباس باشا... أتعبني كثيرًا

قالها تشارلز مري بيأس قبل أن يجلس قبالتي في العيادة. وعلى الفور نزع قبعته وجفف عرقه بمنديل أبيض منقوش عليه شعار مملكتنا العظمى. ابتسمت من باب المجاملة تعاطفًا معه، بينما أحدّق في عينيه الملونتين الواسعتين محاولًا اكتشاف ما وراء هذا التصريح، فقد علمتني الأيام أن الدبلوماسي قد يبوح بشيء وهو يضمر شيئًا آخر، فالمكر سلاحه الفتاك لإنجاز مهامه الرسمية دون خدوش، ثم سألته:

- كيف أتعبك عباس؟ ولماذا؟

- يا عزيزي وليام... هل يعقل أن يظل والي مصر مشغولًا بالفلاح عليوة، فيأمر برفع المكافأة إلى 500 جنيه لمن يمسك به أو يدل الشرطة على مكان اختبائه؟ فيهرع الجنود إلى نزع الفرمان القديم ولصق الفرمان الجديد على جدران مصر كلها في أقل من 24 ساعة. هذا جنون.

فعاودني التوتر القديم، ولكن بدرجة أقل، وسألته بنبرة جادة لأستزيد من معلوماته:

- وما الذي جعله يقرر ذلك؟

فصاح بيأس:

- إنهم المنجمون الذين يأويهم في قصره، ويستشيرهم في كل شيء تقريبًا، ولا يكاد يقضي أمرًا إلا بمشورتهم حسبما تنبئهم به كتبهم وصحفهم وأبراجهم ورموزهم ومواقع النجوم في السماء!

- ومن أين أتى بهم الوالي؟

- جلبهم له أدهم بك من كل بقاع الأرض... من فارس والهند ومصر والشام ومراكش، وأدهم بك كما تعرف رجل ذو حظوة كبيرة لدى الوالي.

فتعجبت بحق وواصلت أسئلتي بشغف:

- وبمَ أشار عليه المنجمون؟ هل مكتوب في أسفارهم أن يترك الوالي أو يهمل

شؤون الحكم ويتفرغ للبحث عن... عن... علـ... عليوة هذا؟

تصنّعت أنني نسيت اسم الهارب ولم أتذكره بسهولة، فابتسم القنصل وقال:

- ذاكرتك ضعيفة يا دكتور... هل نسيت اسم مريضك الخطير بهذه السرعة؟ اسمع يا عزيزي وليام... لقد شرح لي أدهم بك موجزًا لكلام المنجمين، ويتلخص في أن حياة الوالي مرتهنة بحياة عليوة، فإذا تعرض عليوة لمكروه، أي مكروه، انتبه الوالي فورًا واتخذ احتياطاته! أما إذا مات عليوة بالسم في مطبخ الوالي، فإن عباس باشا يتحررنهائيًّا من هاجس الوفاة مسمومًا! ويستطيع بعدها أن يتناول طعامه دون خوف.لذا زعم كبير المنجمين أن رفع قيمة المكافأة سيشعل حماسة الناس أكثر للبحث عن عليوة والعثور عليه، آنذاك يطمئن الوالي على حياته ومصيره شخصيًّا مادام عليوة في قبضته، ومن أسف فإن عباس باشا يؤمن إيمانًا مطلقًا بالسحر والتنجيم.

- غريب جدًّا هذا الأمر.

- بصراحة يا دكتور، علينا الاعتراف بأن الخرافة خبز الشرق منذ مئات السنين، لذا لن يتقدم هذا الشرق أبدًا إذا ظل أسيرًا لفوضى الخرافات والخزعبلات. لقد سلكنا درب التقدم في أوروبا، عندما احترمنا العقل واقتلعنا هذه الترهات من عقول الناس قبل قرنين أو ثلاثة. على أية حال... دع أهل الشرق يتمرغوا في وحل الخرافة، حتى يسهل علينا خداعهم، فنعمل على تعزيز نفوذناوتعظيم مصالحنا.

فامتعضت من عبارته الفجة الأخيرة، ولم أشأ أن أشتبك معه في قضايا الشرق ومصالحنا الأوروبية، فسألته:

- وهل تتوقع أن ارتفاع قيمة المكافأة سيدفع الناس إلى تكثيف البحث عن عليوة والإبلاغ عنه؟

فحدجني بنظرة عتاب وهتف بتوسل:

- اطلب لنا خروبًا باردًا يا رجل... الجو حار جدًّا، إننا في يونيو مخزن الطقس المزعج وموسم توزيع النار بالمجان.

ثم تجرع الكثير من الماء، وقال بثقة يحسد عليها وهو ينقر بأصبعه على مكتبي:

- اسمع مني يا دكتوروليام وصدقني... عليوة ليس في مصر... عليوة فرّ إلى

فلسطين أو جبل لبنان أو بلاد الشام، وربما وصل إلى بغداد شمالًا أو هبط إلى مكة جنوبًا... مجنون من يرى الوالي يطارده في طول البلاد وعرضها، ثم يحاول الاختباء هنا أو هناك. الهروب من مصر هو الحل الأمثل، وعليوة ولد ذكي، وبالتأكيد فرّ فرارًا من المصير الأسود الذي ينتظره.

فكتمت ضحكة في صدري بصعوبة، وانتشيت بقدراتي على مراوغة حكومة بأسرها، واطمأن قلبي إلى أن عليوة في أمان بدرب قرمز، وتعجبت من أين يأتي القنصل بهذه الثقة الزائفة؟ وردد خاطري أن كثيرًا من المتكلمين يظنون أنفسهم أكثر ذكاء من المستمعين، وهذا قمة الغباء.

ثم قلت تشجيعًا له على المضي في أوهامه:

- معك حق... تصور منطقي جدًّا، عليوة فرّ حتمًا من مصر، ولو كا...

فقاطعني مؤكدًا:

- يا صديقي... الولد هرب من القصر مدججًابخطة محددة، وهي الفرار إلى خارج مصر، وأقسم لك أنه من المحال أن يفكر في الاختباء داخل البلد، لأنه يعلم جيدًا أن المصريين خائنون، وسوف يمسكون به ويسلمونه لشرطة الوالي، لأن مبلغ المكافأة يفسد الضمائر ويسيل اللعاب!

فجفلت من هذا الحكم المطلق، المصريون خائنون؟! أزعجني بشدة هذا التعميم، وودت لو ينصرف القنصل في الحال ويغادر عيادتي إلى غير رجعة، فأنا أشمئز من الذين يسبون الناس بالباطل، وقد عاشرت المصريين طويلًا،وهأنذا أتعامل معهم يوميًّا منذ أكثر من عشر سنوات، وكلهم طيبون وأمناء رغم فقرهم إلا فيمن ندر، فلماذا تكيل لهم الصفات المرذولة بغير علم وغير حساب؟ ترى... بِمَ تخبر عباس باشا عن أهل البلد يا سعادة القنصل؟ لعلك واحد ممن يزينون له قراراته، التي تذل الناس وتحرمهم من الحياة اللائقة وتغرقهم في مستنقعات الفقر والجهل والمرض.

فكرت في مقارعة القنصل بحجج دامغة تذود عن المصريين وتعدد فضائلهم، ولكنني تراجعت، إذ لم أنس لحظة أنني أخفي شابًّا يطالب الوالي شخصيًّا برأسه، وقبل أن أفكر في رد مناسب، فاجأني مري قائلًا:

- أبشر يا عزيزي الدكتور وليام... أخبر نسيبك السيد أندرو أن الحكومة ستدفع له التعويض الذي طلبه محاميه وهو 10 آلاف جنيه، وذلك في مطلع الأسبوع المقبل، لقد وجدت صعوبة في إقناع الوالي بدفع هذا المبلغ الضخم جدًّا كما

ترى، رغم أن الإصابة التي تعرض لها أندرو لم تكن خطيرة على الإطلاق، مجرد اعتداء بسيط من قبل مجهولين في خان الخليلي لم يترك عاهة أو ما شابه، ولكني مطالب بحكم منصبي الدبلوماسي أن أقف بجوار أبناء بلدي وأعضدهم وأسترد حقوقهم، ولا تنس، فنحن الإنجليز ينبغي أن نرفع راية التفوق الحضاري فوق أي بقعة على هذا الكوكب؛ لذا لا يمكن القبول بأن يتعرض أحد رعايا المملكة لأي اعتداء دون أن نقتص له ويعوضه المعتدي وحكومته بما يليق بمكانة إمبراطوريتنا العظمى.

الانتهازيون يتكاتفون ويساندون بعضهم بعضا، ومن أسف، فالقنصل انتهازي وأندرو مثله. إنهما يسرقان أموال الناس هنا بالحيلة والخداع وغباء الوالي وخوفه الدائم من القناصل الأوروبيين. وانتابتني حالة من الاشمئزاز لم أشعر بها من قبل. وللمرة الأولى، قررت مغادرة العيادة قبل موعد انتهاء العمل بزعم أني منهك، وأبدى القنصل تعاطفًا ملحوظًا، وانزعجت ڤيرجينيا وأصرت على مرافقتي حتى باب الدار، لكن القنصل استأذن في المغادرة لارتباطه بموعد في الأزبكية وصافحني بحرارة أمام باب العيادة، وقال:

-أتمنى لك الشفاء العاجل يا عزيزي.

فشكرته بإيماءة من رأسي، لكنه فاجأني بطلبه الغريب:

- أرجو أن تتفضل والسيدة قرينتك باستقبال زوجتي وأنا غدًا الخميس في الثامنة مساءً لنتحدث معكما بشأن موضوع أدهم بك وبسيمة!

* * *

هل أخطأت لأنني أبلغت مرجريت بالزيارة المرتقبة للقنصل وقرينته والهدف من ورائها؟ لقد قررت زوجتي العزيزة– كرد فعل غاضب - اصطحاب بسيمة في نزهة على النيل جهة المنيل في وقت الزيارة، وقالت في تبرم ظاهر: (لا أريد استقبال هذا القنصل التافه أو رؤيته)، ثم أضافت بحدة وهي تسوّي شعرها في المرآة: (هل هو قنصل أم خاطبة؟). فكتمت ضحكة، فقد عرفت زوجتي هنا في مصر (الخاطبة والداية والدلالة)، لكنني لم أستطع منع نفسي من الابتسام، والتفتُّ إليها: (لا تقلقي يا حبيبتي... لن يفلح في سعيه، وسأرده خاسرًا، ولكن لا يليق ألا نستقبله. إنه يمثل جلالة الملكة فيكتوريا شخصيًّا، صحيح أنه ليس سفيرًا، لأن مصر ولاية تابعة للدولة العثمانية وليست دولة مستقلة، لذا لا يحق لها أن تؤسس سفارات في الخارج أو تستضيف سفراء في الداخل، إلا أن القنصل يظل صاحب أعلى منصب دبلوماسي هنا، لذا وجب احترامه). ومع ذلك لم تقنع مرجريت بكلامي، وامتطت جواد العناد ونفذت قرارها. وتذكرت كيف اعترضت

بشدة على طردي لبدر الدين قائلة: (مادام هذا الشاب من طائفة الأوغاد كما ترى، فعليك الاحتفاظ به حتى تأمن شرّه)، وأعلنت غضبها بشدة لأنني لم أستشرها في هذه المسألة، واتهمتني بأنني تسرعت، وأن انفعالي الزائد قد يجلب علينا العواقب السيئة.

غادرت مرجريت الدار في السادسة والنصف مساءً، بعد أن أمرت برقوق بتجهيز العربة وقيادتها.. تأملتها وهي تطوق بسيمة بحنان كبير وهما تلوحان من بعيد عند باب الدار. كانت كل منهما ترتدي فستانًا رقيقًا يناسب عمرها. بدا المشهد من الخلف كأنه لوحة جميلة رسمها أحد فناني عصر النهضة في روما. وتذكرت أن الأم ليست من تنجب فقط، وإنما من ترعى وتربي وتدلل، وها هي أزهار الأمومة تزدهر في صدرك يا مرجريت. لقد باتت بسيمة ابنتك حقًّا.

قبل انصرافها أمرت مرجريت الخدم بإيقاد الشموع والقناديل، رغم أن أمواج الليل لم تقترب بعد من سماء القاهرة، ثم طلبت من أم السعد إعداد المائدة وإنضاج البط بشكل جيد جدًّا لأن القنصل يفضله هكذا، وقد توليت بنفسي إحضار النبيذ والكؤوس، قبل أن أصعد إلى غرفتي لأرتدي ملابسي كاملة استعدادًا للقاء. ورغم الحر الشديد، فقد حظينا بنسمات طرية من حين لآخر تهب علينا من صحراء الدرّاسة، وحمل الهواء إلى أذني صوتًا جميلًا لم أسمعه من قبل يرفع أذان المغرب من جامع الأزهر، وأوضحت أم السعد: (يقولون إن المؤذن شاب رقيق من الدقهلية، وصل حديثًا للدراسة في الجامع)، فغمغمت: (صحيح... مصر تحتشد بالموهوبين)، وطلبت منها ألا تنسى نصيب أبي المكارم من البط.

نظرت إلى ساعة الحائط المعلقة في القاعة الرئيسة، وأدركت أنه لم يبق سوى خمس وأربعين دقيقة ويصل الزائر المنتظر، ولم أعثر حتى الآن على حجة مقنعة، تبرر عدم وجود مرجريت في استقباله هو وزوجته، وتمتمت بغيظ (ورطة لم تكن في الحسبان... ولو عشت ألف عام، فلن أعي أبدًا كيف يعمل الجهاز النفسي للمرأة... إنه متناقض... متقلب... غامض... إنه مثل الغابة تضم العصافير الرقيقة والوحوش الكاسرة. يا خسارة يا مرجريت... عنادك يفسد الكثير أحيانًا). وقررت أن أدّعي أنها أصيبت بوعكة صحية طارئة عقب الظهيرة، وأنني أعطيتها دواءً يدفعها إلى النوم فترات طويلة، وأنها تقدم اعتذارها الشديد مرفوقًا بأمنياتها الطيبة بقضاء سهرة ممتعة.

اتخذت مجلسي كالمعتاد في غرفة الأنغام وشرعت في مطالعة جريدة التايمز التي وصلتني عصر اليوم. قرأت أحدث الأخبار عن تطورات حرب القرم، وكيف تقف الدولة العثمانية وحلفاؤها الأوربيون ببسالة ضد أطماع قيصر روسيا نيكولاي الأول، وأن عدد القتلى تجاوز خمسين ألف رجل حتى الآن، وأن الإمبراطورية

الفرنسية وحدها فقدت خمسة عشر ألفًا من جنودها، وأننا خسرنا سبعة آلاف من الضباط والجنود، أما الروس فقد مات منهم أكثر من عشرين ألفًا، فلعنت الحرب والدمار وغمغمت بأسى (الطمع سيدمر الإنسانية ويقضي على الحضارة الأوروبية التي نبنيها منذ قرون). ثم طالعت تقريرًا آخر عن الأجانب الذين وفدوا إلى مصر؛ هربًا من النيران المشتعلة في ثياب أوروبا، حيث استقر السواد الأعظم منهم في الإسكندرية، حتى باتت المدينة المصرية أشبه بنابولي أو أثينا أو مارسيليا. وقرأت أيضًا تقريرًا مميزًا عن الشوام الذين هجروا دمشق وجبل لبنان وفلسطين فرارًا من بطش الولاة العثمانيين، وجاءوا إلى مصر بحثًا عن الأمان والرزق، وتوغلوا في شرايين البلاد حتى وصلوا إلى مدن الصعيد وقراه وكفوره ونجوعه، فأنشأوا دكاكين البقالة وصالونات الحلاقة ووكالات الفحم والزيت والدقيق والمخابز والمطاعم وتاجروا في المحاصيل الزراعية، حيث اندمجوا في الحياة المصرية بسرعة وأحبوها. وقلت لنفسي (ثمة شيء عجيب في هذا البلد، فمصر تمتلك قدرة هائلة على امتصاص أي غريب يدخل أرضها، فتعجنه وتخبزه وتنضجه، فيستوي واحدًا من أهلها معافى الجسد والروح، يتفاعل مع أقرانه وجيرانه بمودة واهتمام فلا تغزوه مشاعر الغربة). وقبل يومين، أخبرتني مرجريت متعجبةأيضًا وهي تدوّن بعض ملاحظاتها: (مصر بلد متفرد ومختلف، تخيل... لقد كدت أنسى لندن بعد استقرارنا هنا كل هذه الأعوام، لولا الحنين الطبيعي إلى وطننا الأول، فالحواري والأزقة والدور والجوامع والكنائس والمعابد والهواء والشمس، وقبل كل ذلك، المصريون أنفسهم، يغرسونك في هذه الأرض غرسًا، فتتفاعل معها وتنفعل بها، فتخبو داخلك أي مشاعر سلبية مما يطلقون عليها الغربة).

فجأة سمعت صوت أم السعد تهلل وترحب، وإذا بمرجريت تهل قبل موعد زيارة القنصل بخمس عشرة دقيقة، وقالت لي وهي تقف على مدخل غرفة الأنغام متوسلة بالرجاء:

- معذرة وليام... لا أحتمل إغضابك أو توريطك... سأستقبل القنصل التافه وزوجته معك، لكن عِدني أنك لن تفرط في بسيمة، ولن تهبها ثمرة شهية لهذا البغل الألباني!

* * *

بأدب شديد، وبأداء مسرحي لا يخلو من افتعال، قدّم تشارلز مري سلسلة ذهبية رقيقة إلى مرجريت، وقال وهو يلثم ظهر راحتها اليمنى بحركة ذكرتني بأمراء لندن ورجالها الرسميين:

- أرجو أن تقبلي هذه الهدية البسيطة يا سيدتي تقديرًا لدورك الكبير في تنشئة بسيمة ورعايتها!

فاضطربت زوجتي من الثناء المفاجئ، إذ من المؤكد أن ذكر بسيمة في بداية الزيارة نذير شؤم بالنسبة لها، فشبح أدهم بك يلوح في ثنايا المديح. ومع ذلك أخفت مرجريت توعكها النفسي بابتسامة مصطنعة أعرفها جيدًا في هذه الحالات. فزوجتي لا تصد ولا تواجه الأذى بشكل مباشر، وإنما بارتداء قناع مزيف من الرضا والابتسام، قناع لا يلحظه أحد سواي، لكن يظل قلبها يحترق وعقلها يغلي بسؤال كبير وهو: كيف ومتى سترد هذا الأذى النفسي؟ وتمتمتُ بصوت غير مسموع (بداية بائسة من دبلوماسي غشيم).

اتخذنا مجلسنا في القاعة الرئيسة، وأبدت زوجة القنصل إعجابها بالدار وأثاثها وتحفها ولوحاتها، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تزورنا فيها، وسرعان ما اندمجت مرجريت في حوار جانبي معها، ثم تطور الحوار إلى همس ثم إلى مغادرة القاعة، حيث اصطحبتها زوجتي في جولة للتعرف على مقتنياتنا الفنية التي يزدان بها الطابق الأرضي، وهي المقتنيات الثمينة التي تتباهى بها مرجريت باستمرار، ثم استقر بهما المقام في غرفة الأنغام.

بدت زوجة القنصل متناسقة القسمات وذكية ومزوّدة بعينين خضراوين جميلتين، بينما يعزز حلاوة وجهها وروحها صوت خفيض حالم، كما أنها تتقن جيدًا اختيار ثيابها، فالفستان الأسود الذي ترتديه ينافس فساتين نجمات المسرح الإنجليزيات رقة وأناقة وجاذبية. أما القنصل نفسه فقد ارتدى بدلة سوداء كاملة فوق قميص ناصع البياض ورابطة عنق زرقاء كأنه مدعو من الملكة فيكتوريا نفسها إلى حفل استقبال في قصر باكنجهام، وقد لاحظت أنه جال بعينيه في الدار فور دخوله بحثًا عن بسيمة فيما يبدو، وهو تصرف مرذول يجافي الذوق والبروتوكول،لكنه لم يدرك أن مرجريت أمرتها بالبقاء في غرفتها وعدم الخروج منها، حتى ينصرف الضيف غير المرغوب فيه وزوجته الحسناء!

ناولته كأس نبيذ أحمر، وقلت له ضاحكًا وأنا أشدد على حروف كلماتي:

- عزيزي قنصلنا المبجل... المصريون يقولون البيت بيتك... فأرجوك... تعامل مع الشراب والطعام كما يحلو لك، فأنت في بيتك ولا تتحرج من شيء.

أظن أن رسالتي وصلت، فالمصريون الذين شتمهم سعادته في عيادتي كرماء وأصلاء، وأنا الإنجليزي العريق أسترشد بحكمتهم وأقوالهم المأثورة عند استقبالك، وقد تلقى رسالتي بذكاء دبلوماسي معهود، وقد أدرك أن الإنكار جريمة، إذ قال بثقة العارف:

- طبعًا طبعًا عزيزي وليام... الكرم صفة حميدة عند بعض المصريين.

وبسرعة فائقة طوى هذه الصفحة، وسألني وهو يتلفت يمينًا ويسارًا:

- أين السيد أندرو؟ توقعت أن أراه هنا الليلة.

هنا أدركت تمامًا أن سهم رسالتي رشق في لُبّ أعصابه، فارتاح ضميري، وأجبته بحياد:

- نادرًا ما يزورونا... إنه مقيم في لوكاندة نيقوسيا بالأزبكية.

- وماذا سيفعل بقيمة التعويض؟ إنه مبلغ ضخم.

فأجبت برد مقتضب وأداء من لا يريد مواصلة الحديث في هذا الشأن:

- لا أدري!

ومددت راحتي وتناولت قطعة من الطماطم،فغمغم بعد أن هضم جيدًا حفنة من المكسرات كما هضم نفوري من الحديث عن أندرو وتعويضه وقال:

- لذيذة جدًّا هذه المكسرات.

ثم مال نحوي بجذعه حتى لفحت أنفاسه صفحة وجهي،وأراح راحته اليمنى على فخذي الأيسر، وأطلق مفاجأته المدوية:

- لماذا لا توافق على تزويج بسيمة من أدهم بك؟ الرجل مسحور بها، ومصالحنا تحتم علينا إرضاءه وتلبية رغباته مادامت لن تضرنا في شيء. إنه مقرب جدًّا من الوالي عباس باشا، ويستطيع معاونتنا في تمرير ما نريده من اتفاقات عسكرية وتجارية مع حكومة الوالي بما يخدم اقتصادنا في لندن، ولا تنس أن إنشاء السكة الحديد في مصر لأول مرة يعزز اقتصادنا من خلال التبادل التجاري، فبعد أن كنا ننقل بضاعاتنا على ظهور الجمال، الأمر الذي يستغرق أسابيع حتى تصل الجمال إلى محطتها النهائية، هذا إذا وصلت كاملة سالمة من النهب والسلب والسطو على أيدي اللصوص وقطاع الطرق، صار القطار الآن يقطع المسافات في ساعات قليلة، وبالتالي ستتراكم أرباحنا، وتذكر دومًا يا صديقي أن مصر كنز كبير يغري الآخرين بالاستحواذ عليه،إنها سوق ضخمة... إنها ذات مواد خام لا تنتهي... وموارد طبيعية وفيرة وعظيمة. إنها مصر... معبرنا الآمن إلى الهند، جوهرتنا المتلألئة، وجلالة الملكة ڤيكتوريا وحكومتها لن تسمح لأي دولة أخرى

بوضع يدها على الكنز المصري، مهما كان الثمن.

وتمتمت بغيظ وأسى: المصالح قبل المشاعر. الاقتصاد قبل الحب. المال قبل الغرام، هذا قانون منتصف القرن التاسع عشر بكل أسف يا وليام، قانون قاسٍ لا يعترف بآدمية الشعوب ولا يهتم بلغة القلوب، ولا يحترم نشوة الأفئدة. وتذكرت ما كتبه ماركس في (البيان الشيوعي)، وواسيت نفسي ساخرًا (صدق المفكر الألماني الشاب، فالاقتصاد يحرّك العالم ويشعل الصراع بين الدول، ومن أجل تنميته يطاح بالقلوب وأحلامها وآمالها. مسكينة يا بسيمة، جلالة الملكة ڤيكتوريا نفسها تتابع بهمة أمر زواجك المرفوض).

وقلت للقنصل بنبرة اعتراض واضحة:

- ولكن بسيمة مازالت صبية، وأدهم بك رجل فوق الخمسين لديه زوجات وأبناء وأحفاد؟

فضحك بصوت عال وهتف:

- هذا أمر لا يخصنا. إنه ملهوف على تذوقها، وأنت تعرف أن الرجال المسلمين يلهثون خلف رغباتهم الجنسية بكل السبل، فيطلق هذه ليتزوج تلك، ثم يطلقها ليتزوج غيرها وهكذا... المهم تحقيق أهدافنا ومصالحنا.

- ولكنك تنسى أن بسيمة بمثابة ابنتي أنا ومرجريت؟

فجفل للحظات واعتدل في جلسته، وألقى نظرة على المكان ليتأكد أنه خال من الأذن البشرية، ثم دنا مني وهمس بعبارات فجة غليظة لا تناسب الذكاء الدبلوماسي:

- اسمع يا وليام... لنكن واضحين وصرحاء... بسيمة ليست ابنتك، وأنت وزوجتك مشكورين توليتما تربيتها ورعايتها؛ حتى صارت مشمشة شهية تغري الناظرين، هذا كل ما في الأمر، ثم أنها مسلمة ونحن مسيحيون، فهل تنوي تزويجها لقس أيرلندي؟ أم لشاب كاثوليكي من مانشستر؟ تخلص يا عزيزي من هذه الترهات، وامنح البنت لأدهم بك واربح عشرة آلاف فرنك، وليس خمسة كما عرض عليك من قبل. أنا نصحته برفع المهرللضعف؛ كي يظفر بموافقتك ويتلذذ بالصبية!

فحدجته بنظرة عتاب، وكدت أصيح في وجهه: كلامك يثير الاشمئزاز. ولولا أنه في بيتي لطردته، ولولا أنه يمثل بلادي لفضحته. ووجدتني في ورطة، واستأذنته في نزع جاكت بدلتي بحجة اشتداد الحر، فقد اعتراني شعور بالاختناق، ففعل

مثلي ونزع جاكت بدلته، ربما من باب المجاملة. وصببت لنفسي كأسًا، وتجرعتها برفق، ثم قلت له ببرود دون أن أنظر إليه:

- رجاء... أعطني وقتًا لأفكر في الأمر وأناقش مرجريت.

فهب واقفًا وصاح:

- لا لا يا عزيزي... لا وقت لدينا، فالوالي عباس غير متحمس للصفقة التجارية الضخمة التي تتفاوض حكومتنا بشأنها معه منذ شهرين، بعد أن تمكن من فرض الأمن بالحديد والنار على البلاد، فقضى على غارات البدو وقطاع الطرق واللصوص.وأدهم بك هو الوحيد القادر على انتزاع موافقته على إبرام هذه الصفقة!

ثم رفع كأسه وأكد بسرور المنتصرين:

- الليلة سأبعث رسالة إلى وزير خارجيتنا في لندن، أخبره فيها أنك وافقت على تزويج بسيمة من أدهم بك!

* * *

صوت الناي القادم من عمق النهر يزيدنا شجنًا على شجن، ومرجريت تقبض على راحتي اليمنى بكفها اليسرى وتسرح بعينيها في المياه الهادئة المنسابة. ملامحها هادئة، لكني أسمع صخب الضجيج في أعماقها وأشعر بثعبان القلق يعبث بصدرها. كنا نجلس متجاورين على مقعدين من الخيزران، تركتها تستمتع بشرودها، ولم أحاول تحريضها على الكلام. فقد عرفت تفاصيل ما جرى أمس بيني وبين القنصل. لم أخبرها إلا الآن، عندما دعوتها للتنزه على شاطئ النيل عند بولاق، حيث افتتح رجل إيطالي مؤخرًا كازينو جميلًا أسماه (كازينو ڤينسيا)، وتذكرت ما قاله نوبار بك قبل سفره بأن الأوروبيين وفدوا إلى مصر بكثافة، وأنها صارت الملجأ الأمين لهم، بعد أن أحرقت نيران حرب القرم دورهم وكنائسهم وملابسهم.

مع تدفق أمواج النسيم المنعش قبل الغروب طارت قبعة مرجريت فجأة، فهرول الجرسون وأمسك بها، فشكرته، والتفتت نحوي وسألتني بنبرة تشع بحزن عميق:

- ماذا سنفعل مع هذه الكارثة يا وليام؟

كان الصوت الشجيّ للناي يقترب أكثر، حيث أمسى المركب بقلعه الكبير بمحاذاة شاطئ النيل أمامنا مباشرة، فتأملت العازف ذا الوجه الأسمر الغامق وقلت لمرجريت، وأنا أشير نحوه:

- لعل هذا الرجل البسيط أسعد منا!

فتعجبت ورمتني بنظرة استفهام وغمغمت بيأس:

- كل الناس أكثر سعادة منا الآن، فقد ألقى القنصل الملعون بذرة التعاسة في صدرونا يا زوجي الحبيب.

فرفعت راحتها ولثمتها بحنان وقلت لها وأعني كل حرف:

- لا تقلقي يا حبيبتي... لن يلمس هذا الألباني شعرة من بسيمة مهما كلفني من أمر، فهي ابنتنا الجميلة التي أخلصنا في تربيتها وتعليمها وتثقيفها وتنشئتها.

فلمعت عيناها فرحًا من إصراري، وسألتني بلهفة:

- كيف ستتعامل مع أوامر القنصل؟

فاستنكرت بحدة:

- أنا لا أتلقى أوامر من أحد، حتى لو كانت الملكة ڤيكتوريا نفسها. أنا الدكتور وليام براون، وإلا نسيت؟

فطبعت قبلة على راحتي بحنان واستدركت بنبرة متوترة:

- آسفة يا حبيبي آسفة... لقد خانني التعبير.

فطوقتها بذراعي لأمتص توترها، فالأحضان أفضل علاج للتوتر، وقلت لها وأنا أرنو إلى النيل الرائق:

- مثلما أخفيت عليوة عن شرطة الوالي شهورًا،سأجد طريقة حتمًا لحماية بسيمة من البغل الألباني وتابعه قنصلنا المهيب للأسف الشديد!

ثم همهمت:

- حتى لو هبطت مصرفجأة الملكة ڤيكتوريا نفسها وبرفقتها وزير الخارجية والحكومة الإنجليزية كلها وأمروني، فلن تتزوج ابنتنا هذا الأدهم أبدًا!

* * *

مرجريت براون

ما هذا؟ جنود الوالي يقتحمون دارنا بملامحهم الغليظة يتقدمهم أدهم بك شاهرًا سيفه. مطبوعة على ملامحه آيات الفوز والغطرسة. جفلت. اضطربت. صرخت. اعترضهم وليام بعصبية فضربه أحدهم بكعب بندقيته فشجّ رأسه وأسقطه أرضًا، فانجرح فؤادي وبكيت. حاول برقوق الدفاع عن زوجي، فأمسكوه وضربوه وبصقوا عليه وقيدوه بسلاسل حديدية. سألوا بعنف وبكل اللغات... العربية والإنجليزية والتركية: (أين بسيمة؟ أين بسيمة؟). فتشوا الغرف. أشاعوا الفوضى.حطموا التحف. مزقوا اللوحات. وفي النهاية عثروا عليها مختبئة تحت البيانو. صرخت فيهم: لا تقربوها. هرعت نحوهم. دفعوني فانكفأت على وجهي وأنا أرتجف وأصرخ فيهم: (لا تلمسوني... أنا مرجريت براون... أنا إنجليزية). حملوها بالقوة كيمامة صغيرة بينما صراخها يمزق الأفئدة. فجأة ظهر القنصل نازلًا من الطابق الأعلى. تعجبت... هل كان يبيت معنا؟ توجه نحو زوجي الذي طفق يمسح الدم عن وجهه ورأسه وقال له بنبرة تشفٍ حقيرة: (هل تظن نفسك قادرًا على خداع الإمبراطورية الإنجليزية بأسرها؟ لقد كشفنا ألاعيبك يا وليام). ثم نظر إلى أعلى وهتف:(هاتوا عليوة)، فانهمر من الطابق الثاني جيش من جنود الوالي كالجراد وهم يجرون عليوة جرًّا. قدماه مقيدتان والدم يسيل بغزارة من أنفه. اعتراني الفزع. متى استولى هؤلاء الجنود الأوغاد على الطابق الثاني؟وكيف توصلوا إلى مخبأ عليوة بدرب قرمز؟ ومتى أتوا به إلى هنا؟ اقترب القنصل من الجنود الذين يحملون بسيمة وتلقفها منهم، فبدت كعصفورة ذليلة، وهمس في أذنها بعبارة لم أسمعها، لكن الذعر الذي يطل من عينيها فتت أعصابي. توجه بها نحو أدهم بك وأعطاها له وقال: (هديتي لك... ألف مبروك). رنوت إلى وليام مستنجدة وصرخت: (نحن إنجليز وبسيمة صارت إنجليزية، فليس من حقكم الاعتداء علينا أو إيذاؤنا)، فبادلني نظرة أعرفها جيدًا... إنه يدعوني إلى التماسك والصمت، فلم أستطع وصرخت بأعلى صوتي: (اتركوا ابنتي... اتركوا ابنتي)، وصحوت مفزوعة، وأنا أتصبب عرقًا ورعبًا.

لم أحتمل ضغط هذا الكابوس على أعصابي عندما استيقظت قبيل المغرب، فبحثت فورًا عن بسيمة، فوجدتها منهمكة في العزف على البيانو، فاحتضنتها بقلب يخفق بالقلق وطلبت منها ألا تغادر الدار لأي سبب. ثم ارتديت ملابسي سريعًا وذهبت إلى زوجي في العيادة طلبًا للأمان. انتظرت مضطرة حتى ينتهي من الكشف على مريض مسن كما أخبرتني ڤيرجينيا. مرت خمس دقائق كأنهاخمس سنوات كلها تفكير وعرق وحرق أعصاب. وما إن خرج المريض حتى دخلت على ويليام وقصصت عليه وقائع أسوأ كابوس لوّث تاريخي مع نعمة النوم، وكلما استطردت في القص تملكتني رعشة مزعجة، فضمني إلى صدره ولثم

جبيني بحنان وقال: (لا تقلقي... لقد أكدت لك مرارًا... نحن إنجليز، ولن يستطيع الوالي عباس أن يلمس ظفر أي منا).

أقبل الليل واستقر وانتصر على نور النهار، فصالت وجالت بحرية النسمات المنعشة في سماء القاهرة. واقترح وليام أن نتجول في الغورية قليلًا، قبل أن نعود إلى البيت حتى تهدأ أعصابي وهمس مشجعًا: (السير يمحق التوتر).عند خروجنا من العيادة سألتني ڤيرجينيا بقلق:(هل أنت بخير سيدتي مرجريت؟) فاكتشفت أنني أخفقت في إخفاء ما يمور في نفسي من وجل وارتباك حين اقتحمت غرفة زوجي، فالتفتُّ نحوها وأنا أربت كتفها: (شكرًا جزيلًا عزيزتي.. لا مشكلة).

غادرنا العيادة في اتجاه جامع الأزهر، مررنا بمجموعات مختلفة من الأطفال تمرح وتلهو ببراءة مستمتعين بالهواء الطري بعد انقضاء نهار قائظ سخيف. ولما وصلنا إلى وكالة الغوري، تلقينا تحية طيبة من المعلم إلياس الدمشقي الذي وقف حزينًا أمام مقهاه، فهمس زوجي: (الغلاء دمر أعصاب الناس وحبسهم في دورهم وبيوتهم، حتى المقهى بات محرومًا من الزبائن، أرأيت النظرة التعسة للمعلم إلياس؟)، فأشرت بالإيجاب وقلبي محزون. انعطفنا يسارًا نحو الغورية، فغزتنا روائح الكمون والفلفل مقبلة من جهة دكان العطار الكائن على ناصية حارة السكرية. ورغم حلاوة الطقس الليلي، فإن المنطقة لم تستقبل سوى قلة قليلة من السابلة، فانعكس ذلك على وجوه الباعة التي لاحت حزينة يائسة تحت أنوار القناديل المتناثرة هنا وهناك.وعاد زوجي يقول بأسى: (لم أر التعاسة تعانق المصريين طوال عشر سنوات مثلما رأيتها في العامين الأخيرين. إن الوالي عباس نجح في إذلال الناس بكل أسف). بعد تجاوزنا جامع(السلطان المؤيد شيخ) توقف زوجي عند بائع أوانٍ فخارية يعرض بضاعته بجوار بوابة المتولي، فابتاع قنينة رقيقة وأهداها لي، وهو يهمس: (لا تقلقي يا حبيبتي، فأنا معك).

تبدل مزاجي تمامًا بعد هذه الجولة الليلية، ومحوت الكابوس وسخافاته بإشارة من عقلي، وعدت إلى الدار مسكونة برغبة عارمة في التحليق. احتضنت بسيمة بقوة وقبلتها ودعوتها لتشاركني في إعداد العشاء بعد أن طلبت من أم السعد أن ترتاح الليلة. لقد غمرني شعور جميل بأن أعد عشاء زوجي بنفسي. وجاءتني بسيمة إلى المطبخ، وهي ترفع كتابًا صغيرًا إلى أعلى وتهتف:

- لقد أعطاني اليوم مدرس اللغة العربية درسًا لطيفًا في النحو... وهو أن الباء تدخل على المتروك.

فلم أفهم شيئًا، وسألتها:

- كيف؟ اشرحي ما تقصدين وأعطني مثالًا.

فتقمصت دور الأستاذ ونطقت بطريقة ظريفة أبهجتني:

- لو سمعنا أو قرأنا أو كتبنا أن شخصًا ما قد استبدل العنب بالبطيخ أو الماء بالخروب، فعلى الفور ندرك أنه ترك البطيخ وأخذ العنب في الأولى، أو أنه تناول الماء وترك الخروب في الثانية، لأن حرف الباء دخل على البطيخ فنتركه، كما دخل على الخروب فنتركه أيضًا.

فأعجبني ذكاؤها ولثمت وجنتها بحنان، وقلت لها بالإنجليزية:

- Very good

ثم أضفت وكلي فرح وسعادة:

- بالفعل لم أكن أعرف هذه القاعدة من قبل، لذا أنا واثقة بأنك ستتفوقين في دراستك يا حبيبتي، وربما بلغت مستوى رفيعًا في الأدب.

فتورّد خداها من الثناء، فطمأنتها وأنا أقلي البيض:(مهما حدث يا بسيمة،فلن تتزوجي إلا عليوة، ومهما فعل أدهم بك فلن يفلح في قطف زهورك مادام قلبك ينفر من ذكر اسمه). تفاجأت الصبية واندهشت من سعادتي، لكنها اقتسمتها معي فتهلل وجهها بالإشراق. أعددت السلاطة والبيض والجبن بهمة وفرح. أكلت بشهية مفتوحة وأنا أرنو إلى زوجي بامتنان بين الحين والآخر. وقلت لنفسي الرجل العاشق كنز ثمين للمرأة ينبغي ألا تفرط فيه أبدًا. واقتنعت تمامًا أنه لا أمان لامرأة دون حضن رجل كريم مفتون بها.

بعد تناول العشاء،صعدنا إلى غرفتنا متعانقي الكفين، وتناولنا القليل من الويسكي. ضمني إلى صدره برفق ولثم راحتي وشفتي بهدوء شديد، فارتعشت وانهمر شلال من السرور في جسدي الذي تفتحت مسامه لاستقباله بلهفة، وبحركة سريعة مفاجئة تعجبني كثيرًا نزع عني ملابسي تمامًا، فانطلقت الملحمة الكبرى وسط معزوفة ناعمة من الشبق، كأننا نلتقي على سرير الحب للمرة الأولى. قبّلني وقبّلته. أعطاني وأعطيته. احتواني بحنانه ورقته، وشربته بشفتيّ ولساني، امتصني بجنونه وأعصابه وأعضائه، وأكلته بأصابعي وتنهداتي وصرخاتي، حتى تزلزل جسدانا في نهر التأوهات اللذيذة، فتكومت في حضنه كطفلة مسالمة وانزلقنا بسهولة إلى مملكة النوم الهانئ.

* * *

لم يكن الطقس حارًّا هذا الصباح؛ إذ إن دفقات من الهواء الطري تسللت عبر نوافذ الدار فأغرتني بالخروج لمعانقة الحواري والأزقة. هكذا اصطحبت بسيمة معي وتوجهنا نحو سوق الغورية، وخلفنا سارت أم السعد حاملة بيدها (السَّبَت) المصنوع من الخوص الخالص. لقدرغبت في تلقين ابنتي درسًا في عشق البلد الذي أنبتها، كذلك تدريبها على كيفية انتقاء الخضراوات الطازجة والفاكهة اللذيذة، هذا الدرس الثمين الذي تلقيته على يد أم السعد، قبل سنوات طويلة عندما استقر بي الحال هنا في الأزهر، حيث تملكتني رغبة جارفة لأعرف كل شيء عن القاهرة وأهلها وطباعهم وعاداتهم، وكلما أدركت شيئًا ارتفع معدل الشغف في وجداني، فتجولت أكثر في أحشاء هذا البلد العجيب، حتى صرت أعرف جيدًا مواعيد الأعياد الدينية وموالد أولياء الله الصالحين وتقلبات الطقس ومواسم الخضراوات وأسعارها، وقد ساعدتني أم السعد كثيرًا في الإبحار، داخل أزقة وحواري الأزهر والغورية والحسين والدرب الأحمر.

أكثر من عشر سنوات وأنا أمتص القاهرة بناسها وغرائبها وجمالها.. عشر سنوات أفتش عن أسرارها وخباياها، فأكتشف العجائب وأغبط نفسي لأنني عشقت دراسة هذا المجتمع النادر بتناقضاته وأعاجيبه، والفضل يعود للمدرس الذي تولى تلقيني دروس اللغة العربية، عندما أخبرني أنه أقام في القاهرة خمسة أعوام مترعة بالوقائع المذهلة والأحداث الغرائبية. وهكذا مضيت أقرأ عن هذه المدينة وأحوالها، ثم توسعت في القراءة عن مصر وتاريخها الغزير المتنوع العجيب، فانبهرت واعتراني شعور طاغ بحتمية الذهاب إلى أرض النيل.وأذكر جيدًا كيف استقبل وليام رغبتي في زيارة القاهرة والإقامة فيها بحفاوة، عندما التقيته للمرة الأولى في حفل زفاف ابنة خالتي بقصر والدها بلندن. لقد شجعني كثيرًا وهمس في أذني: (أنا أيضًا نويت التوجه إلى مصر لدراسة الأمراض المستوطنة وعلاج أهلها البسطاء).

أذكر جيدًا تلك الليلة الباهرة، وكيف استوقف وليام نادلًا يحمل صينية عليها كؤوس شمبانيا، فأخذ اثنتين وقدم لي إحداهما برقة لافتة، وانتحى بي مكانا قصيًّا بعيدًا عن أصوات المدعوين والموسيقى الصاخبة، حتى بلغنا ممرًّا صغيرًا يفضي إلى شرفة واسعة مزدانة بالورود الزاهية والنباتات الجميلة. بدأت أسمعه وكياني كله آذان صاغية وقلبي مفتوح لاستقبال صوته ذي النبرات المريحة. أذكر أيضًا عباراته التي بدلت حياتي تبديلًا، إذ قال بجدية: (نحن الأطباء في المملكة، وفي أوروبا عمومًا لا نكاد نولي هذه الأمراض المستوطنة الاهتمام الكافي بالدراسة العملية المعملية كغيرها من الأمراض، فالدراسة النظرية وحدها لا تكفي، بل لا تخلق طبيبًا ناجحًا، لعدم الحاجة الملحة إليها، فلا وجود لهذه الأمراض هنا، حتى أطباؤونا الكبار لم يكتسبوا الخبرات الكافية مع تلك الأمراض، لذا بات الانتقال لموطن المرض والمرضى ضرورة إذا شئنا أن نصبح أطباءً أكفاء).

وأذكر كذلك أنني كتبت ليلتها في مذكرتي الخاصة: (أخيرًا عثرت على نصفي الآخر... نصفي الجاد المحب العاشق للناس... نصفي الذي عزف على أوتار قلبي هذا المساء بمهارة).

أجل... نبتت زهرة الحب في قصر بلندن وازدهرت في حواري القاهرة، وأشهد أن وليام ساعدني كثيرًا في تحقيق أهدافي. وهكذا دوّنت حتى الآن مئات الصفحات، التي أتمنى أن أصدرها في كتاب يحمل عنوانا جذابًا مثل (سيدة إنجليزية في قاهرة المعز)، أو (عشر سنوات بصحبة المصريين)، أو (يوميات سيدة إنجليزية في بلد الفراعنة).

في سوق الغورية لفت انتباهي ارتفاع الأسعار، وعزوف معظم الناس عن شراء اللحم والدجاج والسمك والبامية والبسلة والفاصوليا، والاكتفاء بالبطاطس والعدس، كما سمعت بأذني شكاوى النساء ودعواتهن على الوالي وحكومته، وقالت لي أم السعد: (الغلاء كوى صدور الناس يا ست هانم)، وحزنت حين رأيت امرأة عجوزًا تبيع الفجل والجرجير والبصل، وترجوني أن أبتاع أي شيء، إذ لم يشتر منها أحد حتى الآن، ولأنني قد اشتريت هذه الخضراوات قبل قليل من أحد الباعة، فقد اكتفيت بإعطائها قرشًا واحدًا دون شراء، لكنها رفضت تمامًا، وقالت بحدة: (أنا لا أقبل صدقة، أنا بائعة خضراوات)، فشملني خجل، وأكبرتها وانحنيت لأنتقي من بضاعتها الأكثر طزاجة، وفي طريق عودتنا قلت لبسيمة:

- أرأيت هذه البائعة الرائعة، إنها تتمتع بنفس عزيزة... رفضت أن تحصل على نقود بلا مقابل، فلتتعلمي منها فضيلة التعفف، لأنها الفضيلة الأهم التي تمنحك نعمة مصالحة الذات والضمير والزمن، وهي أكبر النعم لو تعلمين.

لا أدري، هل استوعبت ما قصدته كاملًا أم لا؟ لكنها هزت رأسها بالإيجاب وأفصحت عيناها عن وعي وذكاء، وأنا أثق بلغة العيون لأنها أصدق اللغات وأكثرها شفافية، فرنوت إليها بمحبة وسألتها، ونحن نتجاوز جامع الأزهر في اتجاه الدار:

- بسيمة... هل تحبين عليوة؟

فصاحت:

- جدًّا يا أمي... أنا مفتونة بذكائه وطيبته وحبه للحياة وإصراره على التهام كل لحظة فيها والتمتع بها.

ثم بصوت يشع بنور الحياء:

- وعيناه السوداوان العميقتان تجعلاني أهيم في حدائق الفرح والسرور.

فأهديتها ابتسامة رضا، وضغطت على يدها إعجابًا، وعادوني الشعور بالندم لأنني فكرت للحظة أن أقنع بتزويجها من أدهم بك، وقلت لها:

- أنت مازلت صغيرة يا بنيتي، والزواج مسؤولية كبيرة، لكني متأكدة أنك قادرة على تأسيس بيت سعيد، تزقزق فيه عصافير الحب الرقيقة وترفرف في سمائه طيور التجانس الروحي.

فابتسمت وشكرتني وهمست:

- أحبك جدًّا يا أمي، وبالمناسبة أنا اتفقت مع أربع من صديقاتي وجاراتي أن يحضرن بعد صلاة العصر لأعلمهن مبادئ القراءة والكتابة والحساب والعلوم والعزف على البيانو، وبعض ما تعلمته من حضرتك ومن أبي وحضرات المدرسين، فما رأيك؟

- ولماذا بعد العصر؟

- حتى نفرغ من طعام الغداء ونستريح قليلًا، قبـ...

فقاطعتها متظاهرة بالرفض:

- هذا وقت الراحة والقيلولة لوالدك، هل نسيت؟

فسكتت في الحال واعتذرت بصوت خفيض، وقالت:

- أنا مخطئة. كان واجب عليّ أن أستأذنك أولًا... آسفة يا أمي.

فربت كتفها ضاحكة من أعماق قلبي، وقلت:

- لا يحضرن بعد العصر، بل يحضرن معنا على الغداء، وبالمرة يتعلمن منك آداب المائدة وكيفية تجهيزها والتعامل الصحيح مع أدواتها ومفارشها. وأنا كلي ثقة بأن صديقاتك ذوات ذكاء فطري مميز، لذا سوف يتعلمن سريعًا.

فطارت من الفرحة، وثنت ركبتيها وتعلقت برقبتي، وقد نسيت أنها صارت عروسًا لا تقوى رقبتي على حملها. ومع ذلك امتلأ صدري بنشوة الأمومة، ورجوت الرب أن يحفظها ويحميها من غدر الزمن والناس، ولما دخلنا الدار، هرع نحونا برقوق وحمل عنا مشترياتنا، وقال بضيق وضجر:

- السيدة كاثرين زوجة السيد بيل تاجر الخمور في انتظارك يا سيدتي منذ نصف ساعة.

فانزعجت بشدة، وتكدس العبوس على وجهي في لحظة، وبذلت جهدًا كبيرًا لتخفيف حدته وآثاره، فهي ضيفتي رغم كل شيء. وتساءلت في سريرتي: ماذا تريد هذه المرأة الثرثارة؟ وكيف واتتها الجرأة لزيارتي دون دعوة أو إذن سابق وهي تعلم جيدًا أن الود بيننا مفقود؟ لكن ما إن رأتني حتى احتضنتني وقبلتني بفجاجة وهي تهتف:

- ألف ألف مبروك يا حبيبتي مرجريت.

ثم ضمت بسيمة إلى صدرها بقوة وقبلتها بافتعال وهتفت:

- ألف مبروك يا عروستنا... تستحقين كل خير، ولن تجدي رجلًا بقامة وقيمة أدهم بك!

فانفجر في شراييني بركان غضب، وسألتها بعصبية دون أن أدعوها للجلوس:

- من أين أتيتِ بهذا النبأ؟

فرمقتني بتعجب، فشعرت بتقزز من ماكياجها الصارخ، وقالت بفخر ممجوج:

- زوجي!

وأردفت سريعًا وهي تلتفت خلفها وتجلب صندوقًا خشبيًّا صغيرًا:

- لذا أحضرت لك مجموعة رائعة من المجوهرات لتختاري بنفسك (شبكة) بسيمة!

ثم أطلقت ضحكة مستفزة وهتفت بخبث:

- ولن أغالي في السعر إكرامًا لك ولابنتك... عروستنا الجميلة!

وبوقاحة نادرة صاحت منادية أم السعد وقالت لها:

- زغردي... زغردي يا أم السعد... عقبى لأولادك!

* * *

المصائب تتوالى، والفضيحة تثمر وتورق في مصر وأوروبا، وتردد خبر زواج بسيمة على كل لسان، ومن عجائب القدر أن اسم عليوة عرفه كل سكان مصر، بينما طار صيت بسيمة حتى بلغ إستانبول ولندن وباريس وفيينا. واليوم تلقيت خطابًا من زوجة نوبار بك أرسلته إليّ من مقر إقامتهما في فيينا تنصحني بعدم الموافقة على هذا الزواج. قرأت الرسالة للمرة الأولى بعقل مشوش، إذ كيف لها وهي تقطن في أوروبا بمعرفة ما يحدث داخل داري؟ وشعرت أنني عارية وأن غرفتي بلا سقف أو حوائط، وأن أسراري مباحة على الملأ، فانتابتني حالة من السخط الشديد. ورغم أن الرسالة قصيرة إلا أنها زلزلت كياني. هكذا جاء منطوقها:

(عزيزتي مرجريت. أتمنى أن تكون أمورك طيبة، وأن تكون السعادة رفيقة دائمة لك.أعرف أننا لم نلتق سوى مرة واحدة، ومع ذلك سمحت لنفسي بالتحدث إليك في هذا الأمر؛ لأنني شعرت بارتياح كبير للجلسة اللطيفة التي ضمتنا عندما شرفت بزيارتك لنا مع الدكتور وليام. لقد تلقى زوجي نوبار رسالة من مصر تؤكد أنك قررت تزويج ابنتك بالتبني "بسيمة" إلى أدهم بك مدير قصر الوالي عباس باشا، ووفقًا لكلام نوبار، فإن ابنتك في حدود الخامسة عشرة، والعريس المنتظر فوق الخمسين ذو زوجات وأبناء وأحفاد، وأتساءل دون أن تظني أنني أتدخل فيما لا يعنيني:كيف خطر في بالك، ولو للحظة، أن طيور السعادة يمكن أن ترفرف حول قلب ابنتك بهذا الزواج غير المتكافئ؟ إن نصيبها من التعاسة سيفوق ما تحتمل هي أو تتخيلين أنت، لذا أرجو إعادة التفكير في الأمر، وأنا أعلم جيدًا أنك سيدة مثقفة جادة، تتنصرين لحق البنت في اختيار شريك حياتها. أكرر اعتذاري لاقتحامي شؤونك الخاصة.

دُمتِ مشمولة بالصحة والفرح. المخلصة مدام نوبار بك).

مزقت هذه الرسالة أعصابي واستقرت حروفها في أعماقي، فغرست في صدري نصل الاكتئاب، وانفردت بنفسي في غرفتي حتى لا تراني ابنتي في هذه الحالة المزرية، ووجدتني أكرر عبارة زوجة نوبار دون قصد (نصيبها من التعاسة سيفوق ما تحتمل)، فينتابني ألم شديد في الروح، سرعان ما يزحف إلى جسدي كله فيصيبه بالوجع، وأدرك أن الأجسام لا تتألم إلا إذا أصاب الروح الأذى.ووجدتني أستسلم إلى تهيؤات بائسة، فأرى بسيمة مكومة بلا حيلة تحت هذا البغل الألباني تصرخ وتتعذب، فأجفل وأتقزز وألعن في زفير واحد الزمن والأيام وأدهم بك والوالي وقنصلنا الهمام.

ولما اقترب موعد عودة وليام من العيادة، هبطت إلى الطابق الأرضي وتوجهت نحو الباب لاستقباله وفي يدي رسالة زوجة نوبار، وفي صدري تضطرم

الهواجس، لكنه لم يكن بمفرده، إذ رافقه أندرو ابن عمي، فخبأت الرسالة في جيب فستاني، ورحبت به ببرود، وأظنه شعر بذلك، حيث قال لي مازحًا:

- ما بك مرجريت؟ لم كل هذا الشرود؟ هل تقمصت دور أم العروس؟

فانتبهت وانزعجت وسألته بسرعة:

- ماذا تقصد يا أندرو؟

-ألست والدة بسيمة؟ العروس الجميلة التي ستتزوج أدهم بك قريبًا.

الخناق يضيق. الكارثة واقعة لا محالة. والبغل الألباني يسرق ابنتي مني بخبث وإصرار. وقلت له بنبرة محايدة:

- هذا أمر يمكن الحديث فيه فيما بعد.

وحتى أقطع عليه فرصة اللغو والغمز واللمز، سألته:

- هل استلمت التعويض؟

فأجاب وليام عنه ساخرًا:

- استلمه اليوم، فصار من الأثرياء وجاء ليودعنا.

فرمقه أندرو بعتاب يكشف عن أنهما تحدثا كثيرًا حول هذا الموضوع ولم يتفقا، ثم قال بزهو:

- سأغادر القاهرة بعد ساعة إلى الإسكندرية ومنها إلى لندن لأؤسس مشروعًا صغيرًا هناك. فهل ترغبين في شيء؟

تبني مجدك على عظام المصريين أيها المحتال. تكذب وتدّعي وتسرق المال كما يحاول البغل الألباني سرقة ابنتي. فلتغادر ولا تعد. واعترتني نوبة اشمئزاز وودت لو تنشق الأرض وتبلعه، وقلت له دون حتى أن أنظر إليه أو أدعوه للعشاء:

- ترافقك السلامة... شكرًا جزيلًا.

فاستغرب من ردي الجاف، وتبادل نظرة مبهمة مع وليام واستأذن في الانصراف رغم أن زوجي حاول إبقاءه ليتناول عشاءه معنا، لكنه أصر على الذهاب. وما إن

صافحه وليام وأغلق الباب خلفه حتى توجهت نحوه ورفعت أمامه رسالة زوجة نوبار وأنا أصيح، بينما جسمي كله رهين الارتعاش المخيف:

- أنا تعبت... أرجوك... ارحمني... وقل لي: ماذا سنفعل؟

* * *

أعرف أنني أزعجت وليام كثيرًا، ولكن ماذا أفعل ومصر كلها علمت بقرب زواج بسيمة من أدهم بك، فلسان السيد بيل يمتد إلى كل حارة وزقاق وسكّة في هذا البلد، وامرأته البليدة ثرثارة تنثر الخبر المشؤوم في كل دار. لقد رفضت بحسم شراء أي شيء من المجوهرات التي عرضتها عليّ، إذ شعرت أن الواقع الكئيب أسوأ من الكابوس الفظيع الذي اقتحم منامي قبل أيام. وزوجي الحبيب يماطل العريس المرفوض ويطلب منه الانتظار، فحتى متى؟ لقد استلم منه بالفعل عشرة آلاف فرنك كمهر لبسيمة، فكيف سيمكنه مقاومة إلحاح هذا البغل الألباني في سرعة إتمام الزفاف؟ أحيانًا أشعر أنني لا أعرف ماذا يدور في عقل وليام؟ إذ يعتريه غموض مفاجئ فيسرح كثيرًا في عالم مجهول، وكأنه رجل غريب لم أستقبله في حضني مئات المرات. ويبدو أن جمجمة الرجل مزوّدةبغرفة خاصة مظلمة محشوة بالأسرار والغرائب، بما يستحيل علينا نحن معشر النساء اقتحامها أو التعرف على خباياها.

لقد سألته غير مرة ماذا ينوي أن يفعل، بعد أن صار خبر زواج أدهم بك من بسيمة مضغة تلوكها أفواه المصريين والأوروبيين والعثمانيين، وذكّرته أكثر من مرة برسالة زوجة نوبار وتحذيرها، ومع ذلك فلم يكن يعطيني إجابات محددة تهدئ أعصابي التالفة. وقبل يومين استلمت رسالة تهنئة من الصدر الأعظم بإستانبول، فجن جنوني وهرعت نحو العيادة وقرأتها عليه بصوت عال، فانفعل ورفع صوته غاضبًا وطلب مني أن أدعه يفكر في إيجاد حل، وأمس وصلتنا رسالة من الوالي عباس شخصيًّا يبارك لنا الزواج المنتظر، ويؤكد أنه سيمنحنا شرف حضور حفل الزفاف بنفسه عندما يتحدد موعده، فاحترق فؤادي كمدًا، ولم أستطع أن أكظم غيظي أكثر من ذلك، فانتظرته حتى تناولنا الغداء، وصعدت معه إلى غرفتنا، وقد بدا عليه الإجهاد الشديد، ومع ذلك وقبل أن يستمتع بقيلولته رجوته أن يطمئن قلبي، وقلت بصوت مرتبك ويائس تمامًا:

- وليام.. أرجوك... أخبرني ماذا سنفعل والمصيبة تكبر وتتضخم أمامي كل يوم، بل كل ساعة؟

أظن أنه شعر بحجم المرارة والألم والحزن المكوم في صدري، فدعاني إلى الاستلقاء بجواره، وضمني إلى صدره بحنان ولثم جبيني وقال بنبرة الواثق:

-لا تقلقي يا حبيبتي. سننجو من الكارثة. بالعقل والتصرف الحكيم يمكننا خداع وحوش الغابة التي نعيش فيها، فنفلت من أنيابهم ومخالبهم. لقد دبرت خطة محكمة ستنقذنا من السقوط في مستنقع الوالي وزبانيته، فقدأخبرت أدهم بك أمس فقط أننا سنبتاع الأثاث من إيطاليا، لأنهم أمهر الأوروبيين في تصميمه وتصنيعه، حتى يليق بمقامه، وأن هذا الأمر سيستغرق ما بين شهرين إلى ثلاثة، وبالتالي استطعت إقناعه بصعوبة بأن الزفاف لن يتم قبل سبتمبر. أما نحن، فسوف نغادر القاهرة بعد 17 يومًا. نحن الآن في 28 يونيو، وأعدك بأننا سنرحل إلى لندن سرًّا،حيث استأجرت ذهبية تبحر بنا من ميناء بولاق إلى الإسكندرية فجر 15 يوليو وأجزلت لصاحبها العطاء.وسنصطحب معنا بسيمة وعليوة، وكذلك سنحمل أشياءنا الثمينة ونترك هذا البلد الطيب للوالي المخبول وأدهم المهووس. للأسف، فقد أزف موعد رحيلنا من مصر المحروسة قبل الأوان. ولكن ماذا نفعل؟لا يعرف أحد متى سيغزوه المرض؟ ولا يوجد قانون ثابت للظروف والمصادفات نستلهم منه قراراتنا وسلوكياتنا، فقد تأتي الظروف كريمة ومعطاءة، وقد تفاجئنا ببخلها وسخافاتها، والإنسان الذكي من يستعد لاستقبال تقلبات الأيام بحكمة ودهاء.

السفر سرًّا. العودة إلى لندن. مغادرة مصر نهائيًّا. ما الذي يقوله وليام؟ وشعرت بمطارق تهوي على رأسي، فالتصقت به أكثر وسألته، وأنا أعلم الإجابة مسبقًا، لكنه بصيص الأمل الغامض الذي يعبث بالصدورالمعتمة في لحظات اليأس:

- ألا يوجد حل بديل؟ إنني لا أتخيل سماءً أخرى تظلل أيامي غير سماء القاهرة. فقد شغفتني مصر حبًّا. ولا أتخيل نفسي أسير في حواري وأزقة غير الأزهر والغورية والحسين ودرب قرمز والدرب الأحمر. صدقني يا وليام... لقد أنستني مصر وشعبها لندن وناسها ولم يبق لي منها إلا الذكريات.

فأجابني بصوت حزين:

- أحيانًا يصبح البتر هو الحل الأمثل للمريض، ومصر كلها مريضة في زمن هذا الوالي وحاشيته، ولن تنجو ابنتنا من المصير المعتم إلا إذا انتزعنا زهرة غرامنا بالقاهرة من قلوبنا. أعرف جيدًا أن حب مصر وأهلها بات في عظامنا، ولكن ما الحيلة وحبل السلطة يقترب من أعناقنا حتى كاد يخنق ابنتنا. هل نقف مكتوفي العقل والتفكير؟

فشعرت بأن الدموع تسيل في قلبي، وعدت أسأله بحسرة واستنكار:

- وأموال أدهم بك؟

فتفكر قليلًا وقال:

- سأتركها مع ڤيرجينا كي تسلمها للقنصل فور سفرنا فيعيدها إليه، ولكن حذار يا مرجريت، إياك أن تخبري أي مخلوق بخطتنا هذه، ولا حتى بسيمة!

فحذرت نفسي وحركت رأسي بالموافقة، وللمرة الأولى يغمرني الأمان بعد أيام من التوتر اللامحدود، وانتابني شعور لذيذ بالفرح لأن زوجي رجل طيب وذكي، يراعي مشاعر الأمومة المزدهرة بأعماقي ويحمي بسيمة من الضياع في حظيرة هذا البغل الألباني. ووجدتني ألتصق به أكثر وأكثر، ومددت يدي لأعبث بشعر صدره، فقد بدأت تسيل مياه الرغبة في جسمي كله. كنت أريد احتواءه بقوة، لكنه أبعد راحتي برفق ولثمها برقة شديدة، وقال بصوت مكدود:

- معذرة مرجريت، فلنؤجل ممارسة الحب إلى الليل، فأنا متعب جدًّا وفي حاجة إلى النوم.

فباخت شهوتي، وحزنت، لكنني قدرت تعبه، ومنحته قبلة سريعة في شفتيه وتركته يستمتع بقيلولته.

* * *

بدر الدين أباظة

ابن الكلب.

فص ملح وذاب. فرّ هاربًا. اقتنص التعويض واختفى، وقال لي مسؤول لوكاندة نيقوسيا بالأزبكية أنه دفع حسابه وغادر أول أمس ليلًا، بعد أن أجزل له العطاء في البقشيش. أي في الوقت الذي جلست أنتظره فيه في بار الإيجبسيانة ولم يأت. الكلب ابن الكلب، خدعني... زعم أنه سيستلم التعويض بعد أسبوع، ودعاني إلى الشراب في تلك الليلة ولم يفِ بوعده. كيف صدقته؟ أين حذرك وحرصك يا بدر الدين؟ حتى النقود التي اقترضها منك لم يعدها. غبي. والله العظيم أنا غبي.

طرقت أبواب جميع لوكاندات الأزبكية التي ينزل فيها الأجانب، وعبرت النيل نحو منيل الروضة، فثمة بعض اللوكاندات المطلة على النيل، ووصلت إلى بولاق، فلعله مختبئ في أحد الأسبلة هناك. لا أثر لشاب يدعى أندرو. لم يسمع أحد عن شاب إنجليزي مرّ من هنا اسمه أندرو. هل كنت أصادق شبحًا؟

ابن الكلب.

يومان من البحث الدائم في أزقة القاهرة وأحيائها ولوكانداتها وخماراتها دون جدوى، ومررت على خمارة مكاوي الشال بالدرب الأصفر، حيث اصطحبته إلى هناك غير مرة لتناول البوظة، عسى أن أعثر على خبر بشأنه فلم أفلح، حتى الذين يعملون في بار الإيجبسيانة أكدوا لي أنهم لم يروه منذ أسبوع! يومان والشمس الحارقة لا ترحم وتفاقم من شعوري بالغيظ.هكذا أمسيت ضحية ساذجة يعبث بها محتال إنجليزي طوال شهور، ويشقيه الآن الحر واللزوجة والهواء الساخن. ما أتعسك يا بدر الدين. واليوم أوقفني فجأة شيخ الحارة حسنين شيحة عند وكالة الغوري وأنا في طريقي إلى فردوس، وهتف مهللا: (ألف شكر يا دكتور بدر الدين... البنت حُبلى)، فلم أفهم، فسألته: (أي بنت؟)، فقال: (زوجة عبد الراضي)، فكاد الغضب يفقدني صوابي، فسألته وأنا أحاول الاحتماء من نار الشمس الحارقة تحت ظل الوكالة: (مَنْ عبد الراضي؟)، فاستنكر معاتبًا: (ابني... الوصفة التي نصحتني بها أتت بنتائج طيبة، والولد دخل على زوجته وربنا وفقه، وهي في شهرها الثالث الآن... ألف ألف شكر، الفضل لك بعد الله سبحانه وتعالى).

وكظمت غيظي، وقلت في سريرتي (ملعون أبوك وأبو ابنك على البنت، مالي أنا ومال ابنك وزوجته... أنا في كارثة يا أولاد الكلب، اتركوني وشأني). وعدت إلى

فردوس في حارة الحمزاوي بائس الحال منهك القوى متسربلًا بالخجل، واستقبلتني بحنان كبير وعتاب قليل وقالت مواسية: (لا تحزن... ما يقع إلا الشاطر... بعض الأجانب أهل مكر). ورغم أنني لا أحتمل أبدًا أن يراني أحد عاريًا إلا في سرير الغرام، غير أنني استسلمت لها وتركت جسمي بين أناملها تدعكه بالليفة وتزيل عنه العرق والرائحة النتنة والتوتر بالمياه والصابون والحنان، ومع ذلك لم تستطع، لا المياه ولا الصابون ولا العطف من إخماد نار الثأر المتأججة في صدري.

فكرت للحظات أن أقترض من فردوس مبلغًا من المال وأنطلق إلى لندن للبحث عنه، فأنا أعرف لندن جيدًا، لكن الفكرة وئدت في مهدها. فمن أدراني أنه عاد إلى لندن أصلًا؟ ربما توجه إلى باريس أو روما؟ إنه خبيث... لئيم يدرك أنني أعرف لندن جيدًا، فلن يلجأ إليها. وفكرت أيضًا أن أسأل عنه الدكتور وليام، لكنني خشيت مواجهته، فقد طردني من عيادته ولن يستقبلني مرة أخرى أبدًا، وإذا وافق، فلن يزودني بأي معلومات ذات قيمة أو فائدة عن عديله.

أذعنت للنوم طويلًا من فرط الإجهاد، ثم استيقظت قبل أذان الظهر غارقًا في العرق مرهقًا بالأحلام المشوشة التي لا أتذكر منها شيئًا واضحًا. أعدت لي فردوس إفطارًا شهيًّا فلم أتناول إلا القليل، لكني رفعت القلة وتجرعت الكثير من الماء البارد. اتخذت مجلسي على الكنبة خلف المشربية، وأنا أحسو القهوة بمزاج عكر وروح منكسر يعذبه شعور طاغ بالهزيمة المجانية. ألقيت نظرة عامة على العابرين في حارة الحمزاوي بلا اهتمام، لكني لمحت رجلًا أجنبيًّا يبتاع العرقسوس، فلمعت في رأسي فكرة أن أهرع لسؤاله عن الكلب الذي خدعني، لكني استسخفت الفكرة، وتنهدت، وسألتني فردوس التي كانت تراقبني دون أن أنتبه فيما يبدو:

- هه... ثم ماذا؟

فرمقتها طويلًا وبرقت في رأسي فكرة وأنا ألمح أساور الذهب تزين ساعدها الأيسر، فقلت:

- هل من الممكن أن تعطيني سوارًا لأرهنه؟ وسأفك رهنه وأسترده سريعًا وأقتني لك مثله عندما أحقق هدفي.

فقطبت حاجبيها واقترحت حلًّا مفاجئًا في صيغة سؤال:

- هل تريد أن تنشئ عيادة لعلاج المرضى؟

- لا... لا... لا... سأبحث عن عليوة... سأؤجر رجالًا مع ربيع المغاوري يجوبون المحروسة شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا حتى يظفروا به. لقدرفع الوالي قيمة المكافأة إلى 500 جنيه.

فأعرضت برأسها امتعاضًا وقالت:

- دع عليوة وشأنه... لا تناصر الحاكم الظالم على ابن بلدك المسكين. ولا تكن ساذجًا فتحاكي التاجر الذي أفلس، ومضى يفتش في دفاتره القديمة لأنك لن تجد عليوة.

ثم دنت وأخذت مني قدح القهوة الفارغ ووضعته جانبًا، وأكملت بحسم وحنان وإغراء:

- انصت لي يا بدر الدين... أنت تعلمت الكثير عن مهنة الطب في المدرسة بلندن وفي عيادة الدكتور وليام هنا، كما أنك بذكائك ومظهرك ومشوراتك الطبية الناجحة تتمتع بثقة ورضا وتقدير أهالي الحي، فلماذا لا تؤسس عيادة صغيرة تعالج فيها أبناء الحسين والجمالية والأزهر؟ إن المرض يزحف بقسوة على أجساد الناس فيذلهم ويفتك بهم.

فتفكرت مليًّا، وشملتني نوبة سخرية من حالي ومن الزمن والناس والطب والعاهرة التي بجواري وقلت لنفسي... معذرة يا فردوس. مضطر أن أخدعك. أن أكذب عليك. أية عيادة أيتها الساذجة؟وهل تظنين أنني أملك علم طبيب ومهارته؟ لقد أخفقت في دراستي يا جاهلة، فكيف أمارس مهنة الطب دون الحصول على شهادة رسمية معترف بها؟ ألا تعرفين أن الوالي عباس عاد واهتم بمجلس الصحة الذي أنشأه الطبيب الفرنسي كلوت بك في عهد محمد علي؟ وأن هذا المجلس المكون من الأطباء الأوروبيين فقط، وبينهم وليام، فرض عقوبات مشددة على من يمارس الطب دون الحصول على شهادة رسمية؟ وأن نوبار بك الذي أداره منذ عام 1850 أصدر قرارات حازمة تودي بمن يخالفها إلى السجن، كما قال لي الدكتور وليام في الأيام الخوالي قبل أن يفسدها أبوالمكارم أو عليوة لا أدري. صحيح أن الأوروبيين منشغلون بصحة رعاياهم هنا، لكنهم يقفون بالمرصاد لأي وباء أو مرض فتاك، يتعرض له المصريون حتى لا تصيبهم العدوى. هل نسيت وباء الكوليرا الذي عصف بأهل مصر منذ أربعة أعوام؟ كيف تعلمين كل ذلك، وأنت هنا لا تفعلين شيئًا سوى منح ثدييك لمن يدفع. حقًّا...المرأة كائن لذيذ وضروري لكنه محروم من نعمة العقل الرشيد. وصدق الرسول الكريم عندما قال عن النساء: (إنهن ناقصات عقل ودين).

اقتربت منها وأحطت خصرها بذراعي ولثمت خدها بحنان، وقلت بحماسة

مفتعلة مدعيًا الامتنان لفكرتها العبقرية:

- أشكرك جدًّا يا فردوس يا حبيبتي... فكرة مدهشة... سأنشئ عيادة هنا في الحسين. أرجوك أعطني سوارًا لأبدأ فورًا في تنفيذ المشروع.

فانتزعت من ساعدها واحدًا بالاستعانة برغوة الصابون حتى لا تجرح يدها أو أصابعها، وناولتني إياه عن طيب خاطر، مقرونًا بدعاء أن يوفقني الله في عملي، راجية من المولى أن أنسى عليوة وأتفرغ لمهمتي الجديدة، بينما قلبي يرقص طربًا وسرورًا وقلت لنفسي: (المال يصلح الأمزجة الفاسدة، حتى لو جاء عن طريق الاحتيال على امرأة).

* * *

ضحك ربيع المغاوري حتى ظهرت كاملة أسنانه الصفراء المقززةوقال ساخرًا بغلظة:

- تذكرتني بعدما هجرك صاحبك الإنجليزي!

فانزعجت بشدة، كمن انغرزت في جوفه شوكة سمكة، فسيرة أندرو تشعرني كم كنت ساذجًا وغبيًّا. لكني كظمت غيظي ولم أعلق على ملاحظته الخشنة، فمصلحتي معه، فهو القادر على الإمساك بعليوة إذا أخلص في البحث. ومن أجل الظفر بالمكافأة السخية عليّ أن أهضم الطوب المنطلق من لسانه، وقلت له ونحن نتجرع البيرة الباردة في بار الإيجبسيانة:

- عزيزي ربيع... دعنا ننفذ خطتنا القديمة التي أهملناها بكل أسف. إن الوالي رفع قيمة مكافأة القبض على عليوة إلى 500 جنيه كما هو مكتوب في الفرمان المعلق على جدران مصر كلها. وأنا أطلب منك أن تستأجر ثلاثة شباب، يرابضون أمام دار الدكتور وليام وعيادته طوال 24 ساعة كعسس خصوصي أعني.

فحدجني بنظرة غامضة وعدّل من وضع طاقيته بحركة لا شعورية وضاع في الصمت للحظات، ثم سألني مستنكرًا بلسان ثقيل:

- لماذا تصر على أن أبا المكارم هو عليوة نفسه؟

فرنوت إليه بتركيز شديد وقلت في نفسي: إنه الأمل يا غبي. إنها الرغبة في تذوق طعم النجاح ولو مرة. الإخفاق صار رفيقي التعس في دروب الحياة. أخفقت في الدراسة... في العمل... في نيل احترام أبي... في الفوز بقلب ڤيرجينيا... في

اكتشاف حيّة الغدر المختبئة تحت جلد أندرو... حياتي كلها سلسلة من الإخفاقات البائسة. وبعد أن أنهيت ما في الكأس من بيرة طلبت كأسًا أخرى وأكدت له بثقة:

- إن كل الشواهد تؤكد ذلك، كما أن حدسي ينبئني بأنهما اسمان لشخص واحد.

وبحدة هتفت:

- أنت عليك تنفيذ ما أطلبه منك مقابل أجر. وأجر سخي بغض النظر عن النجاح أو الفشل.

ففتح فمه على ابتسامة لزجة ورمى عبارة غليظة مثل الزلط وقال:

- طبعًا تحت أمرك يا بدر الدين... أعلم أنك صنعت ثروة من وراء عملك مع الدكتور وليام، وتريد زيادتها، وهذا حق لك.

فتجاهلت هذا الغمز البغيض، ولفتُّ انتباهه إلى ثلاث نساء جميلات دخلن البار للتو، وأشرت إليهن قائلًا بصوت خفيض:

- انظر.. استمتع بالسيقان والنهود والمؤخرات الساحرة الأصلية.

فاستدار خلفه وصاح بينما الانبهار يطل من عينيه:

- يا خبر أبيض... إنهن شبه عاريات. فعلًا الصيف صديق وفيّ للرجال لأنه يفصح عن جمال النساء!

ثم غمغم كمن يندب حظه بحسرة وهو يطيل النظر في إحداهن كأنما ربطت عيناه بحبل إلى مؤخرتها:

- من سوء الطالع أن زوجتي لا علاقة لها بالأنوثة المزدهرة هنا في البار.

فضحكت وقلت له، وأنا أعطيه عشرة قروش كاملة:

- هذا أجر أسبوع من المراقبة. كل شاب له قرشان، أما نصيبك أنت فأربعة قروش. وإذا تحصلت على أية معلومة آتني بها فورًا، حيث أقيم في دار فردوس بحارة الحمزاوي.

فتعجب وسألني باهتمام:

- هل تركت دارك بالغورية؟

- أبدًا... لكني لا أود البقاء قريبًا من أهل المنطقة هناك، بعد أن طردني الملعون وليام.

فجاملني وهتف ساخرًا وقد عبثت برأسه الخمر:

- فليذهب وليام وجميع الأطباء إلى الجحيم... إن لنا في العطارة والوصفات الشعبية كل دواء ناجع يا دكتور.

فضحكت بشدة، وانطلق صوت في عقلي يردد: مازالت علاقتنا بالعلم باهتة وضعيفة، وهذا الجاهل لا يعرف شيئًا عن عالم الطب وتطوراته المذهلة،ثم مددت راحتي اليمنى ووضعتها فوق راحته لتعزيز التحالف بيننا، وقلت له وأنا أضغط على كل حرف من باب إغرائه وحثه على إنجاز المهمة بجدية:

- ربيع... سأعطيك 100 جنيه دفعة واحدة، إذا وقع العصفور في الفخ.

* * *

لا أظن أن مصر تعرضت لطقس سئ بمثل هذه الدرجة من قبل، فالشمس تكوي الرؤوس والأبدان بحرارتها اللاهبة، والهواء يلسع الوجوه بسخونته البغيضة، ولا أمل في السماء يشير إلى قرب مرور غيمة تحجب نار جهنم هذه ولو قليلًا. وفردوس قررت ألا تغادر الليلة لبيع بضاعتها الجسدية، بعد أن فاجأتها الدورة الشهرية في الظهيرة. لقد اضطرت إلى ممارسة الدعارة بعد توقف دام شهورًا إكرامًا لي وطمعًا في الزواج بي، لكن عندما لاحظت عزوفي وانصرافي عن الاقتران الرسمي بها، عادت إلى بيع اللذة السرية إلى الرجال الشبقين زاعمة أن مالها كاد ينفد، فلم أستطع منعها، فأنا في أمس الحاجة إلى ما تربحه من نقود! قلها يا بدر... قلها... لقد تحولت إلى قوّاد رخيص!

أجل... أجهدتها الدورة الشهرية فاستسلمت للنوم فور تناول الغداء. مسكينة المرأة... تشقى كل شهر بهذه الدورة، فتتوتر مشاعرها وتفقد أعصابها، وويل للرجل إذا رغب فيها وهي أسيرة تقلصات البطن، إذ سيلقى من النفور ما يجعله يكره كل نساء العالمين. ومضت بي الأفكار حول المرأة إلى أبعد من ذلك، وأنا أتأمل أهالي حارة الحمزاوي والعابرين فيها من خلال جلستي المفضلة خلف المشربية.

هل سمح الله عز وجل للرجل أن يتزوج بأكثر من امرأة بسبب كابوس الدورة الشهرية هذه؟ لِمَ لا؟ إن الشاب لا يحتمل الحرمان الجنسي لأكثر من يوم أو اثنين، وبالتالي يجب له الزواج بأكثر من واحدة وإلا فسد مزاجه وانهارت أعصابه، فإذا تعطلت هذه بسبب الدورة لجأ إلى الثانية ليقضي وطره منها، وإذا نفرت زوجة منه لسبب أو آخر، هجرها وغازل الثانية أو الثالثة واستمتع معها برعشة الجسد. إنها حكمة الله في عباده، فلا يجوز أن يترك الشاب يتعذب في نيران الحرمان الجنسي لأكثر من ليلة واحدة. حقًّا إنه الغفور الرحيم، رغم أن كثيرًا من النساء لا يدركن ذلك، ولا يعرفن شيئًا عن الزلزال الذي يرج جسد الرجل رجًّا كل مساء، هذا الزلزال لا يهدأ إلا عندما تصدح أنغام الجسدين معًا. وتذكرت شكوى ربيع المغاوري ذات يوم من أن زوجته تمتنع عنه وترفض اقترابه منها منذ أسبوع؛ لأنه لم يقتن لها خلخالا كما وعدها، ورغم أنه أقسم لها بتنفيذ وعده فور استلام راتبه، إلا أنها أصرت على هجر الدار وذهبت إلى دار أبيها تاركة له أبناءهما. آنذاك جاءني مقهورًا لاعنًا زوجته بعد أن وصفها بالغبية؛ إذ صب عليها جرعة من الشتائم لو سمعتها ما عادت إليه أبدًا.

ولعبت برأسي الأحلام، وقررت أن أتزوج اثنتين عندما أحصد المكافأة، وربما أزيد عليهما بواحدة، فيصبح نصيبي من النساء ثلاثًا، وسأؤسس دارًا كبيرة هنا في الحسين، أو ربما في الأزبكية، هذا الحي الراقي النظيف الذي يسكنه الأجانب، وسوف أخصص لكل واحدة من زوجاتي جناحًا منعزلا حتى لا يشتبكن في عراك، فالمرأة كائن غيور لا تحتمل أن تشاركها امرأة أخرى في زوجها. كما سأنشئ تجارة ما تدر عليّ ربحًا وفيرًا، وسأفكر في نوع التجارة فيما بعد، أما الآن، فأرغب في الحصول على سوار ذهب آخر من فردوس لأرهنه، فقد تناقص المال في جيبي، فبم أخدعها هذه المرة؟ وخطر في بالي سؤال مفاجئ: هل ستكون فردوس إحدى زوجاتي الثلاث؟

إنها طيبة وشهية وكريمة، لكنها داعرة، والكل يعرف ذلك، فكيف أحيا إذا التصق بي وصف زوج الداعرة؟ صعب جدًّا. كما أنها عاقر، وأنا أرغب في الذرية. لا يا فردوس... لن أستطيع ضمك إلى حريمي المقبلات، ولكني سأعوضك خيرًا عندما تصبح المكافأة في جيبي. آه... إنها ستصير أربعمئة فقط بعد أن يحصل ربيع على نصيبه. انزعجت من هذه الخسارة، لكني قلت في بالي: لا بأس... أربعمئة جنيه مبلغ معتبر أيضًا.

أفقت على صوت سباب اشتعل فجأة بين امرأتين من سكان الحارة بسبب عبث أولادهما واشتباكهما بالأيدي، وتذكرت أيامي في لندن، وتساءلت ساخرًا: هل يمكن أن تنعم الحارة المصرية بهدوء يماثل الشوارع في العاصمة الإنجليزية؟ واستيقظت فردوس والذبول مازال يفرض نفسه على ملامحها الجميلة، وتناولت

القُلة وشربت الكثير من الماء، ثم جلست بجواري، وبدت ساخطةوهي تجفف عرقها بذيل جلبابها:

- ما هذا الحر... الرحمة يا رب... سأعد لك البطيخ حالًا يا حبيبي لتبل ريقك.

ثم بادرتني سائلة باهتمام:

- هل عثرت على مكان لتأسيس العيادة؟

فارتبكت للحظة، وأهديتها بسمة مصطنعة وقلت بسرعة:

- أجل... أجل... وجدت دارًا صغيرة قريبة من هنا بجوار جامع الأقمر.

لا مفر، فالكذب ضرورة لتفادي المعارك وتجاوز المشكلات مع النساء، لكنها فاجأتني وهي تصيح باهتمام لافت:

- هيا بنا لأراها.

- فيما بعد... إنها قذرة وممتلئة بالنفايات والحشرات والفضلات وفي حاجة إلى تنظيف.

- لا يهم... أريد أن أفرح بها... هيا... لا تتكاسل.

ألا لعنة الله على إلحاح النساء، وانتابتني حيرة شديدة، فزعمت أنني أريد دخول الحمام أولًا، ثم نذهب. وفي الحمام أطلقت صرخات ألم شديد مدعيًا أن معدتي تتمزق، فنسيت فردوس طلبها وظلت ترعاني حتى أجهدتني مواصلة الكذب وادعاء المرض فنمت!

* * *

طرقات عنيفة على الباب أرعبت فردوس فأيقظتني وهي تغمغم:

- بسم الله الرحمن الرحيم... خير اللهم اجعله خيرًا... الشمس لم تشرق بعد!

بصدر عار تمامًا هرعت نحو الباب أتصبب عرقًا وقلقًا، فاستقبلني ربيع المغاوري بلهاثه وآثار النوم لم تفارق عينيه بعد وصاح:

- مفاجأة كبرى... الشاب البصاص الرابض أمام دار الدكتور وليام لمح الخادم

برقوق عائدًا قبيل الفجر حاملًا صينية ضخمة وقربة ماء فارغة.

فارتفعت دقات قلبي بشدة، وسألته بتوتر:

- لمحه عائدًا من أين؟

فانخفض صوته كثيرًا وقال بأسف:

- لا أدري، فقد استسلم الشاب لغفوة سريعة ولم يشاهد برقوق إلا عائدًا!

- ابن الكلب الغبي... ألم أقل لك اختر شبابًا شجعانًا أصحاء يتحملون السهر!

فحاول تهدئتي وهمس:

- هوّن عليك يا بدر الدين... صبرك بالله... لقد أمسكنا أول الخيط، وإن شاء الله سيقودنا إلى الصيد الثمين، وأقسم لك إنني بنفسي سأنغرز أمام دار الدكتور وليام من الليلة.

وعاد ربيع من حيث أتى بعد أن فجّر بركانا في الدار، فقد سمعت فردوس ما دار بيننا، وفور مغادرته صاحت في وجهي بعصبية:

- أنت نذل وجبان.

فركبني شيطان الغضب وصفعتها بكفي فهوت على الأرض، وانخرطت في البكاء. رمقتها للحظات بغيظ وقلبي يخفق بشدة، فبادلتني نظرة تحد، فتطاير الشر من عيني، وانكفأت فوقها لأؤدبها، فانكمشت في نفسها وانبعث الرعب من عينيها، وصرخت مستغيثة:

- لا... لا... أرجوك... ارحمني... حقك عليّ.

فكظمت غيظي وتسمرت في مكاني لحظات أحدق في هذه المرأة التي أسعدتني كثيرًا، فأشفقت عليها، ولما سكت عني الغضب حاولت تطييب خاطرها وحملها فرفضت، كررت المحاولة، فجفلت وتراجعت وانكمشت أكثر، فتركتها واتجهت نحو جلستي المفضلة خلف المشربية وأنا ألعن ربيع وصبيانه. وسرعان ما وقفت أمامي ووبختني بحدة قائلة:

- تضربني لأنني أريدك أن تظل رجلًا شريفًا لا تخون ابن بلدك.

وكمن تذكرت أمرًا مهمًّا فجأة،فصاحت:

- وآه على فكرة... أنت لم تستأجر شيئًا إذًا، فلا عيادة ولا يحزنون. واستوليت على ذهبي لتنفقه على البصاصين المجرمين لعلهم يقبضون على عليوة وتربح المكافأة. فليكن في معلومك... قلبي يحدثني أن الله يقف مع هذا الشاب المسكين ويحميه، وإلا لاستطاع الوالي وجنوده وبصاصوه أن يعرفوا مكان اختبائه طوال هذه المدة.

وبنبرة حزينة حاسمة أطلقت في وجهي حفنة رصاص من لسانها:

- أريد سواري... ذهبي... مالي... عرقي... شقائي... عذاباتي اليومية في أحضان رجال لا أعرفهم!

رنوت إليها بعمق لأكشف مدى إصرارها وتمسكها بما تقول، بينما عقلي يغلي بحثًا عن مخرج من هذه الأزمة الطارئة. وتيقنت أن لا سبيل أمامي سوى الكذب فهو مفتاح الفرج، وأن الخداع درس ثمين ينبغي استذكاره بحرص في اللحظات الحرجة، فنهضت من مكاني واقتربت منها راسمًا بسمة هادئة لتطمئنها، ثم تناولت راحتها اليمنى ولثمتها وقلت بهدوء مفتعل:

- أشكرك جدًّا حبيبتي فردوس، لقد أزحت عن عينيّ غمامة سوداء أعمتني لفترة.

وبرقة مفتعلة واصلت سلسال الكذب والخداع:

- أنا آسف جدًّا عما حدث، واليوم... بل الآن، سأنهي هذا الأمر تمامًا مع ربيع المغاوري.

ولا بأس طبعًا من القسم تأكيدًا للمصداقية المزعومة، فالقسم يهدئ النفوس الشكاكة، واستطردت وأنا أسدد بصري في عينيها لأستكشف أثر كلامي:

- أقسم لك، لو ظهر عليوة أمامي الآن فجأة، فسأخفيه بنفسي عن الوالي وجنوده.

ثم لثمت راحتها مرة أخرى بحنان متزايد لتعزيز حيلتي وحبكهاوطلبت منها:

- أرجوك... ادعي معي أن يحفظ الله عليوة من ظالميه.

فترددت لحظات، ورمقتني بقلق، لكني شجعتها بهزة من رأسي وبسمة من

فمي، فتنهدت وهتفت بقلب صادق ونية مخلصة:

- اللهم احفظ عليوة من كل شر.

فثمل قلبي بنجاح حيلتي، وقلت لنفسي: (حقًّا... النساء ناقصات عقل ودين)، أما عليوة فلن أرحمه، وسأظفر بالمكافأة قريبًا، وسيرقص قلبي طربًا وسرورًا.

* * *

علیوة أبو زهرة

علمني موسى كوارع أشياءَ كثيرة، وفتح لي نوافذ أخرى عجيبة لرؤية الحياة بعمق، وأشهد بأنني عشتُ محدود المعارف بالدنيا والبشر، قبل أن يسعدني الله بلقاء هذا اللص الطيب.وأعترف أيضًا بأن نشأتي في قرية بينها حرمتني من اكتشاف جوهر الحياة وصراعات الناس وتناقضاتهم، فالقرية ابنة عالم محدود ضيق لا أفق له ولا جديد فيه. نزرع ونحصد كما كان يزرع ويحصد آباؤنا وأجدادنا منذ آلاف السنين، ويستحوذ الكبار على محصولنا بالقوة والبطش والترهيب كما كانوا يفعلون مع الذين سبقونا، ونُجَرُّ كالبهائم مجبرين إلى العمل في السخرة كما كانوا يجرّون آباءنا وأجدادنا منذ قرون، فلا معارف في القرية ولا يحزنون، لأننا نتعامل مع الأرض، والأرض لا تهب الكثير من المعارف.

أما هنا في القاهرة العامرة حتى التخمة بالناس من كل جنس ولون، فالحياة مترعة بالصناعة والتجارة والبضاعة والأسواق والموسيقى والطرب والبشر الطيبين والبشر الأشرار والبشر الضائعين عديمي اللون والطعم والرائحة. في القرية لا نعرف سوى الفول والقمح والأرز والبطاطس والجرجير والفجل والبرسيم والطماطم والحمار والجاموسة والبغل، وكلها نباتات وثمار وكائنات لاتمنحنا إلا المعلومات القليلة. القرية موطئ السكون، والقاهرة أرض المغامرات، والسكون لا يُعلّم، والمغامرة درس ثمين.

ومرة سألني موسى بخبث لماذا لا تخبر برقوق بأنني أقيم معك؟ أنت تفرح بوجودي وتتمناه على الدوام، لكنك غير قادر على إعلام الدكتور وليام بأنك تصادق لصًّا محترفًا، ثم أضاف بحكمة عجيبة: (يعمل الناس بدأب على تقديم أنفسهم للآخرين في صورة طيبة، لكنهم يفعلون في السر ما يلبي غرائزهم وأشواقهم واحتياجاتهم التي تتعارض مع الأعراف والتقاليد الشائعة). وقبل أسبوع تشاغبت معه ساخرًا وهو يهم بالخروج مرتديًا جلبابًا نظيفًا ومصففًا شعره الأجعد، إذ قلت له: (لأول مرة أرى لصًّا نظيف الهيئة)، فحدجني بنظرة جادة موضحًا: (اللص الذكي عليه أن يبدو في أجمل صورة، وإلا أثار الشبهات إذا بدا قذرًا رثّ الثياب، لأن الناس لا تحترم أصحاب الروائح النتنة سواء انبعثت هذه الروائح من أجسادهم أو نفوسهم)، فأعجبتني إجابته المدهشة وسألته: (وأين تستحم يا عزيزي؟ إذ إنك لم تستخدم حمام اللوكاندة أبدًا، رغم إلحاحي)، فضحك وأجاب بهدوء: (النيل يا عزيزي... النيل يمنحنا الماء العذب ويزيل الأوساخ من القلوب والأجسام). كأنه على علم بسؤالي قبل أن أتفوه به، إذ يطلق إجاباته الذكية بسرعة وثقة دومًا، وعندما أمر الوالي برفع مكافأة القبض عليّ إلى 500 جنيه، سألني ساخرًا: (إذا قمت أنت يا عليوة بتسليم نفسك، فهل ستحصل

على المكافأة؟)، وفاجأني السؤال وفكرت فيه طويلًا دون أن أصل إلى حل!

وكم كنت سعيدًا لأنه لم يذهب إلى ممارسه عمله المشؤوم يوم الخميس الماضي، إذ ظل طوال النهار برفقتي، وقد أذهلني عندما أخبرني سر بقائه، حيث قال بفرح: (اليوم سينشد الشيخ محمد عبد الرحيم المسلوب في الحسين، وأنا من عشاق صوته الجميل، آه لو سمعته ينشد بردة البوصيري لأمتلأ صدرك بنشوة الطرب)، فضحكت وسألته: (هل يوجد لص مفتون بالطرب؟)، فابتسم وقال: (اللصوص الذين يعشقون الطرب أرق الناس؛ إذ سيتوقفون عن السرقة كلما صدح صوت جميل، لكن كم من البشر يسرقون الناس رغم أن الأصوات الجميلة لم تتوقف يومًا عن الترنم والإنشاد).

وأمس لم يأت موسى في موعده المعتاد، أي قبيل أذان الفجر بقليل، فغلبني النعاس فنمت، لكن عندما استيقظت في الصباح وجدته يجلس على الأرض مقابل المشربية منهمكًا في مطالعة مخطوطة الجبرتي، فلما شاهد جحافل النوم تغادر عينيّ قال لي بحزن كبير وهو يشير إلى المخطوطة: (مساكين نحن المصريين... الظلم بات وجبة يومية فاسدة تشقينا منذ أقدم الأزمنة)، ثم ابتسم ساخرًا وغمغم: (هكذا يقول شيخك الجبرتي). وتذكرت حديث الدكتور وليام عن چان چاك روسو وديڤيد هيوم وكانط، وتساءلت متى سيحين الوقت لأعرف ماذا قال هؤلاء؟ وهل يمكن أن يوافق الدكتور ويشرح لنا أفكارهم أنا وموسى؟ سأقنعه أنه لص ذكي ونبيه، وأنه تلقى علومه الأولى على يد رفاعة الطهطاوي شخصيًّا وتكفلت قسوة الحياة بتلقينه الدروس الكبرى.

لم تسبب لي إقامة موسى كوارع معي أية مشكلة، حيث اتفقت معه على أن يختبئ في الغرفة السرية في الطابق الأرضي قبل قدوم برقوق، كما طلبت من برقوق أن يأتي كل ثلاثة أيام بالطعام والشراب قبل الفجر بساعتين. وهكذا ضبطت الأمور حتى لا تقع الكارثة ويلتقي الرجلان، وقد نجحت في ذلك حتى الآن، أما بسيمة فقد لاحظت أنها تستحوذ على جل تفكيري إذا خلوت بنفسي، بينما يتراجع طيفها الجميل كثيرًا، إذا حضر موسى كوارع ومضى يحكي ويتكلم وينثر آراءه وأحكامه.وتألمت لذلك، وقلت لنفسي كيف للص أن يزيح حبيبة القلب جانبًا؟ وقررت أن أسأله في ذلك، فتفكر وقال لي عبارة أوجعتني: (البعيد عن العين بعيد عن القلب. لا حب يدوم دون رؤية يومية وملامسة ليلية). وخشيت أن تنساني بسيمة وأنا مختبئ هنا في لوكاندة مهجورة، وسألني موسى اليوم حين لاحظ عبور سحابة هموم قاتمة فوق عينيّ:

- ماذا تنوي أن تفعل وفرمان الوالي يتناسل على جدران الحواري والأزقة؟:

فغمغمت يائسًا:

- لا أدري.

فواصل حديثه بجدية:

- وجنود الوالي لا يكفون عن البحث عنك، فماذا ستفعل؟

فقلت له بنبرة مستسلمة لمطارق القدر:

- لا أدري.

فشرد لحظات وهتف بحرارة:

- اسمع يا عليوة... لماذا لا تتزوج بسيمة وتهربان إلى بلاد الشام؟

* * *

هذا هو اليوم الرابع على غياب موسى كوارع. الوحدة تمزقني والفراغ يعذبني.وتكدست المشاعرالمزعجة في روحي. هل حدث له مكروه؟ هل قبضوا عليه؟ هل غرق في النيل، فالجو حار جدًّا، وإغراء السباحة في المياه لا يقاومه إنسان حتى لو كان لصًّا. هل فتنه الشيخ المسلوب وأمسى من مريديه ومجاذيبه فسار خلفه إلى مدينة أخرى بعيدة؟وبدا الوقت مملًّا بطيئًا وتعملق الزمن، فصار ثقيلًا راسخًا لا يتحرك. وعدت مضطرًّا إلى الجلوس خلف المشربية لقتل الوقت بمراقبة أهالي درب قرمز ومقهى المعلم صميدة، واكتشفت أن موسى أنساني الشيخ زغلول وانشغالي عليه لفترة طويلة بدأت بمغادرته المقهى متذمرًا غاضبًا. وقررت أن أطلب من موسى تقصي هذا الأمر عندما يعود، لعله يكشف سر غضب الشيخ وغيابه.

انتصف النهار ولم يتوقف حودة النادل عن ملء الجردل ورش الماء على الأرض، عسى أن تهدأ نار جهنم المنبعثة من شمس السماء. وسرحت في فكرة الهروب من مصر إلى بلاد الشام، وتراكمت في جمجمتي الأسئلة: هل يمكن أن يوافق الدكتور وليام على ذلك؟ هل تقبل زوجته السيدة مرجريت ابتعاد ابنتها عنها؟ هل أهرب بمفردي على أن تلحق بي بسيمة فيما بعد؟ وهل يمكن لشاب مطلوب القبض عليه، ومصر كلها تبحث عنه، أن ينجح في الهرب ويفر من جنود الوالي داخل مصر وخارجها؟ ثم أن رسالة بسيمة أشارت إلى هروبنا إلى لندن، فكيف ومتى؟

أنهكني التفكير، فعافت نفسي الطعام للمرة الأولى منذ الظهور الجميل لموسى كوارع في حياتي، ومع استمرار تدفق الهواء الساخن فسدت شهيتي تمامًا، واكتفيت من الزاد بالماء. وحاولت مواصلة القراءة في مخطوطة الجبرتي، فلم أتمكن من التركيز، إذ أشقتني الأفكار والهواجس، واكتشفت أنني أحببت موسى كوارع بشكل لم أكن أتخيله، وقلت لنفسي (حتى اللص يمكن أن يهب السعادة لإنسان سئ الحظ مطارد من جيش بأسره، حقًّا ما أجمل الألفة والاستئناس بالبشر).

وأقبل الليل بنسماته الشحيحة ولم يظهر الحبيب الغائب، وتعجبت من هذه الحياة وفكرت بصوت مسموع (لم أكن أتخيل لحظة أن ترتبط سعادتي بلص). وقررت أن أخط جوابًا لبسيمة عن فكرة الزواج والهروب إلى الشام بدلًا من لندن، وأرسله مع برقوق، فالشام بلاد عرب ومسلمين والفرار إليها أسهل وأيسر، فإذا وافقت أخبر الدكتور وليام. وارتاحت نفسي إلى هذه الفكرة، لكنني تكاسلت في الكتابة بسبب النعاس المفاجئ، فتمددت على الأريكة بجوار المشربية، ولم أستيقظ إلا مع أذان الفجر. بحثت عن موسى في غرف اللوكاندة كلها، حتى الغرفة السرية فلم أعثر له على أثر. بحثت وأنا أدرك تمامًا أنه ليس هناك، فهو لا يغادر هذه الصالة الرئيسة، لكنه الأمل المراوغ عندما يلعب بالرؤوس. توضأت وأنا مشمول بحزن كبير على غياب صديقي، وقررت أن أدعو الله في صلاتي أن يحفظه ويحميه، وألا يكون قد سقط في يد شرطة الوالي.

تناهى إلى سمعي وأنا أفرش سجادة الصلاة صوت بائع اللبن متداخلًا مع أصوات بعض المؤمنين الذاهبين إلى المسجد، فدعوت في سريرتي (يا إلهي هذا يوم جديد، فرُدّ لي عبدك موسى سالمًا من كل شر). لكن الأصوات تزايدت بشكل مكثف، فجذبت اهتمامي فألقيت نظرة على الدرب فإذا بوابل من البشر يعبرون الطريق بخطوات متئدة كسولة، كما شاهدت حوذيًّا يضرب بالسوط بغلًا يلهث ليحثه على السير سريعًا وهو يجر خلفه عربة محملة بالحجارة، فتألمت، وتمتمت بحزن: يبدو أن قسوة الحر حرمت الناس من نعمة النوم وأخرجتهم من دورهم مبكرًا جدًّا، كما أنهكت البغل المسكين.

شرعت في أداء صلاة الفجر، وما إن أنهيت الركعة الأولى حتى سقطت أمامي على السجادة كتلة بشرية من اللحم والدم والتأوهات. يا خبر... إنه موسى كوارع، فسلمت بسرعة وخرجت من الصلاة لأجده غارقًا في دمه كاظمًا ألمه بصعوبة شديدة، هامسًا بصوت موجوع:

- أنقذني يا عليوة... الألم يمزقني... سأموت.

فانكفأت فوقه على الفور، وسألته صارخًا والخوف يفتت أعصابي:

- ماذا حدث؟

فغمغم بنبرة متهالكة وقال:

- طعنني أحد اللصوص بسكين في فخذي وكتفي وساعدي...وسرقني!

وببسمة شاحبة تساءل ساخرًا:

- هل سمعت في حياتك عن لص يسرق لصًّا؟

* * *

بلغت باب الدار منهكًا لاهثًا، فطرقته بكل قوة وأنا أجفف عرقي. لقد تركت موسى ينزف بعد أن ربطت جروحه كيفما اتفق في محاولة يائسة لإيقاف الدم المنهمر. تلقاني برقوق مذعورًا، وسرعان ما هبط سكان الدار من الطابق العلوي يسبقهم الهلع والفضول، ودفعني الدكتور وليام بيده في كتفي غيظًا، سائلًا بصوت عال حاد النبرات والغضب يكسو وجهه كله:

- أنت مجنون... ما الذي أخرجك من اللوكاندة؟ مصر كلها تبحث عنك.

- أرجوك يا دكتور... تعال معي فورًا... موسى ينزف... سيموت!

فتبادلوا نظرات استفهام واستنكار، وواصل الدكتور سخطه قائلًا والشرر يتطاير من عينيه:

- مَنْ موسى هذا؟ أنت مجنون... غدًا سنغادر سرًّا إلى لندن وننقذك يا غبي.

- لا أريد شيئًا... فليعثر عليّ جنود الوالي ويشنقوني... لا يهم... حياتي فداء لموسى... أرجوك... أتوسل إليك... احضر أدواتك وأدويتك وتعالَ معي فورًا... إنه يتعذب بين الحياة والموت.

وتضخم الفضول في عيون الجميع، وأمر الدكتور وليام برقوق بأن يذهب إلى دار ڤيرجينيا ويوقظها في الحال لتحضر معها حقيبة الدكتور والمخدّر. وفي أقل من عشر دقائق توجهنا جميعًا نحو درب قرمز تحت شمس الصباح المزعجة. واقتربت مني بسيمة بصوت رقيق عذب:

- أنا قلقة جدًّا عليك.

فقلت لها:

- لا تقلقي... سأطمئن على موسى وأهرب... لن يفلح أحد في التعرف عليّ، فالوقت مازال مبكرًا وأغلب الناس أسرى النوم بعد ليلة شديدة السخونة.

وجدنا موسى كوارع غارقًا في دمه وغيبوبته، فأمرنا الدكتور، برقوق وأنا، برفعه وتمديده على الكنبة بجوار المشربية، ثم شرع في إجراء اللازم بمعاونة ڤيرجينيا، بينما جلست مرجريت وبسيمة متجاورتين في الغرفة الصغيرة بجوار الصالة بعيدًا عن المصاب وجروحه وآلامه، وقد اعترت ملامحهما آيات الذعر والقلق والخوف. بعد أن مسح الدم وتعرف على مستوى الجروح وعمقها، همهم الدكتور قائلًا:

- الجروح متوسطة، باستثناء جرح الفخذ، فهو عميق وطويل وسيستغرق وقتًا حتى يبرأ. مسكين، لقد نزف كثيرًا، وهذا ما أفقده الوعي.

ثم سألني:

- من هذا الشاب؟

فقلت له إنه لص طيب، وقد تصادقنا منذ أسابيع عندما اقتحم اللوكاندة من الباب الخلفي في فجر أحد الأيام، حيث خفف عني عذاب وحدتي، ورغم أنه تعرف على شخصي وهُويتي، إلا أنه أبدى كرمًا محمودًا، فقد أظلني بحمايته ولم يبلغ عني الشرطة. سمعني الدكتور وهو يمارس عمله بهمة دون أن ينظر إليّ، ثم طلب مني أن أغادر المكان فورًا، على أن نلتقي فجر الغد في ميناء بولاق، لنبحر إلى الإسكندرية ومنها إلى لندن.. ورجوته أن ينتظر قليلًا لأطمئن على موسى فوافق ومنحني ربع ساعة فقط لألملم أشيائي المهمة وقال بجدية:

- ستتحرك نحو مقابر المسيحيين بشبرا قريبًا من بولاق لتختبئ هناك، وسيظل برقوق رفيقًا لك حتى فجر الغد، موعدنا في الميناء.

فهمهمت شاكرًا،وبلغني صوت بسيمة الرقيق وهي تناديني، فتوجهت نحوها في الغرفة الأخرى، وسألتني عن موسى، فكررت ما قلته للدكتور وليام، فبادرتني مرجريت مستنكرة بغضب:

- هل تضحي بحياتك وحياتنا من أجل لص؟ هذا استهتار مرفوض.

فقلت بأدب:

- رأيتني مجبرًا يا سيدتي، فلابد من رد الجميل، وهذا شاب عرفني وحماني وتستر عليّ وعلى مكاني وعليكم أيضًا.

فأشاحت بيدها بعصبية رفضًا لتبريراتي،فغضضت بصري خجلًا، ولم أعرف بمَ أجيب، فواصلت توبيخها قائلة بحدة:

- أنت لا تعرف الكارثة التي في انتظارنا إذا توصلوا إلى مكانك. للأسف، هذا تصرف غير مسؤول.

فانكمشت في ذاتي واعتصمت بالصمت، ولمحت نظرة غريبة من بسيمة، ربما تختلط فيها مشاعر الإشفاق بالإعجاب بالغموض، وقلت لها متوددًا بصوت خجول قاصدًا تلطيف الجو:

- تخيلي... كدت أبعث إليك برسالة أقترح فيها الهرب إلى بلاد الشام لنبدأ حياتنا هناك.

فابتسمت، وهمست وهي ترنو إلى أمها بتوجس لتتأكد هل استردت هدوءها بعد نوبة الغضب أم لا:

- تخيل أنت... لم أعلم بحكاية سفرنا غدًا إلا الآن... يعني صديقك اللص هو الذي عجّل بجمع شملنا.

فلاحت مني نظرة عفوية إلى الصالة، حيث يتلقى موسى العلاج وقلت:

- صدقيني يا بسيمة... موسى هو الذي زرع في صدري الأمل الأخضر بعد أن زحف اليأس على كياني فدمّره، وهو من جعلني أحتمل آلام الفراق عنـ...

فجأة... سمعنا جلبة مخيفة، فتجمد الكلام على لساني... أصوات خشنة وقعقعة بنادق. تهديد ووعيد. اسمي يتردد بكثافة على ألسنة غريبة...مرة عليوة ومرة أبو المكارم. تنهار أعصابي وترتجف أطرافي. وفي لحظات احتلت اللوكاندة مجموعة من جنود الوالي بطرابيشهم الحمر مدججين بالسلاح مزودة ملامحهم بالغلظة والخشونة والإصرار. وعلى الفور أمرهم قائدهم:

- أمسكوا هذا المجرم... إياكم أن يفلت.

فانبرى له الدكتور وليام بقامته الطويلة، وقال بجدية شديدة:

- أرجوك... رفقًا بعليوة فهو مريض، وأقسم لك أنه لن يهرب.

فتساءل القائد بغلظة واستخفاف:

- وما شأنك به؟

وبحركة سريعة نزع الدكتور عن عنقه سلسلة ذهبية معلق بها نيشان، وأطلعه على القائد شارحًا بثقة:

- أنا طبيب إنجليزي مسؤول عن صحة عليوة، حتى لو كان من المطلوبين أمنيًّا، وهذا نيشان أهداني إياه مولانا عباس باشا شخصيًّا عرفانًا بخدماتي الطبية لأهل مصر.

فارتبك القائد عندما تفحص النيشان وتغيرت نبرته في الحال ولانت. يا إلهي... إن بدر الدين أباظة يتوسط الجنود بملابسه الأوروبية، وبجواره حسنين شيحة شيخ الحارة وشاب ذو سحنة غير مريحة،فلما رآني بدر صاح بنبرة الفائز وهو يشير بسبابته نحوي:

- أخيرًا سقطت يا عليوة... أقصد يا أبا المكارم... أليس كذلك يا دكتور وليام؟ تخدعنا جميعًا وتكذب علينا. تخدع الوالي نفسه يا دكتور... سحقًا لفُجْر الرجال!

وقال شيخ الحارة بصوته الأجش وهو يضبط طربوشه:

- ألا لعنة الله عليك يا عليوة... كم أتعبتنا وأجهدت جنود مولانا المعظم.

فتصدى له الدكتور وليام وصاح بحزم:

- من فضلك... لا تلعنه... لقد قبضتم عليه وانتهى الأمر، ولينتظر حكم الوالي.

فهمّ بدر الدين بالرد، لكنه تراجع أمام النظرات الصارمة للدكتور وليام، ثم التفت يخاطب بزهو شابًا مبتسمًا ذا أسنان صفراء مقززة يقف بجواره ويضع يده في سيالة جلبابه قائلًا:

- أنت رجل ذكي بحق يا ربيع... وأقسم بالله... نصيبك محفوظ كما وعدتك!

* * *

سار الموكب القاسي الحزين تحت نار الشمس اللاهبة. أكثر من عشر عربات

تجرها الخيول المطهمة ومحملة بالجنود الأرناؤوط والعثمانيين تحاصرني من اليمين ومن الشمال، بينما السلاسل الحديدية تدمي يديّ وقدميّ، حيث حشروني في عربة كبيرة ذات مقاعد خشبية تجرها ستة جياد عفية ومحاطة حوافها بسياج حديدي، ينتهي بباب صغير مجنزر موصد بمزلاج صلب قوي كأنه يحمي خزائن قارون. وقد وافق قائد الجنود بسهولة على أن يرافقني الدكتور وليام وزوجته وبسيمة في العربة نفسها، كذلك طلب القائد من بدر الدين أباظة وصديقه الصعود معنا، بوصفهما من أرشدا الشرطة إلى مكان اختبائي.

لقد أصر الدكتور على مرافقتي إلى قصر الوالي ببنها، كذلك أصرت بسيمة ومرجريت، وقد همس لي فور تحرك العربة محاولًا بث الطمأنينة في صدري الفوّار بالتوتر:(لا تقلق يا عليوة... سأبذل كل ما في وسعي لدى الوالي عباس ولدى قنصلنا السيد تشارلز مري؛ لإنقاذك أو تخفيف العقوبة عنك، ولا تنس أنني متهم بإخفائك)، فقلت له سريعًا: (أنا آسف جدًّا يا دكتور لأنني سببت لك كل هذه المتاعب)، فابتسم وقال: (لا تعتذر... لقد أقدمت على فعل ما يرضي ضميري... ولست نادمًا، لكني حزين).

ومن عجب أن قلقي على موسى كوارع كاد يفوق قلقي على مصيري المجهول، وقد تركه الدكتور في عهدة ڤيرجينا بعد أن طمأنني: (لا تقلق... سيشفى صديقك مع الوقت، ولن أبلغ عنه). وسمعت مرجريت تخاطب زوجها بصوت مبلل بالدموع قائلة: (البدايات في مصر كانت أكثر رقة ورأفة وجمالًا، لكن النهايات كابوسية وحزينة وقبيحة... ماذا جنينا يا زوجي العزيز؟)، فقال مهدئًا: (يكفي السعادة التي ثملنا بها في البدايات يا حبيبتي، فهي زاد للمستقبل، هل تذكرين أحاديثنا في لندن أيام الخطبة عن الأحلام الخضر، التي تنتظرنا في القاهرة؟)، فقالت محتجة: (لكن النهايات تعسة ومرارتها ثقيلة لن تغادر الروح)، ثم ألقت نظرة على بسيمة وقالت لزوجها بصوت موجوع: (إنها تتمزق)، فأدمت عباراتها فؤادي، ورنوت يسارًا إلى بسيمة فوجدتها تطوق والدتها بيديها الاثنتين من الخصر، وقد دفنت حزنها ورأسها في صدرها واستسلمت للنشيج.

نظرت إلى الطريق المزدحم بالسابلة وعربات الكارو بلا تركيز، حيث يهرع الناس ويحتشدون لرؤية هذا الموكب المخيف، فتصلني أسئلتهم الحائرة وهمهماتهم المتواصلة، فيرد عليهم بدر الدين بصوت عالي النبرة معطر بالفرح والفخار: (هذا عليوة الهارب من قصر الوالي... هذا الذي أصدر مولانا بشأن جريمته فرمانين، وأنا من أمسكته. كان مختبئًا في درب قرمز)، فأخفض بصري خجلًا وألعن اليوم الذي رأيته فيه لأول مرة، وتخرق مسامعي عبارات التهاني والتشفي فيّ مختلطة مع إيمانات بأنني مظلوم، وأن الله سيقف بجواري وينقذني من بطش الوالي.

ترى... أين نحن الآن؟ فرغم إقامتي في القاهرة منذ شهور، إلا أنني لم أخبر هذه المدينة جيدًا؛ إذ عشتُ وحيدًا حبيسًا في لوكاندة غير مأهولة، لكنني أظن أننا على مشارف بولاق، فالنيل يتجلى في الأفق، وها هو جامع "السلطان أبو العلا"، فيما أظن، يقترب جهة الشمال. وهذه وكالة"السلطان أبوالعلا" للدقيق. إذًا... هنا ولد وعاش موسى كوارع، ودعوت بصوت خفيض: (يا رب اشف صديقي المخلص موسى واغفر له). وتذكرت أبي وشقيقي غباشي، فالتفت جهة الدكتور ورجوته أن يطلب من الوالي أن يسمح لي برؤية والدي وشقيقي قبل إعدامي أو سجني، فابتسم ووعدني أنه سيفعل المستحيل من أجلي، وأنني يجب ألا أفكر في الموت أبدًا، فقلت في خاطري الموت في مصر أقرب إلينا من حبل الوريد يا دكتور. الموت من الوباء... الموت من الظلم... الموت من الفقر... الموت من الجوع... الموت من القهر،فنحن أبناء موت.

عندما بلغنا شاطئ النيل ازدادت سخونة الجو، فتدفق العرق إلى الوجوه وتعكرت الأمزجة، فتساءلت مرجريت بصوت عال: (يا إلهي... كل هذا الحر... حتى ونحن بجوار النيل، لا أثر لنسمة)، فقال الدكتور لمواساتها: (لا تنسي... نحن اليوم 14 يوليو، أي في أقسى أوقات السنة حرارة ولظى)، فعادت تهمس بحسرة: (من كان يصدق... غدًا كنا سنبحر إلى الإسكندرية ونعود إلى لندن بأمان، واليوم أنت متهم بإخفاء مجرم... حظنا بائس جدًّا). وتساءلت بسيمة بصوت ملؤه الرعب: (هل سيعدمون عليوة يا أمي؟)، فطلبت منها أن تخفض صوتها حتى لا أسمع، لكني جفلت، ونظرت نحوها بإشفاق وقلت: (لا تحزني عليّ كثيرًا إذا غدا الموت نصيبي، ولكن لا تحرميني من دعائك أن يغفر الله لي، ولتعلمي يا بسيمة أنني أحببتك بكل كياني، وأنني محظوظ لأن المقادير منحتني نعمة لقياك، ويكفي أنني ربحت أجمل الأحلام عندما تخيلتك زوجة المستقبل). فسالت دموعها ودست رأسها في صدر أمها، بينما ربتت مرجريت ظهرها ولثمت شعرها بحنان بالغ.

توقف الموكب المشؤوم قليلًا عند روض الفرج لإراحة الخيول وعلفها وتناول المياه والتزود بها، لكن أحد الجنود منع عني الماء، فتصدى له الدكتور وليام بحسم وقال بنبرة تحد: (إذا لم يشرب هذا الشاب الآن، فأنت المسؤول عن وفاته، فهو ضعيف البنية ولن يحتمل العطش في هذا القيظ الشديد)، فتدخل القائد وزمجر وغمغم بعبارات تركية غير مفهومة أدركها الجندي، فوافق مجبرًا، وهكذا كنت آخر الشاربين، حيث تطوعت بسيمة وصبت الماء في فمي صبًّا من القلة التي أتوا بها وأنا مقيد اليدين عاجز عن فعل شيء، وقلت لنفسي مواسيًا: (ما أجمل أن تكون آخر رشفة ماء تبل الريق بيد بسيمة).

انطلق الموكب البغيض مرة أخرى نحو الموت. أجل، ففي نهاية هذا الطريق يقبع

وحش الموت على مدخل قصرالوالي منتظرًا عودتي ساخرًا من فراري. وتذكرت ما قاله موسى كوارع يومًا بشجن: (بعد موت أمي فقدت فضيلة الحزن، وربما كان هذا أسوأ فقد مرّ بحياتي)، فلما سألته: (هل الحزن فضيلة؟)، فقال: (نعم... الحزن نعمة تهذب المشاعر وترققها وتمنعك من أن ترتكب جرائم أو حماقات تسبب حزنًا للآخرين. هل تعلم أنني رأيت دموع قطة التهم الثعبان صغارها في مقابر باب النصر؟). وأضاف: (بعد موت أمي، صار الحزن مجرد صورة مشوشة باهتة من ماض بعيد لا علاقة لي به). وخطر في بالي حال أبي عندما يعلم بأنهم أوقعوا بي وأنني ميت اليوم أو غدًا، فانفطر فؤادي وانسكبت دموعي، وناديت بصوت مسموع: (رحماك يا إلهي).

حين بلغنا قرية شبرا البلد، سمعت صديق بدر الدين يهمس في أذنه قائلًا: (أنت أخطأت يا بدر... لقد ضربتها بقسوة حتى نزف أنفها وفمها بغزارة)، فأجاب: (لأنها عاهرة غبية... تريد أن تحرمني من أحلامي في الثراء بعد أن ضاع مني كل شيء). وانشغل بالي بهذا الحوار الغامض المريب، وتساءلت: من هذه العاهرة؟ ولماذا ضربها؟ ولاحت مني نظرة إلى بسيمة، فرأيتها تجفف وجهها من العرق والدموع، فلم أتمالك وقلت لها بنبرة خافتة: (أحبك... فلا تحرميني من دعائك).

ماهذا؟ موكب آخر يقبل علينا من الاتجاه المقابل مكون من ثلاث عربات فقط. تبودلت التحايا عن بعد،فأمر قائد الجنود بإيقاف العربات، ولما اقترب الموكب الغريب عرفت أدهم بك بشاربه المبروم وطربوشه الأحمر، وعرفت أيضًا القنصل الإنجليزي بملامحه الأوروبية وثيابه الرسمية. ترجل الرجلان، واقتربا من عربة الدكتور وليام، فبدا الارتباك والعبوس على وجهيهما، وصاح أدهم بك عندما رآني:

- أخيرًا سقطت يا عليوة... أيها الآثم الجبان.

فكدت أبول على نفسي من فرط الهلع، لولاأن القنصل خاطب الدكتور بجدية شديدة قائلًا:

- لقد مات الوالي عباس قبل الفجر... قتله حراسه في غرفة نومه بقصره ببنها بتحريض من عمته نازلي هانم على الأغلب!

فتكدّر وجه الدكتور للحظة، ثم أعلن بصوت رزين:

- إذًا... عليوة استرد حريته.

والتفت نحوي ولم يغادره وقاره:

- ألف مبروك يا عليوة... القدر أنقذك من الموت في لحظة فارقة وبصورة لا تصدق.

فاعترتني فرحة مفاجئة غامضة، وطارت نظرات حائرة بين الجنود وانطلقت الهمهمات والأحاديث، وصرخت بسيمة وتقافزت مثل الأطفال فوق العربة، لكن أدهم بك رفع يده ليسكت الجميع وصاح:

- معذرة يا دكتور وليام، لن يذوق عليوة طعم الحرية، فهناك فرمان من الوالي يقضي بالقبض عليه.

فتبددت فرحتي وشعرت بتقلص عضلات وجهي وأمعائي في وقت واحد، ولاحظت أن القنصل يرنو إلى الدكتور المتجهم بتركيز شديد، فقال بعد لحظات صمت ثقيل تكاثفت أمام النيل:

- اسمعني جيدًا يا دكتور وليام. من الواضح جدًّا أن أمر عليوة يهمك، فأنت من أخفيته عن الجميع بذكاء، لذا سأعمل على إصدار فرمان من الوالي الجديد سعيد باشا بالعفو عن عليوة، فلا تنزعج. وأظن أنه سيوافق على الفور.

ثم ابتسم وربّت كتفه وقال بثقة وزهو:

- عزيزي دكتور وليام... لا تنس رجاء... نحن الإنجليز سادة العالم وأبناء الإمبراطورية العظمى، وطلباتنا أوامر يجب أن تنفذ في الحال من أصغر لأكبر رأس في هذا البلد.

وانتحى القنصل جانبًا بأدهم بك، ودار بينهما حوار لم أسمعه، لكنني ظللت أسيرًا لقلق عارم مخيف يزلزل أعماقي. وبعد دقائق قليلة أمر أدهم بك الجنود بفك قيودي، وأنا أرتجف مشوش التفكير تتعثر الحروف على لساني، وسمعت بدر الدين أباظة يصرخ محتدًّا: (ومكافأتي... إنها خمسمئة جنيه... أنا من أمسكته)، فنهره أدهم بك قائلًا بسخرية: (اذهب... خذها من الوالي عباس.. في قبره). ودنا من الدكتور وهمس في أذنه بكلام لم أسمعه، لكن الدكتور وليام رجا القنصل أن ينتبه جيدًا لما سيخبر به أدهم بك، كأنه أراد أن يشهده على ما يقول: (بصراحة شديدة... أنا أعتذر عن عدم إتمام زواج ابنتي منك يا أدهم بك، وأموالك ستعود إليك اليوم)، فانزعجت جدًّا؛ إذ لم أكن أعلم أن هذا الكهل المتصابي يرغب في الزواج من صبية في عمر أحفاده، وعلى الفور انحاز القنصل إلى ابن بلده وهتف بحرارة: (رجاء أن تنسى الأمر يا أدهم بك... إن البلد في خطر، والوالي قتل قبل ساعات، وأمامنا مهام معقدة كثيرة، وأنصحك باسترداد زوجاتك الأربع والعيش بسلام مع أبنائك وأحفادك)، ثم اقترب من الدكتور وليام وابتعد به خطوتين وقال له وهو يرمق أدهم بك الغارق في انكساره وذهوله وأحزانه:

- بمقتل عباس باشا فقد أدهم بك أنيابه وتلاشت شراسته، لقد انتهى زمنه إلى الأبد، لذا علينا الآن مهمة ثقيلة وضرورية جدًّا، وهي كيفية الاقتراب من الوالي الجديد سعيد باشا واكتساب ثقته وثقة حاشيته. إن مصالحنا في مصر لا تنتهي بموت الحاكم، أي حاكم. إن مصالحنا يجب أن تستمر وتتطور يا صديقي، فمصر كنز كبير ينبغي ألا نفرط فيه أبدًا.

واستأذن القنصل في الذهاب إلى القلعة للمشاركة في ترتيب نقل السلطة إلى الوالي الجديد دون مشكلات، واصطحب أدهم بك، فسار معه مخذولًا مطأطئ الرأس، وانفض الجمع وعاد الجنود من حيث أتوا بموكبهم المرعب وهمهماتهم الحائرة، بينما رماني بدر الدين بنظرات حاقدة تقطر غلًّا، قبل أن يغادر مع صديقه ويستديرا للوراء.

تابعنا تفرق الجميع واختفاءهم باستغراب وفرح، وتنهد الدكتور وليام ودعانا إلى الجلوس على شاطئ النيل؛ لنسترد أنفاسنا اللاهثة من سماع هذه الأخبار العجيبة، وطلب من برقوق أن يبتاع لنا البطيخ والشمام والجبن القديم والخبز الطازج من سوق شبرا البلد لنتناول إفطارنا.

افترشنا العشب المترامي أمام شاطئ النيل في شبرا البلد تحت ظل شجرة توت معمرة، واستنشقنا بارتياح الروائح المقبلة من حقول الذرة التي تعانق البيوت الطينية للقرية، بينما قلبي مازال يخفق بقوة، لقد كنت على شفا حفرة من الموت، لكن يد الله أنقذتني في اللحظات الأخيرة ورممت أعصابي المهترئة، فالحمد والشكر لك يا رحمن يا رحيم. وتناولنا الإفطار جميعًا بشهية مفتوحة وسط الذهول والضحك والامتنان واجترار الأخبار الجديدة التي سمعناها من القنصل مرة أخرى، وقال لي الدكتور وليام بجدية، بعد أن التهم آخر قطعة بطيخ:

- بمصرع الوالي عباس باشا أصبحت حرًّا طليقًا الآن يا عليوة، ومن ثّم يجب استرداد حيويتك ونشاطك وحفاوتك الرائعة بالحياة.

فرددت بعقل مازال سابحًا في بحر الذهول مما يجري:

- الحمد لله، والفضل لك يا دكتور في إنقاذي من الضياع والموت.

فعقّب بسرعة لافتة:

- لا لا لا... أنت بإرادتك وعزيمتك وذكائك وتشبثك المدهش بالحياة من انتصرت يا عليوة. انتصرت على أصعب المحن التي تعترض حياة الإنسان. وقد انتصرت مرتين لا مرة واحدة: مرة على الموت، ومرة على الخوف. مرة في قصر الوالي،

ومرة في درب قرمز.

فحركت رأسي بالإيجاب دون أن أفتح فمي، إذ بدا لي أنه لم يُنهِ حديثه بعد، وبالفعل واصل الرجل كلامه قائلًا باهتمام ومحبة:

- انصت إليّ يا عليوة... بستان المستقبل الزاهر يدعوك للدخول بقوة، فاقتحم ولا تتردد. وعليك من اليوم استلام عملك في العيادة حتى تتعلم أكثر فتزيح عن روحك آثار الوحدة والخوف والحبس الذي عانيت منه طويلًا، فالمعرفة خير علاج للعقل القلق والروح الحزين، وأنا واثق بأنك ستتطور سريعًا، وستتقن اللغة الإنجليزية أكثر، حتى أرسلك إلى لندن لدراسة الطب، فمن أسف... المرض هنا يفتك بآلاف المصريين ولا يرحمهم، وعلينا تعليم الأذكياء من أبناء البلد قواعد الطب الحديث لينقذوا أشقاءهم ويخففوا آلامهم. ولعلك تكون أول شاب مصري يتلقى أحدث ما وصل إليه الطب في لندن، ليعود إلى مصر فيخدم أهالي وطنه ويعالجهم.

فانشرح فؤادي وشكرته بقلب صاف وروح وثاب يرغب في اقتناص العلوم والمعارف بأقصى سرعة؛ لأتجاوز عذابات انتظار الموت، وسألته بشغف:

- وستشرح لي أفكارچان چاك روسو وديڤيد هيوم وكانط؟

فضحك بصوت عال، وصاح:

- ياه... أما زلت تتذكر أسماء هؤلاء الفلاسفة الكبار؟

فحركت رأسي بالإيجاب، ولاحت مني التفاتة إلى بسيمة، فوجدتها ترمقني بنظرة ملؤها مودة وإعجاب، فثملت بالصحبة الطيبة والعشق المنتظر، وقلت للدكتور راجيًا:

- هل من الممكن توفير عمل لموسى كوارع في عيادة حضرتك بعد أن يسترد عافيته؟

فابتسم ورنا إلى حقول الذرة الممتدة أمامنا وقال والبسمة تضيء وجهه النبيل:

- أكيد... بشرط ألا يسرق العيادة!

ثم خاطب زوجته بمرح قائلًا بنبرة أعلى:

- ما رأيك مرجريت؟ سنعد اللوكاندة للافتتاح خلال شهر.

وأضاف سريعًا وهو يوزع نظرات ماكرة علينا جميعًا ليرى أثر مفاجأته:

- لنقيم في قاعتها الكبرى حفل زفاف بسيمة إلى عليوة، ويقضيان فيها شهر العسل.

فهتفت معشوقتي بسعادة:

- يا ليت يا أبي... ما أجمل أن نتمتع بشهر العسل في درب قرمز. لقد أحببت هذا المكان حبًّا جمًّا لأنه حمى عليوة من بطش الوالي، وأعاده إليّ حيًّا رقيق القلب.

وصاحت مرجريت بالإنجليزية:

- وااااو...Honeymoon (شهر عسل) في اللوكاندة بدرب قرمز... ما أجملها من فكرة.

فأشرق وجه الدكتور بالابتسام، وقال لها بثقة وهو يرنو إلى مياه النيل الساكنة:

- مازلنا في البدايات يا حبيبتي... بدايات طيبة ممتعة نتفاعل معها وننفعل بها ونمتصها فتسري في عروقنا وتسعدنا. لا نهايات محزنة في مصر المحروسة... مصر شجرة راسخة تثمر البدايات الجميلة دومًا.

فأدهشتني عبارته وأثارت خيالي، وانهالت عليّ الذكريات، وكيف قضيت أيامًا مرعبة في قصر الوالي، مجبورًا على الذهاب إلى المطبخ لمواجهة الموت يوميًّا، وكيف دبر الدكتور وليام خطة هروبي العجيبة. وتذكرت بأسى أيام اختفائي الطويلة في لوكاندة درب قرمز ومقهى المعلم صميدة وحودة النادل والشيخ زغلول الذي ذهب ولم يعد، وتذكرت بوجد أيضًا حكاياتي الآسرة مع موسى كوارع أنبل اللصوص وأكثرهم رقة وحكمة، ودعوت له بالشفاء العاجل. ورنوت إلى بسيمة فراق لي وجهها الجميل وعيناها السوداوان وبسمتها الصافية، فتجرأت ولمست راحتها اليمنى بحنان، فارتعش جفناها،فانتشيت بالفرح، وهنأت نفسي: أخيرًا سيجود الزمان بأوقات سعيدة بعد قسوة وعذاب وحرمان، ثم غمغمت بقلب تعلّم كيف يصالح الأيام: (واصبر وما صبرك إلا بالله)، وقلت أيضًا: (وأما بنعمة ربك فحدّث).

* * *

القاهرة/ دبي

كتبت في الفترة من:

1/ 5/ 2018 إلى 15/ 11/ 2019

ناصر عراق

* روائي وكاتب مصري ولد في شبرا البلد بالقاهرة في 21 مارس 1961.

* تخرج في كلية الفنون الجميلة بالزمالك عام 1984.

* يعمل حاليًّا مدير تحرير مجلة (حروف عربية) التي تصدر عن مؤسسة (ندوة الثقافة والعلوم) بدبي.

* فازت روايته (الأزبكية) بجائزة كتارا الكبرى للرواية العربية/ الدورة الثانية 2016، وهي أكبر جائزة عربية في مجال الرواية والأدب، حيث يتم تحويلها إلى عمل درامي،وتترجم إلى خمس لغات. وقد صدرت الترجمتان الإنجليزية والفرنسية في أكتوبر 2017.

* وصلت روايته (العاطل) إلى القائمة القصيرة في الجائزة العالمية للرواية العربية/ البوكر العربية/ الدورة الخامسة 2012.

* وصلت روايته (نساء القاهرة. دبي) إلى القائمة القصيرة في جائزة (أرى روايتي) التي تُعنى بتحويلها إلى دراما تلفزيونية/ الدورة الأولى عام 2018، والتي أطلقتها مؤسسة أبوظبي للإعلام في مايو 2018.

* فاز كتابه (تاريخ الرسم الصحفي في مصر) بالجائزة الأولى في مسابقة جائزة أحمد بهاء الدين/ الدورة الأولى عام 2000.

* فاز بجائزة أفضل مقال في الصحافة الإماراتية في المسابقة التي تنظمها دار الخليج للصحافة بالإمارات/ الدورة الثانية عام 2004.

* أصدر عشر روايات هي: (أزمنة من غبار2006/ من فرط الغرام 2008) عن دار الهلال بالقاهرة، ثم (العاطل 2011/ تاج الهدهد 2012/ نساء القاهرة. دبي 2014/ الأزبكية 2015/ الكومبارس 2016/ البلاط الأسود 2017/ دار العشاق 2018/ اللوكاندة 2020) عن الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة.

* أصدر كتبًا أخرى هي (ملامح وأحوال... قراءة في الواقع التشكيلي المصري/ 2 عن المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة)، (تاريخ الرسم الصحفي في مصر 2002/ دار ميريت)، (الأخضر والمعطوب في الفن والثقافة والحياة/ دار أخبار اليوم)، (السينما المصرية... 50 عامًا من الفرجة 2018/ عن دار كُتّاب للنشر بدبي)،

و(السينما المصرية في رمضان 2018/ دار أخبار اليوم).

* نالت الباحثة الفرنسية/ المصرية عائشة جلال درجة الماجستير عن ترجمة وتحليل روايته (العاطل) من المعهد القومي الفرنسي للحضارات الشرقية بباريس عام 2017.

* نال أكثر من باحث مصري درجات الترقية في الجامعات المصرية عن دراسات أكاديمية قدموها لبعض رواياته مثل (العاطل)، و(نساء القاهرة. دبي)، و(الأزبكية).

* يعكف حاليًّا أكثر من سبع باحثين من الشباب على إعداد رسائل ماجستير عن رواياته في جامعات (عين شمس)، (حلوان)، (الإسكندرية)، (دمنهور)، وغيرها.

* قام بتأسيس مجلة (دبي الثقافية) بناءً على تكليف من رئيس التحرير الأستاذ سيف المري، وكان أول مدير تحرير لها بدءًا من صدور العدد التجريبي الأول يونيو 2، ثم العدد الأول في أكتوبر 2004 حتى العدد 57 الذي صدر في فبراير 2010، حيث كانت هذه المجلة فتحًا جديدًا في عالم المجلات الثقافية تأثرت بها كثيرًا معظم المجلات التي صدرت بعدها.

* قام بتأسيس جائزة (دبي الثقافية للإبداع) عام 2000 - كان اسمها في السابق جائزة "المبدعون" ثم جائزة "الصدى" للمبدعين - وكان أول منسق عام للجائزة.

* قام بتأسيس سلسلة كتاب (دبي الثقافية)، حيث عمل مديرًا لتحرير السلسلة وأشرف على إصدار 33 كتابًا لكبار المثقفين والمبدعين العرب.

* أسهم في تأسيس جائزة البحرين لحرية الصحافة، وكان أول منسق عام للجائزة في عام 2010.

* قام بتأسيس جديد لمجلة (الرابطة الثقافية) التي تصدر عن (رابطة شعراء العرب) بالشارقة، وأصدر العدد الأول منها في نوفمبر 2018، وتولى موقع (مستشار التحرير).

* اختارته وزارة الثقافة وتنمية المعرفة بدولة الإمارات للقيام بتدريب الشباب الإماراتي على كتابة الرواية ضمن برنامج (إعداد المؤلفين الشاب) الذي أطلقته الوزارة في أبريل 2017، حيث انطلق البرنامج في أكتوبر 2017 واستمر حتى أبريل 2018.

* كتب مقالًا يوميًّا لمدة عام في جريدة التحرير المصرية (يوليو 2015/ يوليو 2016).

* عمل منسقًا إعلاميًّا وثقافيًّا في مؤسسة (ندوة الثقافة والعلوم) بدبي من 2010 حتى 2013.

* تشرف بالمشاركة في فعاليات وندوات معرض القاهرة الدولي للكتاب/ معرض مكتبة الإسكندرية للكتاب/ معرض الشارقة الدولي للكتاب/ معرض أبوظبي الدولي للكتاب/ معرض الجزائر الدولي للكتاب/ معرض الدار البيضاء الدولي للكتاب.

* ألقى العديد من المحاضرات في الثقافة والأدب والفن والصحافة في عدة فعاليات في بلدان ومدن مختلفة، مثل: الشارقة/ دبي/ أبوظبي/ القاهرة/ الإسكندرية/ الكويت/ تونس/ الجزائر/ الرباط/ باريس/ سيئول بكوريا الجنوبية/ صنعاء وغيرها.

* استضافه العديد من القنوات الفضائية العربية للحديث عن الأدب والفن والصحافة، مثل قنوات: (النيل الثقافية/ القناة الثانية المصرية/ قناة CBC / سكاي نيوز عربية/ الجزيرة/ قناة دبي/ قناة أبوظبي/ العراقية/ قناة الغد/ العربية / mbc/ ten.

* عمل رئيس تحرير تنفيذي لموقع (كايرودار) البوابة المعرفية والتعليمية لليوم السابع من مارس 2014 حتى مارس 2015.

* عمل محررًا ثقافيًّا ورسامًا في الصحافة الثقافية بالقاهرة بعد تخرجه حتى غادر إلى دبي في يناير عام 1999.

* شارك في الحركة المسرحية للشباب بالتمثيل والإخراج في الثمانينيات والتسعينيات، كما أسس فرقة "تمرد" المسرحية عام 1990، وأخرج لها أربع مسرحيات.

* أقام أول معرض خاص له عام 1994 بأتيليه القاهرة، بعنوان " ملامح وأحوال"، كما شارك بلوحاته في عدة معارض جماعية بالقاهرة.